سَام سَافاج

مغامَرات قارِض كتب

رواية مكتبة ١١٦٢ ترجمة: أشرف القرقني

مغامرات قارض كتب

مكتبة
t.me/soramnqraa
14 5 2023

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة

Firmin: Adventures of a Metropolitan Lowlife
By Sam Savage

يردُ العنوانُ الفرعيُّ في المؤلّف الأصليّ بالصّيغة التّالية: «مغامراتُ حقير حضريّ»، بينما تعتمدُ العديدُ من التّرجمات -وعلى رأسها التّرجمة الفرنسيّة- الصّياغة التّالية «سيرة قارض كتب»، نظرا إلى جمعها بين شخصيّة الكتاب الرّئيسيّة والخيط النّاظم لكلّ مستويات الرّواية. ولهذا السّبب أساسا، عمدنا إلى التّأليف بين الصّيغتين في ما اقترحناهُ في مستوى العنوان الفرعيّ رغم اقتصارنا في ترجمة الرّواية على النّسخة الأصليّة باللّسان الإنجليزيّ. (المترجم)

سام سافاج

مغامرات قارض كتب

ترجمة: أشرف القرقني

مكتبة | 1162

مسكيلياني

الكاتب: **سام سافاج**
الكتاب: **مغامرات قارض كتب**
ترجمة: **أشرف القرقني**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوكة**
خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**
تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-208-9**
الطبعة العربية الأولى: 2022

Copyright © 2006 by Sam Savage

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

إلى نورا

ذات مرّةٍ، نام تشوانغ تسو. فحلُم بنفسه فراشةً ترفرفُ سعيدةً في الأنحاء. ولم تعرف هذه الفراشةُ أنّها كانت حلُمَ تشوانغ تسو. ثمّ استيقظ، على حاله كما يبدو، لكنّه لم يعد يعرف ما إذا كان إنسانًا يحلمُ بنفسه فراشةً أم فراشة تحلم بأنّها إنسان.

تعاليم تشوانغ تسو

لو كان قد احتفظ بمذكّراتٍ للألم، لكان المدخل الوحيد كلمةً واحدةً: أنا.

فيليب روث

الفصل الأوّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

لطالما تخيّلتُ أنّني إذا كتبتُ قصّةَ حياتي، فإنّ جُملتَها الأولى ستكونُ عظيمةً؛ عاطفيّةً مثل جملة نابوكوف: «لوليتا، يا نورَ حياتي ويا نارَ حشايَ»، وإذا لم أتمكّن من هذه الجملة العاطفيّة، سأُحاول كتابة شيءٍ سلسٍ بأسلوبِ تولستوي: «تتشابهُ كلّ العائلات السّعيدة. لكنّ كلّ عائلةٍ تعيسةٍ تعيشُ بُؤسَها على طريقتها الخاصّة.» إنّ النّاس يتذكّرون هذه الكلمات حتّى عندما ينسون كلّ شيءٍ آخر يتعلّق بالكتب الّتي تضَمَّنتها. أمّا أفضل الفواتح حسب رأيي فهي فاتحة «الجنديّ الصّالح» لفورد مادوكس فورد: «هذه أحزنُ قصّةٍ سمعتها في حياتي». ولقد قرأتُ هذه الفاتحة عشرات المرّات دون أن تغادرني الدّهشة. فورد مادوكس فورد كان عظيمًا.

كافَحت طيلة حيَاتي من أجل الكتابة، وأنا مُتأكّدٌ من أنّني لم أصارع شيئًا برُجولةٍ مثلما كان الحال مع الفواتح -نعم، إنّها الكلمة، رُجولة- ولطالما بدا لي أنّني إذا تمكّنتُ فحسب من إحكام تلك النّتفة، فإنّ كلّ ما تبقّى سيتدفّقُ بمفرده. كنتُ أتمثّل تلك الجملة الأولى باعتبارها رحمًا دلاليًّا مُتخمًا بأجنّة من صفحات غير مكتوبة، وشذراتِ عبقريّةٍ صغيرةٍ مشعّة تلهثُ من أجل أن تولد.

يمكنُ القول إنّ الحكاية كلّها سوف تسيل من ذلك الوعاء. يا له من وهم! لقد تبيّن لي في ما بعد أنّ الأمر مُختلفٌ تمامًا، وهذا لا يعني أنّني لم أكتب بعض الفواتح الجميلة. تذوّقوا هذه مثلًا: «عندما رنّ الهاتفُ في الثّالثة صباحًا، عرف موريس مونك من قبل أن يرفع السّمّاعة أنّه بصدد تلقّي اتّصالٍ من سيّدة. وكان يعرفُ أمرًا آخر أيضًا: لا شيء وراء السّيّدات سوى المتاعب». أو هذه: «قُبيل أن يُقطّع إربًا من قبل جنود غامال السّاديّين، تراءَى للكولونيل بنشلي مشهدُ الكوخ المبيّض بالكلس في شروبشاير، وعند عتبة الباب تقفُ السّيّدة بنشلي وحولها الأطفال». أو هذه أيضًا: «باريس، لندن وجيبوتي... بدت كلّها بالنّسبة إليه غير حقيقيّة، بينما يجلسُ مرّة أخرى بين بقايا عشاء عيد الشّكر مع أمّه وأبيه والأبله تشارلز». من بإمكانه أن يظلّ غير مبالٍ إزاءَ جملٍ كهذه؟ إنّها حبلى بالمعنى تمامًا -إذا جاز لي أن أقول- حُبلى بالمعنى إلى درجة أنّها تنتفخ حتّى تكاد أن تنفجر بتلك الفصول التي لم تكتب بعدُ، نعم، لم تكتب بعد، لكنّها هناك، هناك سلفًا!

للأسف، لم تكن تلك الجمل الرّائعة المكتنزة بالوعود سوى فقاعات، كانت أوهامًا لا أكثر، وكانت كلّ واحدةٍ منها بمثابةِ صندوقِ هدايا مُغلّفٍ ومثبّتٍ في يدِ صغيرةٍ لطفلٍ متحمّسٍ، صندوقًا لا يحتوي على شيء سوى الحصى ونتفٍ من الوَسخ، ولكنّهُ يُطلق رنينًا ساحرًا جدًّا يجعل الفتى يحسبُ أنّه صوتُ الحلوى! كنتُ أحسبُ أنّه الأدب، ثُمّ تبيّن لي أنّ كلّ تلك الجمل، بالإضافة إلى جملٍ أخرى كثيرة، ليست منصّةَ وثبٍ نحو الرّواية العظيمة غير

المكتوبة، وإنّما حواجز تفصلني عنها ولا يمكنُني التّغلّب عليها. أرأيت؟ لقد كانت مُغاليةً في الجودة، ولم يكن باستطاعتي قطّ أن أضاهيَ مستواها. بعضُ الكتّاب عاجزون تمامًا عن مُضارَعة روايتهم الأولى. أمّا أنا، فلم أتمكّن مُطلقًا من الاحتفاظ بمستوى جملتي الأولى. وانظر كيف انتهى بي الحال وكيف بدأتُ عملي الأخير وأثَري الأروع: «طالما تخيّلتُ أنّني إذا كتبتُ قصّة حياتي...» يا إلهي! «إذا»! أرأيت المشكلة؟ لا فائدة من كلّ هذا. إنّه مُجرّد هراء.

هذه أحزنُ قصّةٍ سمعتها في حياتي. وهي مثل كلّ القصص الحقيقيّة، لا أحد بإمكانه معرفة من أين تبدأ. إنّ البحث عن نقطة البداية شبيهٌ بمُحاولتك اكتشاف منبع النّهر؛ تُجدّف ضدّ التّيّار طيلة أشهرٍ، تحت شمسٍ حارقةٍ، بين أبراجٍ من جدرانٍ خضراءَ في غابةٍ تقطر، وخرائط نديّة تتحلّل بين يديك، تكادُ تُجنّ بسبب الأمل الكاذب وخُدَع الذّاكرة وأسراب الحشرات الخبيثة الّتي تعضّ، وكلّ ما تدركه في النّهاية -جزيرة الكنز في رحلة البحث السّخيفة هذه- بقعة رطبة في الغابة، وهي مكان لا أهميّة له في بنية القصّة، إذ لا يتعدّى أن يكون كلمةً أو حركةً لا معنى لها وسطَ الحكاية. ومع ذلك، يغرز رسّامُ الخرائط طرف فرجاره في مكان مّا بين البُقعة الرّطبة والبحر، ويصرّح في سرّه: هُنا يبدأ الأمازون.

يحدث معي الأمر نفسه عندما أبحث عن بداية قصّة حياتي، أنا رسّام خرائط الرّوح، أغمضُ عينيّ، وأصوّب، ثُمّ أفتحهما

لأكتشفَ لحظةً مُرفرِفة مُثبَتَةً بطرف فرجاري: 3:17 مساء، الثّالث عشر من أفريل، 1961. أعتصرُ عينيّ كي أتثبّت جيّدًا؛ أيّتها اللّحظة المسمّرة، أين هو صاحب الذّقن المنفلت؟ وها أنا هناك -أو بالأحرى ها قد كنتُ هناك- أحدّقُ حذِرًا من فوق حافّة الشّرفة، ممرّرًا طرف أنفي وعينًا واحدةً فحسبُ. كانت تلك الشّرفةُ موضعًا جيّدًا بالنّسبة إلى مُتلصّصٍ مثلي، إذ تُمكّنني من مُراقبة أرضيّة المحلّ كلّها من دون أن يراني أيّ واحدٍ من النّاس الماكثين في الأسفل. كان المتجر في ذلك اليوم مزدحمًا بزبائن يفوقُ عددهم ما هو مألوف، وقد كانت همساتهم تطفو، في متعةٍ، مرتفعةً إلى الأعلى. إنّه مساء ربيعيٌّ جميلٌ، وعلى الأرجح خرج بعض هؤلاء من أجل نزهةٍ، شاردي الذّهن، متأمّلين في أشياء مُختلفة قبل أن تستولي على اهتمامهم علامةٌ ملوّنة باليد في نافذة المتجر، كُتب عليها: 30 ٪ تخفيضًا على جميع المشتريات التي تفوق 20 دولارًا. والحقُّ أنّي لم أكن قادرًا على معرفة الشّيء الّذي يمكنه أن يجذبهم إلى المتجر، بما أنّني لم أكن أملك في تلك الفترة أيّ تجربةٍ عمليّة تتعلّق بالأموال وقيمتها. إنّ الحديث عن الشّرفة والمتجر والزّبائن، وحتّى الرّبيع، يقتضي شُروحًا واستطرادات ضروريّة، ولكنّها ستُعثّر إيقاعي السّرديّ الّذي أحبّذ أن أراه مُتدفّقًا دفعةً واحدةً. من الواضح أنّني تماديتُ كثيرًا، أقصد أنّي أخطأت في خضمّ حماستي فلم أتمكّن من جعل القصّة كلّها تتدفّق، إذ قد لا نعرفُ أبدًا من أين تبدأ حكايةٌ مّا، ولكنّنا نستطيع أحيانًا أن نقدّر من أين لا يمكنُ أن تبدأ، أي ألّا تبدأ من حيث يكون التّيّار في أوجّ تدفّقه.

أغمضُ عينيّ، وأسدّدُ من جديدٍ. أفتح اللّحظة المُرفرِفة، وأسمّرُ جناحيها في المكتب: 1:42 صباحًا، 9 نوفمبر، سنة 1960. كان الجوّ باردًا ورطبًا في ميدان سكولاي ببوسطن، وقد لجأت المسكينة الجاهلة فْلُو -والّتي سأعرفها لفترةٍ وجيزةٍ بصفتها ماما- إلى قبوِ متجرٍ في كورنهيل. لقد توصَّلَت في غمرة الخوف، بطريقة مّا، إلى عُبور فتحةٍ ضيّقةٍ جدًّا واعتصار نفسها بين اسطوانةٍ معدنيّةٍ كبيرة وجدار القبو الخرسانيّ، ثمّ جثمت هناك ترتعشُ من الخوف والبرد. كان بإمكانها أن تسمع الصّرخات والضّحكات قادمةً من الشّارع في الأعلى، ومنجرفةً بعيدًا عبر الميدان. لقد أوشكوا أن يقتنصوها في تلك المرّة-خمسُ رجالٍ بملابسِ بحّارةٍ كانوا يدوسون بأقدامهم ويركلون ويصرخون مثل المجانين بينما كانت هي تجري متعرّجةً هنا وهناك- هيّا يا فْلُو، أوقعي بهم حتّى يصطدم بعضهم ببعض! لكن فجأةً، اقتنصها حذاءٌ أسودُ صقيل بضربةٍ في ضلوعها. فطارت عاليًا. وسقطت على الرّصيف.

كيف نجت إذن؟

بالطّريقة نفسِها التي ننجو بها دومًا، بواسطة معجزة: الظّلمة، المطر، شَقّ في باب، وتعثّر مطارِد. *الملاحقة والهروب في أقدم مدن أمريكا*. لقد توصّلت أثناء اندفاعها، مذعورةً، إلى شقّ طريقها والالتفاف على نفسها حول ذلك الشّيء المعدنيّ المكوّر، حتّى إنّه لم يدركها سوى لمعانٌ خافتٌ قادمٌ من القبو المضاء. لقد جثمت هناك لفترةٍ طويلةٍ دون أيّ حركة. أغمضت عينيها مُتناسيةً الألم في جنبها، ومركّزةً بدلًا من ذلك على الدّفء اللّذيذ الّذي كان يتمدّد ببطءٍ في

جسمها، كان الشّيء المعدنيّ دافئًا بشكلٍ لذيذٍ، ناعمًا ومطليًّا وصقيلًا، ممّا جعل فُلُو تدفع بجسمها المرتجف إزاءه. ولعلّها نامت بعد ذلك. نعم، أنا متيقّن من أنّها نامت. واستيقظت في ما بعد منتعشةً.

لا شكّ أنّها زحفت من جُحرها لاحقًا، في ارتباكٍ وخجلٍ، حتّى تصل إلى الغُرفة حيث يطنّ بخفوتٍ مصباحٌ فلوريٌّ تمّ شدّه إلى السّقف بسِلْكَين ناتِئين، وقد كان هذا المصباح يُلقي بوميضٍ مُزرقٍّ على مسكنها. هل قلت مسكنها؟ أيّ هراء هذا؟ إنّه مسكني أنا! إذ كانت الكُتب مُنتشرةً في كلّ مكان من حولها، تكسو كلّ الجدران من الأرضيّة حتّى السّقف، وكذلك جهتيْ حاجزٍ مرتفعٍ ينتصبُ وسط الغرفة برفوفٍ خشبيّةٍ عاريةٍ مزدحمةٍ بالكتب حتّى تكاد تنفجر بها. حشرت كتبٌ أخرى ذات مجلّدات أكبر مبسوطةً في الأعلى، بينما ارتفعت أخرى في شكل زقّورات[1] شاهقة تستندُ إلى الأرضيّة أو تتمدّد في شكل أكوامٍ هشّةٍ ورزمٍ مائلةٍ فوق الحاجز. لقد كان هذا المكانُ الدّافئ العفنُ الّذي لجَأَتْ إليه مقام كتبٍ، متحفًا لكنوزٍ منسيّةٍ، ومقبرة ما لم يُقرأ وما هو غير قابلٍ للقراءة. كانت هناك مجلّداتٌ أخرى ممزّقةٌ ومكسوّةٌ بالعفن تجاور كتبًا أكثر جدّةً، تيبّست جوانبها وانقلب لون صفحاتها إلى البنّيّ. هناك حمولاتٌ من كتب زاين غراي[2] وتوابيت من المواعظ المتجهّمة وموسوعات

---

(1) جمع زقّورة، وهي عبارة عن معابد قديمة ذات مدارج يقع معظمها في بلاد ما بين النّهرين. (المترجم)

(2) كاتب أمريكيّ (31 جانفي 1872 – 23 أكتوبر 1939) اشتهر بروايات المغامرة والقصص التي تقدّم صورة مثاليّة عن الحضارة الغربيّة. (المترجم)

قديمة ومذكّرات من الحرب العظمى وسجالات تناهض الصّفقة الجديدة[1] وكتب تعليمات تخصّ المرأة الجديدة[2]. ولكنّ فْلُو لم تكن تعلمُ طبعًا أنّ تلك الأشياء تُسمّى كتبًا. *مغامرات على كوكب الأرض*... إنّني أستمتع بتخيّلها وهي تُحدّق في هذا المشهد الغريب بوجهها الذّابل وجسمها المتين -لا بل جسمها البدين- وعينيها المتلألئتين المترقّبتين والطّريقة الوديعة التي تُغضّن بها أنفها. أحيانًا، ومن أجل المتعة فحسب، ألفّ وشاحًا أزرق حول رأسها، وأعقدهُ عند الذّقن. ومن ثمّ... فاتنة ماما! إنّها الكلمة الّتي تقول كلّ شيء.

كانت هناك في أعلى الجدار نافذتان صغيرتان، اسودّت ألواحها بالسّخام حتّى صار من الصّعب النّظر من خلالها. ومع ذلك، تمكّنتْ فْلُو من معرفة أنّ الوقت ما يزال ليلًا، فضلًا عن كونها سمعت الإيقاع المتسارع لحركة المرور، فأدركت استنادًا إلى خبرتها الطّويلة أنّ يوم عملٍ جديدٍ يوشك أن يبدأ. سيُفتح المتجر في الأعلى، وقد يشرع أشخاص في النّزول عبر الدّرج الخشبيّ المنحدر إلى القبو... أشخاص من فئة البشر ربّما، بأقدامٍ كبيرةٍ وأحذيةٍ ضخمةٍ. بووووم! كان عليها أن تسرع -ولأقل ذلك الآن- ليس فقط لأنّها لم تكن تريدُ أن يقبض عليها البحّارةُ، فيركلوها، أو يفعلوا بها ما هو

---

(1) الصّفقة الجديدة أو الاتّفاق الجديد The New Deal، هي مجوعة من البرامج الاقتصاديّة أُطلقت في الولايات المتّحدة بين عامي 1933 و1936، خلال الفترة الرّئاسيّة لفرانكلين روزفلت. (المترجم)

(2) إشارة إلى حركة نسويّة فكريّة وفنّيّة انطلقت من المصطلح الذي أنشأته الكاتبة الإيرلنديّة سارا غراند وروّجه استخدام الكاتب الانجليزيّ الأمريكيّ هنري جايمس له. (المترجم)

أسوأ، وإنّما كان عليها أن تسرع خاصّة بسبب الشّيء الهائل الذي يحدث داخلها. حسنًا، ليس شيئًا على وجه الدّقّة، على الرغم من وجود أشياء داخلها فعلًا (ثلاثة عشر منها). إنّه أشبه بعمليّة، نوع من الأحداث يسمّيه النّاس، بواسطة روح الدّعابة الهائلة لديهم، حدثًا مباركًا. لا شكّ في أنّ حدثًا مباركًا يوشك أن يكون، لكنّ السّؤال الوحيد هو: حدثُ مَن هذا المباركُ؟ حدثها؟ أم حدثي أنا؟ فلقد ظللتُ مقتنعًا طيلة حياتي أنّ ميلادي قد يخصّ ببركته أيّ شخصٍ آخر باستثنائي أنا. ولكن، فلأدَعْ نفسي جانبًا الآن -آه لو كان ذلك بإمكاني!- ولأعد إلى الوضع في القبو. كان الحدث المبارك على وشك أن يقع، والسّؤال: ماذا ستفعل فْلُو (ماما) حياله.

حسنًا، سأخبركم بما فعلته.

لقد اندفعت نحو أقرب رفٍّ مُجاورٍ للثُّقب الموجود خلفَ الشّيء المعدنيّ الدّافئ، وسحبت أكبر كتابٍ تمكّنت من وضع قائمتيها عليه. سحبته. ثمّ فتحته. وإذ أمسكت بساقيها إحدى الدّفّتين، راحت تُمزّقه إلى قصاصات بواسطة أسنانها. فعلت الشّيء نفسه مع صفحةٍ ثانيةٍ فثالثةٍ. أسمعُ في هذه اللّحظة صوت ارتياب. أسمعكَ وأنت تسأل؛ كيف أعرف أنّها اختارت *الكتاب الأكبر*؟ حسنًا، مثلما يحبّذ دجيفز[1] أن يقول، إنّها مسألة تتعلّق بسيكولوجيّة الفرد. وهو في هذه الحالة فْلُو، تلك الّتي توشك على أن تصير أمّي. وأنا أخشى

(1) ريغينالد دجيفز هو شخصيّة شهيرة في روايات بلهام غرنفيل وودهاوس. عُرف بحلّه الدّائم للمشاكل التي يقع فيها سيّده بارتي وأصدقاؤه.

أن تكون لفظة «بدينة» موغلة في اللّطافة، إذ كانت مُفرطة في الوزن على نحو مقزّزٍ. إنّ المأكولات الكثيرة التي تتزوّد بها يوميًّا قد جعلها منفعلةً على نحو مرّوعٍ، منفعلةً وشبيهةً بخنزيرةٍ، وقد كانت تمسك دومًا بالقطعة الأكبر من أيّ شيءٍ، إذ يقودها الصّخب النّهِم لملايين الخلايا الجائعة نحو أكبر قطعةٍ حتّى لو كانت متخمةً سلفًا، ولا يمكنها إلّا أن تقضم مِزقًا من حوافّ ما تُمسك به، وذلك ما كان يفسد مزاج الآخرين طبعًا. باختصار، إنّ أكبر مجلّدٍ في المكان هو ذاك الّذي قصدته هي دون شكّ.

يحلو لي أحيانًا التّفكير في أنّ أولى لحظات كفاحي من أجل الوجود قد رافقها -مثلما لو كانت مشية النّصر- تمزيقُ موبي ديك[1]، الأمر الّذي بإمكانه أن يشرح طبيعتي المغامِرة. وفي أحيانٍ أخرى، حين أشعر بأنّني متوحّش ومنبوذ، فإنّني أكون مقتنعًا أنّ الذّنب ذنبُ دون كيشوت[2]. عليك فقط أن تسمع هذا: «إجمالاً، أطلق صاحبُنا نفسه بلا هوادةٍ في قراءاته الّتي ملأت نهاراته ولياليه، من اللّيل حتّى الصّباح ومن الصّباح حتّى اللّيل. كان مقلًّا في نومه، مفرطًا في القراءة حتّى إنّ دماغه جفّ وفقد عقله في نهاية المطاف. وإذْ فقد فطنته تمامًا، اصطدم بأغرب فكرةٍ خطرت من قبل على بال مجنونٍ. لقد اعتقد أنّه من الضّروريّ، من أجل شرفه وخدمةً لوطنه، أن يصير فارسًا مُطوّفًا». انظروا قليلًا إلى الفارس ذي الوجه الحزين:

---

(1) موبي ديك: رواية شهيرة للكاتب الأمريكيّ هرمان ملفيل نشرت سنة 1851.

(2) دون كيشوت أو دون كيخوته: رواية للأديب الإسبانّي ميغيل دي ثيربانتس تعتبر إحدى أشهر الأعمال الرّوائيّة المؤسّسة في الأدب العالميّ.

أحمق، عنيد، تهريجيّ، ساذج حدّ العمى، مثاليّ حدّ السّخافة- ومن يكون هذا إذا لم يكن أنا في صورة مختزلة.- الحقيقة أنّني لم أكن يومًا سليم الذّهن، إلّا أنّني لا أحارب طواحين الهواء. بل أفعل ما هو أسوأ؛ إنّي أحلم بمُحاربتها، أتحرّق شوقًا لفعل ذلك. وأحيانًا، يُشبّه لي أنّني قد حاربت من قبل طواحين الهواء... طواحين الهواء أو طواحين الثّقافة أو -فلأقل ذلك- تلك الألذّ من بين جميع الأشياء الّتي لا تقبل الغزو، تلك الطّواحين الإيروتيكيّة، مصانع الشّبق الصّغيرة، المعامل الشّهوانيّة للمسرّات الغريبة، أرض أحلام الفاسقين المحبطين، أقصد أجساد عزيزاتي. وما الفرق في النّهاية؟ لا شيء يمكن انتظاره من حالةٍ ميؤوسٍ منها. لن أشغل بالي الآن بهذه المسائل. سيكون لي متّسعٌ من الوقت لأفكّر فيها لاحقًا.

صنعت ماما كومةً هائلةً من الورق. وراحت تسحبها بجهدٍ عظيمٍ، وتجرّها إلى ذلك الكهف الصّغير المظلم الّذي عثرت عليه. ولكنّ علينا ألّا نتلهّى بلغطها الكئيب الّذي يفرزه جسمها السّمين، إذ نوشك حينئذٍ أن نغضّ النّظر عن السّؤال الأساسيّ: من أين جاء كلّ ذلك الورق؟ من صاحب تلك الكلمات المكسورة والجمل المحطّمة الّتي خفقتها أمّي، كي تصنع منها الخليط الّذي لا يمكن فكّ شفرته، والّذي وسّد، بعد لحظاتٍ، سقوطي إلى الوجود؟ إنّني أجهد عينيّ كيّ أتمكّن من الرّؤية. تسود الظّلمة ذلك المكان الّذي سحبَت إليه كومة الأوراق، حيث تدكّها الآن باتّجاه الوسط، وتقوّس أطرافها إلى الأعلى. لا يمكنني أن أرى المشهد بوضوح إلّا حين أطلّ من فوق الحافّة الّتي احتوت لحظة ولادتي. إنّني أحدّق من

مرتفعٍ شاهقٍ، محوّلًا مخيّلتي إلى منظارٍ بعيد المدى. أعتقد أنّني أراه. نعم، إنّي أتعرّف إليه الآن. لقد صنعت فُلُو العزيزة القصاصات الورقيّة من *جنازة فينيغان*[1]. كان جويس عظيماً، بل لعلّه الأعظم على الإطلاق. لقد وُلدت ونِمتُ وأُرضِعت كذلك على الهيكل المشوّه للتّحفة الفنّيّة الأقلّ قراءةً في العالم.

عائلتي وفيرة العدد. كنّا ثلاثة عشر طفلًا، سرعان ما تدحرجنا إلى تلك الحفرة. ولكي أتحدّث بلسان الكتاب، أقول: «كائنات صغيرة جدًّا مُتقلّبة ومُكوّرة في تزاحمها، تضجُّ طلبًا لحليبها.» (وبعد كلّ هذه السّنوات، ها إنّي ما أزال هنا، جامدًا أصرُّ من أجل حليبي وفتاتي. آه أيّتها الأحلام!) لم يمرّ وقت طويل حتّى شرعنا في العراك من أجل الأثداء الاثني عشر؛ سويني، تشاكي، لوينا، فيني، مات، بيوي، شانت، بودينغ، إلفيس، إلفينا، همفري، هونيتشايلد وفرمين (إنّه أنا، الطّفل الثّالث عشر). إنّني أتذكّرهم جميعًا وبشكلٍ جيّدٍ؛ لقد كانوا وحوشًا حتّى وهم عمي وعراة (عراة بالأخصّ)، أعضاؤهم متورّمة بالأعصاب والعضلات، أو هكذا بدت لي على الأقلّ في تلك اللّحظات. أنا الوحيد الّذي ولد بعينين مفتوحتين، محميًّا بمعطفٍ متواضعٍ من الفرو الرّماديّ النّاعم. كنت سقيمًا أيضًا. وصدّقوني إنّه من المرعب أن يكون المرء سقيمًا، خاصّة إذا كان صغير الحجم.

---

(1) جنازة فينيغان أو بعث فينيغان: رواية لجايمس جويس. تعتبر إحدى أكثر الرّوايات صعوبةً وتعقيدًا من بين مؤلّفات صاحبها ومن بين مصنّفات الأدب الانجليزيّ إجمالًا، نظرًا لإطنابها في التّجريب والغموض.

لقد كان لذلك ضررٌ هائلٌ في ما يتعلّق بقدرتي على المشاركة على نحو كاملٍ في عمليّة الرّضاعة الّتي اعتادت أن تحدث وفق هذه الطّريقة: كانت أمّي تعود إلى البيت مترنّحةً بمزاجها الفاسد المُعتاد بعد يومٍ تقضّيه حيث لا يعلم أحد. تتهاوى على السّرير، وهي تنخر وتتذمّر كأنّها توشك أن تفعل شيئًا بطوليًّا إلى حدٍّ بعيدٍ، شيئًا مّا لم تفكّر أيّ أمّ أخرى في تاريخ العالم كلّه في فعله من قبل. وتغرق في النّوم مباشرةً، بفمٍ فاغرٍ وهي تشخر في صممٍ تامٍّ عن الفوضى الّتي تندلع من حولها. نندفع نحن الثّلاثة عشر، نشقُّ طريقنا في الآن ذاته باتّجاه الأثداء الاثني عشر، ونحن نتقاتل بالمخالب ونتدافع ونعضُّ ونزعق. إنّه *الحليب والجنون*[1]. وفي لعبة الأثداء الموسيقيّة هذه، كنتُ أنا دومًا من يُفردُ جانبًا، حتّى إنّني من حينٍ إلى آخر كُنت أسمّي نفسي «الّذي يُفرَد جانبًا». لقد توصّلتُ إلى أنّ صياغة الأمر على هذا النّحو يساعد على تقبّله، فحتّى حين أتوصّل في حالاتٍ نادرةٍ إلى أن أكون الفتى الأوّل، فإنّني أنتهي بسُرعةٍ مدفوعًا من قبل أحد أشقّائي الأقوياء. إنّها لمعجزة أنّني غادرت عائلتي حيًّا. وفي الحقيقة أنا مدين بنجاتي لفَضَلَاتِها. وحتّى يومنا هذا، أستطيع، بواسطة التّذكّر، أن أشعر مجدّدًا بإحساس الانزلاق الفظيع، إذ ينفلتُ الثّدي من فمي وأُسحب من قدميّ الخلفيّتين إلى الوراء. يتحدّث النّاس عن اليأس باعتباره شعورًا بفراغٍ في الأمعاء أو

(1) كناية عن كتاب «الحليب، المال والجنون؛ ثقافة الرّضاعة الطّبيعيّة وسياساتها لنعومي باومسلاغ.

إحساسٍ بالبرد أو الغثيان، وبالنّسبة إليّ، سوف يظلّ اليأس دومًا ذلك الإحساس بشيءٍ مّا ينسحب من لثّتي وينفلتُ من فمي.

ولكن، ما الّذي أسمعه الآن؟ إنّه الصّمت، صمتٌ مرتبكٌ. أليس كذلك؟ إنّك تمسّح على ذقنك. وتخمّن: «حسنًا، هذا يفسّر كلّ شيء. لقد قضّى هذا الشّخص حياته البائسة كلّها في البحث عن الثّدي الثّالث عشر». وماذا بوسعي أن أقول حيال ذلك؟ هل يجدر بي أن أستسلم للذّلّ وأقرّ بالأمر، أم ينبغي عليّ أن أحتجّ وأصرخ: أهذا كلّ شيء؟ أهذا كلّ ما استطاعَت الحياة تقديمَه إليَّ؟

الفصل الثّاني

تتركنا ماما كلّ ليلةٍ لتتسلّل إلى الأنحاء المجاورة، وتذهب إلى «الفوق» -مثلما يُقال- بحثًا عن المؤونة. لقد كان حيّنا مكانًا جيّدًا للتّزوّد في تلك الأيّام، إذ يحبّذُ أغلب النّاس إلقاء الأشياء على الأرصفة، بعد أن تغلق الحانات وعلب التّعرّي آخر اللّيل. فإلى جانب أكياس الورق وعلب البيرة المسحوقة وورق السّجائر والقيء، كانوا يلقون أيضًا العديد من الأشياء المغذّية، بل وجباتٍ كاملة لم تُلمس في بعض الأحيان. بالإضافة إلى ذلك، كانت مدينة بوسطن تُضَيّق الخناق على البؤساء الّذين يقطنون كلّهم في تلك الأيّام في منطقتنا تقريبًا. ولذلك توقّفتْ عن جمع القمامة، عقابًا لهم. كانت المزاريب تفيض بالمآكل، مُجبِرةً المارّة على تفحّص مواضع أقدامهم جيّدًا.

تغادر أمّي لزمنٍ يبدو شبيهًا بالأبديّة، بينما نضجّ نحن في تلك الظّلمة، رغم أنّه كان من المفترض أن نمكث هادئين جدًّا، بما أنّنا لسنا المستأجرين القانونيّين للمكان. لقد كنّا في الحقيقة محتلّين له. ولكن، بما أنّ كلّ شيء، انطلاقًا من المكتبة، وصولًا إلى علب التّعرّي اللّيليّة، ومرورًا بحاويات القمامة، كان متّجهًا في طريق سيّارةٍ نحو

النّسيان وتَشَبُّثِنَا نحنُ لمشاركة الطّريق فحسب، فإنّ لفظة «الرّكّاب السّرّيّين» ستكون أدقّ في وصفنا. ولكنّنا لم نعرف ذلك بعد؛ أقصد مسألة الرّكوب باتّجاه النّسيان. إذ عندما يكون المرء يافعًا، فإنّه يحسب ألّا شيء سوف يتغيّر إلى الأبد.

وبعد أن يمرّ زمنٌ نحسّ بأنّه يتمثّل في ساعاتٍ طوالٍ نكاد نموت من الجوع على إثرها، نسمع فجأةً صوت قدومها. ورغم أنّها تطلب منّا أن نمكث في كنف الهدوء، إلّا أنّها تصعد الدّرج محدثةً جلبةً وضوضاء.

يمكنني أيضًا أن أسمّي الأشياء بأسمائها، فأقول إنّ ماما قد كانت بشكلٍ مّا سكّيرة، وإنّ سكرها، بالإضافة إلى بدانتها الهائلة، يفسّر مشاكلها مع الدّرج. كان من الممكن للمرء في تلك الأيّام أن يلعق الخمر من على أرصفةِ حيّنا. ولم تكن فُلُو ممّن يكبح جماحه إزاء الإغراء. لقد كانت ذلك النّوع من الفتيات. وكان حيّنا ذلك النّوع من الأحياء. ولهذا السّبب، كانت دومًا ثملةً إلى حدٍّ مّا، وهي تترنّح عائدةً إلى البيت. وذلك ما يفسّر على الأرجح قدرتها على أن تغفو وسط ذلك الصّخب والضّجيج، غارقةً في النّوم بسُرعة الضّوء، وهي تشخر. هكذا كانت أمّي. يملك العديد من النّاس آباءً سكّيرين. لا شيء مميّز في ذلك. ولكن، حين أفكّر في حالتي الخاصّة، فإنّ ذلك ما يشكّل عنصر حظٍّ عظيمٍ بالنّسبة إليّ، بل يُمكنني التّفكير حتّى في أنّه قد أنقذ حياتي؛ *«في فوائد الكحوليّة: قصّة طفل»*. فبعد أن تعود مترنّحةً من إحدى رحلاتها إلى «الفوق»، تكون أمّي قد شربت ما يكفي من الخمر ليجعل الرّأس تدور. لستُ أتحدّثُ عن رأسي

طبعًا. فقد كنتُ كالعادة مُفردًا على حدة، آكل قلبي في عزلتي، بينما يرشف الآخرون بجشعٍ المادّة عظيمة اللّذّة الّتي تسيل منها، تلك الّتي كانت لتشتعل إذا دنت منها شرارة. وفي النّهاية، كان المشروب الكحوليّ يُؤثّر في إخوتي وأخواتي بالطّريقة نفسها الّتي أثّر بها من قبل في أمّي. فيغرقون تباعًا في النّوم، إذ تنزلقُ الأثداء من أفواههم الورديّة. وفي تلك اللّحظة، يكون جسم فُلُو قد تخلّص، دون شكّ، من النّصيب الأوفر من الكحول، فيبدأ الحليب في استعادة صفائه، ولا يبقى أمامي إلّا تسلّق صفوف المخمورين الصّغار، كي أتنقّل من ثديٍ إلى آخر، مُفرغًا القطرات اللّذيذة الأخيرة من كلّ واحدٍ منها. لم تكن تلك الكمّيّة كافيةً قطّ، لكنّها أحدثت فرقًا كبيرًا، أي أنّها أبقتني حيًّا، وإن كان ذلك بصعوبةٍ كبيرةٍ.

لم أعد مُجبرًا على أن أطلّ من حافّة مكان ولادتي حتّى أعثر على أمّي. يكفيني أن أتمدّد على فراش المزق الورقيّة، بينما تتململ فوق رأسي الأرجلُ الورديّة، وأرفع بصري نحو جسمها الهائل. لطالما نظرتُ إليها على هذا النّحو، ومع ذلك لا تكادُ صورة أمّي الّتي احتفظتُ بها من تلك اللّحظات، باستثناء حجمها الضّخم، تتجاوز غشاوةً غائمةً. أعتصر عينيّ. وأسحب التّلسكوب. ثمّ أركّز، أركّز جيّدًا ولا أرى أيّ شيء. حين أفكّر الآن في أمّي، لا شيء يدخل ذهني سوى الكلمات. أدفع تركيزي إلى الأقصى حتّى أوشك على أن يُغمى عليّ، وما يزال الأمر على حاله؛ لا شيء هناك سوى الصّورة المشوّشة وكلمات «ليس هناك أثداء كافية» ورائحة نشارة الخشب والبيرة الكثيفة الشّبيهة بأرضيّة مقصفٍ.

لم أتوصّل إلى معرفة ما يسمّى بالعالم الواقعيّ بشكلٍ جيّدٍ. لكنّني سافرتُ كثيرًا في رأسي، ممتطيًا أفكاري في شتّى أنحاء الأرض. وفي إحدى هذه الرّحلات، التقيتُ رجلًا في حانة، حدّثني عن قصّة طفولته عندما كان طفلًا صغيرًا في برلين، ألمانيا، بعد الحرب مباشرةً. لا بدّ أنّها الحرب العالميّة الثّانية. كانت المدينة كلّها قد قُصفت حتّى صارت حطامًا وأنقاضًا، كأنّها ما سيؤول إليه ميدانُ سكولاي بعد قليلٍ في تلك القصّة. كان الفصل شتاءً والطّقس باردًا. ولم يكن هناك أيّ شيء يُؤْكَلُ. كان بيته، أو ما تبقّى منه، مظلمًا وباردًا، ممّا جعل هذا الفتى يُقضّي معظم وقته جالسًا على الرّصيف، محتميًا بجدارٍ تُضيئه أشعّة الشّمس، حيث كان الجوّ أدفأ بقليلٍ. كان يحلم بالطّعام، وظلّ يمكث هناك لساعاتٍ كلّ يوم. توجد في الشّارع المقابل لمنزله حفرةٌ كبيرةٌ، حيث سَقطت قُنبلة. لقد ملأها النّاس جزئيًّا بأشياء مختلفة. لكنّها بقيت حفرةً على أيّة حال. وذات يومٍ، تقدّمت في الشّارع شاحنةٌ مُحمّلة بالفحم. لم يرَ السّائق الفوهة في اللّحظة المواتية. فاصطدمت الشّاحنة بها. بووووم! سُمع دويٌّ هائلٌ. وتناثر الفحم من الشّاحنة. لكنّها لم تتوقّف. بل استمرّت في التّقدّم حتّى انعطفت عند المفترق التّالي. ولوهلةٍ، لم يكن هناك سوى هذا الشّارع المضاء بأشعّة الشّمس، مكسوًّا بالفحم. تدحرجت إحدى القطع، واستقرّت عند قدم الفتى الصّغير تمامًا، وفجأةً، كما لو كان الأمر استجابةً لإشارةٍ، انفتحت أبواب المنازل واندفع رجالٌ ونساءٌ بقوّةٍ إلى الخارج. كان عدد النّساء أكثر، وكان الفتى الصّغير يحدّق في المشهدِ بتعجّبٍ بينما شرعوا جميعًا في التقاط

قطع الفحم وجمعها في مآزرهم وسلالهم، بل إنّهم قد شرعوا حتّى في القتال من أجلها. قرّر الفتى أن يضع قدمه على القطعة الصّغيرة المرميّة على الأرض إلى جانبه، ثُمّ دسّها في جيبه عندما انصرف كلّ النّاس إلى بيوتهم. كان باستطاعته، انطلاقًا من تصرّفات النّاس، أن يدرك أنّها شيءٌ ثمينٌ جدًّا، رغم أنّه لم يكن يملك أدنى فكرة عن ماهيّته. نهض لاحقًا وذهب خلف الرّكن، وفي تلك اللّحظة أخرجها من جيبه وحاول أكلها.

وفي إفريقيا أثناء المجاعات، كان الأطفال المتضوّرون جوعًا يأكلون من القذارة الّتي يجدونها في التّراب. إذا كنت جائعًا بما يكفي ستأكل أيّ شيءٍ، ومجرّدُ مضغِ أيّ شيءٍ وابتلاعه سيكفيكَ، لأنّه إذا لم يَتمكّن من تغذية جسدكَ سيُغذّي أحلامكَ. وأحلام الطّعام، مثلها مثل سائر الأحلام، يُمكنك أن تحيا عليها إلى أن تموت في نهاية المطاف.

في قبو متجر الكتب، حيث عشنا، لم يكن هناك أيّ فحمٍ أو قذارةٍ حقيقيّةٍ. يوجد الكثير من الغبار، لكنّ المرء لا يستطيع أن يأكل الغبار، فهو يعلق في حنَك الفم ويصير من المستحيل ابتلاعُه. في المقابل، يملك الورق، وفقَ ما اكتشفتُه باكرًا، كثافةً رائعةً ومذاقًا مقبولًا في بعض الأحيان. يُمكنك أن تمضغ قطعةً كبيرةً منه لساعاتٍ إذا شئت، كما لو كان علكةً. وهو ما حدث معي حين أُبعدت من قبل أشقّائي الأقوياء ومكثت في زاويةٍ منتظرًا دوري، إذ حاولتُ ملأ خواء معدتي بوجباتٍ كثيرةٍ مُتخيّلة، فشرعتُ في مضغ مِزَق ورقٍ موضوعٍ عندَ قدميّ.

ورغم أنّني بالكاد غادرتُ طفولتي الأولى في تلك الأيّام، فإنّه ما من مبالغة في قولي؛ لقد كانت بداية النّهاية بالنّسبة إليّ. ومثل العديد من الأشياء الأخرى الّتي تبدأ صغيرةً في شكل ملذّاتٍ محظورةٍ، تحوَّل مضغُ الورق سريعًا إلى عادةٍ مُلزمةٍ، ومن ثَمّ إلى إدمانٍ، فقد كُنت أُعاني من جوعٍ قاتلٍ وكان إشباعهُ ممتعًا جدًّا، حتّى إنّني صرتُ أتردّد مرارًا في الانقضاض على أوّل ثديٍ شاغرٍ. وبدلًا من ذلك، أتسمّر في مكاني وأنا أمضغ إلى أن أرطِّب اللّقمة في فمي، فتصير عجينةً لذيذةً يمكنني أن أهرسها إزاء حنكي أو أشكّلها بلساني في قوالب غريبة، قبل أن أبتلعها بهدوءٍ. وللأسف، يخلّفُ الورق الممضوغ طلاءً دبقًا في فمي ولساني، يدوم لساعاتٍ ويدفعني إلى لعق شفتيّ على نحوٍ مزعجٍ.

بدأ كلّ شيءٍ بشكلٍ بطيءٍ؛ كنتُ أقوم بعضّةٍ هنا وأخرى هناك، من حين إلى آخر. وسريعًا، لم أعد أتحكّم بنفسي وتوصّلتُ خلال أيّامٍ وجيزةٍ إلى مسح نصيبٍ وافرٍ من الفراش الجماعيّ الّذي يغطّي بقعًا كثيرة من الخرسانة العارية. تسبّب لي هذا الأمر في ما لا حصر له من المشاعر السّيّئة الّتي تصلني بالآخرين، بل إنّه أنزل بي بعض العضّات المؤلمة أيضًا. ولكنّني لم أسمح لهذا الأمر بإيقافي، إذ يمكنني أن أكون عاقد العزم بشكلٍ مذهلٍ عندما يتشبّثُ ذهني بأمر مّا.

في النّهاية، ولكي تُوقِف الشّجار، اضطرّت أمّي إلى الخروج ساحبةً معها بعض الصّفحات الأخرى من الكتاب العظيم. كان

حجمنا قد زاد في تلك الفترة. ولذلك انضممنا جميعًا إلى حفلة التّمزيق. كنّا نزعق مُستمتعين، نُمزّق ونُقطّع بانتقام. لا شيء يضاهي التّدمير في خلق إحساسٍ دافئٍ بالرّفقة. ولعدّة لحظاتٍ هناك، ونحن نضرب خبط عشواء، كنّا نحسّ، حقيقةً، أنّنا تلك العائلة الكبيرة السّعيدة. وعندما يطلب منّي النّاس أن أحكي شيئًا ممّا من طفولتي، فإنّني أُخرج دومًا هذه الحكاية، فقط كي أبيّن لهم أنّنا كُنّا عاديّين ومثل الجميع.

لا حاجة إلى القول إنّ مجيء كلّ هذا الورق النّظيف، الّذي لم يتبرّز أو يتبوّل عليه أحد، لم يُساهم بأيّ شكلٍ من الأشكال في كبح شهيّتي. ولا شكّ أنّني قد أرسلتُ فصولًا كاملةً إلى معدتي قبل أن أبلغ السّنّ الّتي تسمح لي بتحسّس طريقي، على أربعٍ، خارج ركننا المظلم وباتّجاه البَسيطة المتلألئة. إنّني مقتنعٌ تمامًا أنّ هذه الصّفحات الممضوغة قد أثّثت الأساس الغذائيّ لما يجدر بي أن أُسمّيه، بتواضعٍ، نموّي الذّهنيّ الاستثنائيّ، أو لعلّها قد تسبّبت فيه بشكلٍ مباشرٍ. تخيّل هذا: تاريخ العالم في أربعة مجلّداتٍ، شذرات ومقتطفات من الفلسفة وعلم النّفس واللّسانيّات وعلم الفلك والتّنجيم، مئات الأنهار، أغانٍ شعبيّة، الكتاب المقدّس، القرآن، البهاغافاد جيتا[1]، كتاب الموتى، الثّورة الفرنسيّة، الثّورة الرّوسيّة، مئات الحشرات، لافتات الشّوارع، الإعلانات، كانط،

(1) لفظة سنسكريتيّة تعني «نشيد السّعيد» أو «نشيد الرّبّ». وهو القسم المركزيّ من القصيدة الملحميّة مهابهاراتا، ونصّ مقدّس أساسيّ في الدّيانة الهندوسيّة.

هيغل، سفيدنبورغ[1]، القصص المصوّرة، ترنيمات الأطفال، لندن وسلانيك[2]، سدوم وعمورة، تاريخ الأدب، تاريخ أيرلندا، اتّهامات حول جرائم لا يمكن الحديث عنها، اعترافات، إنكارات، آلاف اللّعب اللّفظيّة، عشرات اللّغات، وصَفات طعام، نكات بذيئة، أمراض، تواريخ ميلاد أطفال وقرارات إعدام... لقد أخذتُ كلّ هذا وأكثر داخل جسدي، وأعترفُ صراحةً أنّ هذا قد حدث في وقتٍ مبكّرٍ جدًّا، قبل أن أصير مستعدًّا لذلك. إنّني أملك ذكرى حيّة عن نفسي، وأنا مقرفص في طفولتي في ركنٍ مظلمٍ، على فراشٍ من أوراقٍ ممزّقةٍ (وجباتي المستقبليّة)، ممسكًا ببطني المنتفخة على نحوٍ بشعٍ ومتأوّهًا من الألم. أوه، يا لذلك الألم! تلك التّشنّجات الطّويلة الّتي تحفر وتتلوّى كلّما حفرت طريقها قُدُمًا عبر أحشائي المرتعدة! مازلتُ أعتقدُ أنّه من المدهش أنّ هذا الاحتضار المتكرّر لم يُبعدني بشكلٍ نهائيٍّ عن مضغ الورق. لم أفعل ذلك طبعًا، وإنّما كنتُ أنتظر مرور الألم حتّى أعاود من جديد. وفي بعض الأحيان كُنت أعجز حتّى عن انتظار ذلك.

هل أسمعُ قهقهةً؟ أحسب أنّ هذا لا يتجاوز بالنّسبة إليك حالة إدمانٍ مبتذلةٍ أو ربّما الأعراض المثيرة للشّفقة لاضطراب الوسواس القهريّ المألوف. ولا شكّ أنّك على حقّ. ومع ذلك، فإنّ مفهوم الإدمان ليس ثريًّا بما يكفي، بل ليس عميقًا بما فيه الكفاية لوصفِ

(1) إمّانويل سفيدنبورغ: عالم ولاهوتيّ وفيلسوف سويديّ، عاش بين 1688 و1772.
(2) مدينة يونانيّة. وهي عاصمة لمنطقة مقدونيا الوسطى.

هذا الجوع. أفضّل أن أسمّيه الحبّ. قد يكون حبًّا أخرق أو شاذًّا حتّى، من طرفٍ واحدٍ دون شكٍّ، ولكنّه الحبّ في النّهاية. هذه هي البداية الدّبقة على نحوٍ فجّ للشّغف الّذي هيمن على حياتي. هناك من يقول إنّه دمّرها. ولستُ بالضّرورة مخالفًا لرأيه. لو كنتُ أكثر فطنةً لاستطعتُ أن أرى في ألم البطنِ الرّهيب الّذي يعقب ممارسةَ شغفي الطّفوليّ، علامةَ تحذيرٍ ونذيرًا بالعذاب الّذي لا ينتهي، والّذي يصاحبُ الحبّ دومًا، في ما يبدو.

لم أكن أتوقّف عن أكلِ الصّفحات، بل إنّ فعل المضغ يكاد يكون بلا توقّفٍ في حالتي إذا ما أحصينا اللّعق اللّاحق للشّفتين اللّزجتين، ولم أكن أترك الكتاب إلّا في حالةٍ مزريةٍ، أنا أشعرُ بالخجلِ ممّا سأقوله، لكنّ مرور الوقت جعلَ الكتاب العظيم ينزلقُ بشكلٍ حتميّ من درجة الملذّات السّاحرة إلى التّفاهات الّتي لا طعم لها. صار بلا مذاقٍ ومملًّا، ولا يكاد يكون أحسن من الكرتون في الحقيقة. كنتُ في حاجةٍ إلى تغيير حميتي الغذائيّة. ومع ذلك كنتُ أقع في كلّ مرّة.

وهكذا، قرّرتُ ذات يومٍ أن أريح عائلتي قليلًا، فخرجتُ لأمارس هوايتي بين الأكداس المتفرّقة. وكان ذلك صباح أحدٍ، أوّلَ مرّة أتسكّع فيها خارجًا. كان المتجر في الأعلى مغلقًا. ويكاد الشّارع يخلو من حركة السّيّارت الّتي كانت لتنسجم من بعيدٍ مع حفلة الشّخير الّتي تطلقها عائلتي الخِدرة. وإذ تقدّمتُ سريعًا عبر الممرّ الّذي يصل ركننا البيتيّ بالغرفة الكبيرة المشعّة، وأنفي ملتصقٌ بالأرضيّة، اعترضني على الفور الكتاب العظيم مفتوحًا

على الخرسانة، أو ما تبقّى منه. لقد تعرّفتُ عليه مُباشرةً وبشكلٍ غريزيٍّ بواسطةِ رائحتهِ، إذ أنّ استنشاق مئات الصّفحات المحشوّة بكثافة معًا والمركّزة في شكلها المنضّد جعلني أشعرُ بغثيانٍ طفيفٍ. إنّه *أثر العبقريّة*. رفعتُ بصري إلى الكتب المتبقّية على الرّفّ السّفليّ، حيث عثرت أمّي على كتابنا وسحبته معها. ورأيتُ أنّ بإمكاني أن أفهم العناوين بسُهولة. من الواضح أنّني كنتُ أعاني، حتّى في تلك السّنّ المبكّرة، من الموهبة الكارثيّة المتمثّلة في تضخّم الخلايا المعجميّة، الأمر الذي أثّر كثيرًا في إفساد المسار السّلس لما كان يمكن أن يكون حياةً عاديّةً على نحوٍ مثاليٍّ. كانت هناك، فوق هذه الرّفوف، لافتةٌ ورقيّة كُتب عليها بخطّ اليد كلمة «*الرّوايات*»، مع سهم أزرق مُرتجِل يشير إلى الأسفل. وخلال الأيّام والأسابيع الّتي تلت، رأيتُ أثناء استكشافي للغرفة المزيدَ من اللاّفتات؛ *التّاريخ، الأديان، علم النّفس، العلوم، المساومات، دورة المياه*.

إنّني أنظر إلى هذه الفترة باعتبارها البداية الحاسمة لتعليمي، حتّى لو لم يكن الحافز الّذي دفعني إلى الخروج من ركني المريح إلى العالم الكبير جوعًا إلى المعرفة. بدأتُ بأقرب الرّفوف، تلك الّتي توجدُ تحت لافتة «الرّوايات»، وأخذتُ ألعقُ، وأقضمُ، وأتلذّذُ المذاقات، ثمّ آكل، من الحوافّ في معظم الأحيان، ولكن عادةً، حين أتمكّن من رفع المغلّف، أهجم مباشرةً على الوسط مثل مثقابٍ. كُنت أفضّل إصدارات المكتبة الحديثة. ولطالما اخترتُ واحدًا منها كلّما تمكّنتُ من ذلك. قد يكون شعارها هو السّبب؛عدّاء يحمل

شعلة. لقد حدث أن تخيّلتُ نفسي أيضًا عدّاءً يحمل شعلة. أوه، أيّ كتبٍ اكتشفتُها خلال تلك الأيّام المُسكِرة الأولى! وإلى اليوم، ما تزال تلاوة عناوينها فحسب سببًا كافيًا لأذرف الدّموع. هيّا قم بتلاوتها! تلفّظ بها جهرًا وببطء. واترك لها أن تحطّم قلبك؛ *أوليفر تويست، مغامرات هكليبيري فين، غاتسبي العظيم، الأرواح المّيتة، مدلمارش، أليس في بلاد العجائب، آباء وأبناء، عناقيد الغضب، هكذا هي كلّ اللّحوم، مأساة أمريكيّة، بيتر بان، الأحمر والأسود وعشيق السّيّدة تشاترلي.*

في البداية كانت شهيّتي متوحّشةً، غير مدرّبة، مشوّشة وشبيهة بشهيّة خنزيرٍ، حتّى إنّني لم أكن أميّز لقمة من فولكنر عن لقمة من فلوبير. ولكنّني شرعتُ سريعًا في تبيّن فوارق دقيقةٍ. ولاحظتُ أوّلًا أنّ لكلّ كتاب نكهةٌ تخصّه. هناك الفاسد واللّاذع، والحلو والمرّ والحامض. وهناك ما يجمع بين الحلو والمرّ في آنٍ. لاحظتُ أيضًا أنّ كلّ نكهة -ولأقل هنا تحديدًا إنّه مع مرور الوقت صارت حواسّي أكثر حدّةً، أي نكهة كلّ صفحةٍ وكلّ جملةٍ، بل كلّ كلمةٍ -تستقدمُ معها سلسلةً من الصّور، تمثيلات في الذّهن عن أشياء لم أكن أعرف عنها أيّ شيء، انطلاقًا من تجربتي المحدودة جدًّا في ما يُسمّى العالم الواقعيّ؛ ناطحات سحاب، موانئ، خيول، آكلو لحوم البشر، شجرة مزهرة، سرير غير مرتّب، امرأة غريقة، طفل طائر، رأس مقطوع، عمّال حقول يرفعون بصرهم بحثًا عن صراخ أبله، صفير قطار، نهر، قارب، أشعّة الشّمس منحدرةً خلال غابة قضبان، يد تمسّح على فخذٍ عاريةٍ، كوخٌ في غابة وراهبٌ يحتضر.

كنتُ أوّل الأمر أكتفي بالأكل، وأنا أنخر وأمضغ مقتفيًا إملاءات الذّوق. ولكنّني بدأتُ خلال فترةٍ وجيزةٍ بالقراءة هنا وهناك، عند حوافّ وَجَبَاتي. ومع مرور الوقت أصبحتُ أقرأ أكثر وأمضغ أقلّ، إلى أن صرتُ في النّهاية أقضّي كلّ ساعات نهاري تقريبًا في القراءة، مُكتفيًا بمضغ القليل عند الحوافّ. ثمّ... أوه، كم شعرتُ لاحقًا بالنّدم على تلك الثّقوب الفظيعة! وفي بعض الحالات الّتي لا يوجد فيها أيّ نسخٍ أخرى، كان عليّ أن أنتظر سنواتٍ بأسرها حتّى أملأ تلك الفراغات. حقًّا، أنا لستُ فخورًا بما فعلتهُ في طُفولتي الأولى.

الآن وبعد أن تمرّغتُ في شعاب الحياة، صرتُ أنظر إلى طفولتي آملًا أن أجد فيها إثباتًا مّا لقيمتي، أيّ علامةٍ على أنّني كنتُ منذورًا، على الأقلّ لفترةٍ من الزّمن، لأصبح أيّ شيء آخر سوى مجرّد هاوٍ أو مهرّجٍ، وأنّ السّبب في فشلي هو ظرفٌ محتّمٌ وليس أمرًا جوّانيًّا، وهكذا يقول النّاس لي: «حظًّا سعيدًا يا فرمين» بدلًا من «لقد حذّرناك سلفًا». أعتصرُ عينيّ. وأوجّه منظاري. لكنّه للأسف لا يلتقط أيّ وحيٍ إلهيٍّ، ولا يكبّر حتّى بعض شَرارٍ من العبقريّة، ولا يكتشف شيئًا باستثناء اضطراب الأكل.[1] وبدلاً من المناظير، سيُخرج الأطبّاء سمّاعاتهم، أجهزة تخطيط أمواج الدّماغ وأجهزة كشف الكذب، كلّ ذلك تأكيدًا للتّشخيص السّاحق؛حالة روتينيّة

(1) اضطراب الأكل: اضطراب نفسّي يعرّف بوصفه إتّباعًا لعاداتٍ غذائيّة غير طبيعيّة تؤثّر سلبًا على الصّحّة البدنيّة والنّفسيّة للفرد.

من الشّره المرضيّ إزاء الكتب. والأسوأ في كلّ هذا أنّهم سيكونون على حقٍّ. وإزاء هذه الحقيقة الجوهريّة، هذا الوضوح المُهين لحكمهم السّاحق -ساحقٌ كلمةٌ أحبّ استعمالها- أريدُ أن أصرخ بي، مثلما فعل العجوز إزرا باوند السّجين في قفص الجرذان في بيزا: «اسحب كبرياءك إلى أسفل! قلتُ اسحب!». باوند، يا له من عظيم!

ولكن، كفى! لم يكن المخلوق الصّغير الّذي كنتُه في تلك الأيّام يملك أدنى فكرة عن المعاناة الّتي تنتظره. جاثمًا على أسفل درجةٍ من سلّم الحياة، كنتُ ما أزال طفل السّبت، جميلًا ومرحًا. وكم كانت تلك الأيّام في متجر الكتب سعيدة حقًّا! وقد يجدر بي القول بدلًا من ذلك: أيّام الآحاد تلك واللّيالي السّعيدة. إذ لم أكن أتجرّأ على التّسكّع خارجًا في ذلك الاتّساع المتلألئ، خلال السّاعات الّتي يتجوّل فيها النّاس داخل المتجر. كان بإمكاننا أن نسمع من مخبئنا المعتّم في القبو وَشوشات الأصوات ووقعَ الأقدام على السّقف. كنّا نسمعها، ونرتجف. وقد يحدثُ أن تغادر الخطوات السّقف. فتنزل الدّرج الخشبيّ باتّجاه القبو. وعادةً ما يعقبُ هذا النّزول فترةٌ من الصّمت. لكنّه يقترنُ أحيانًا بحشرجةٍ وهديرٍ وفي أحيانٍ أُخرى بانفجاراتٍ غير مفهومة. وكان ذلك يرعبنا جدًّا. يُسمع بعد ذلك صوتُ اندفاع الماء، ومن ثمّ صوتُ خطوات تصعد الدّرج مجدّدًا، ولم يضاهي الضّجيج الّذي تحدثه الخطوات الصّاعدة إلى أعلى ذاك الّذي تأتي به الخطوات النّازلة مُطلقًا.

الفصل الثّالث

ذات ليلةٍ بينما كنتُ أتلصّص تحت *«الساومات»*، لاحظتُ ثقبًا مرتجلًا في الجدار، يطلّ منه أنبوبٌ أسود يتلوّى مثل أفعى على الأرضيّة، مُنزلقًا حتّى الجدار المقابل تحت *«دورة المياه»*. لم تكن هناك رفوفٌ إزاء ذلك الحائط. ثمّة بابٌ فحسب، وهو مغلق دومًا. وضعتُ أنفي داخل الثّقب وتشمّمته. كانت تفوح منه رائحة فئران. وكان الأنبوب ينفذُ في الجدار، ثمّ ينعطف ويصعد مباشرةً إلى أعلى. ورغم أنّه كان أنبوبًا ضخمًا، إلّا أنّه لم يَملأ بشكل كلّيّ الثّقب الّذي أُعدّ له. إضافةً إلى أنّ البُنيان من حولهِ وعرٌ ومسنّنٌ. كنتُ مليئًا بالفُضول في تلك الأيّام. وكانت رائحة الفئران مُطَمئنةً، على الرّغم من كونها مختلفة بعض الشّيء عن الرّائحة التي اعتدتُ عليها. لقد كانت أشدّ حزنًا.

أسندتُ ظهري إلى الأنبوب. وضعتُ قدميّ عند حافّة الثّقب. ورفعتُ نفسي إلى أعلى، مُستخدمًا الأطراف المسنّنة موطئًا لأصابعي. لقد كان تسلُّقًا سهلًا في الحقيقة. تفرّع النّفق في القمّة، عند قاعدة الطّابق الأوّل، إذ وجدت هناك مسارًا يستمرّ إلى أعلى، بينما تزحف مسالك أخرى يمينًا وشمالًا، على امتداد قاعدة الجدار،

بين ألواح الجصّ والبنيان الخارجيّ. انعطفتُ يسارًا في تلك اللّيلة، ويمينًا في اللّيلة الّتي تليها. وفي غضون أسبوعٍ، تشكّلت في ذهني خريطة لنظام المسالك كلّها. كانت البناية مزدحمة بالأنفاق، خليّةَ نحلٍ ترسمُ متاهةً مليئةً بالمنعرجات. ولو لم أكن في عجلةٍ من أمري -فقد أوشك الوقت أن ينفد منّي- لكنتُ انطلقتُ فورا في وصفٍ لا حدود له لنظام الأنفاق كلّه، الّذي كان قد شُيّد، دون شكّ، بواسطة العمل التّعاونيّ لآلاف الجرذان الّتي عاشت في أزمنةٍ غابرةٍ، أجيالًا متعاقبةً طحنت قواطعها حتّى اللّثّة، كي يتسنّى لي أنا، فرمين، أن أتجوّل ذات يومٍ في كلّ نقطة من البناية كيفما شئتُ ودون أن يلاحظني أحد. يمكنني أن أجرّح آذانكم بالحديث عن المداخن والمزالق والمواقف والأجراف، وعن الفرق بين مرتفع وفوهة. وإذا بقي أيّ واحد منكم مفتوح العينين، فإنّ بإمكاني أن أغرقه في النّوم بذكر المخازن والمكاشط والمغارف والسّلالم ومواطئ الأقدام. إذا كان مثل هذا الوصف يشدّكم، فإنّني أنصحكم بقراءة دليلٍ لعمل المناجم.

توقّعتُ في البداية أن أصطدم في كلّ منعطفٍ بالجرذان الآخرين، أولئك الذين بنوا هذه المدينة الكهفيّة. لكنّ ذلك لم يحدث بتاتًا. وشيئًا فشيئًا، صاروا بالنّسبة إليّ الجرذان «القدامى». لم أكن أعثر على طعامٍ كذلك، ولعلّ غياب الأكل هو السّبب في رحيل الجرذان عن المكان. لعلّ المحلّ كان دكّان بقالةٍ أو مخبزًا قبل أن يصبح مكتبةً. ليس هناك الآن أيّ شيءٍ قابلٍ للأكل غير الورق. ومع ذلك، فإنّ استكشافي الصّبور، ليلةً بعد ليلة، لما بدا لي شبيهًا بأميالٍ من الأنفاق قد جلب لي

أخيرًا جوائز تفوق بالنّسبة إليّ أيّ نوعٍ من الطّعام. عليكم أن تضعوا في الحسبان أنّ هذه الأروقة المتخلّلة للجدران كانت مظلمةً تمامًا. فرؤيتي اللّيليّة حادّة جدّا. ولكنّني كنتُ مضطرًّا هناك إلى تحسّس طريقي بواسطة الشّمّ واللّمس. لقد كان عملًا بطيئًا مضجرًا. واحتجتُ إلى عدّة أيّام حتّى أعثر على معبرٍ قادني مباشرةً إلى سقفِ القاعة الرّئيسيّة للمتجر. كانت البناية قديمةً جدًّا مثل سائر البنايات في تلك المنطقة من المدينة، لذا كانت بلا عزلٍ في مستوى السّقف، ممّا يجعل الأفضية الّتي تفصل العوارض بمثابة غرفٍ واسعةٍ مفتوحةٍ، حارّة على نحوٍ لا يصدّق ومغبرّة. لقد صنع أسلافي المعاندون حفرًا دائريّةً بعنايةٍ شديدةٍ وسط العوارض. وبفضل هذه الحفر أمكن لي أن أتسلّل من غرفةٍ إلى أخرى. كنتُ أشقّ طريقي في اتّجاه الشّارع، مُستكشفًا بعناية كلّ غرفةٍ بقدميّ وأنفي قبل أن أمرّ إلى الغُرفة التّالية، حتّى استوقفني شيءٌ ما غير متوقّع بتاتًا. بعد أكثر من أسبوعٍ من اللّيالي التي قضّيتُها أتلمّس طريقي في ظلمةٍ شبيهةٍ بحبرٍ أسود، ها إنّني أجد فجأةً أشعّة ضوءٍ تتدفّق فوق الأرضيّة من المتجر السّفليّ. لقد أعدّ شخصٌ ما -ليس جرذًا- منذ زمنٍ بعيدٍ حفرةً مستديرةً واسعةً في سقف المتجر، كي يُثبّت الإضاءة. وقد جعلها خارج المركز، مخلّفًا فتحةً صغيرةً في شكل هلالٍ عند حافّته. حدّقتُ بحذرٍ عبر الشّقّ. ونظرت إلى الغرفة في الأسفل.مكتبة سُر مَن قرأ

يُوجد تحتي مباشرةً مكتبٌ كبيرٌ مشوّشٌ وكرسيٌّ بوسادةٍ حمراء، حيث جلس نورمان، أو يجدر به أن يجلس. كنتُ آنذاك ما أزال لا أعرف نورمان، إذ لم أتعلّم اسمه بعد، ولكنّه مكث في ذهني ببساطةٍ

بصفته مالك المكتب. في تلك اللّحظة بدت لي فوضى المكتب لا تُقاوم مُطلقًا، إذ بالنّظر إلى جُذوري لم أستطع قمعَ إعجابي بذراعيْ الكرسيّ اللّامعين، والعمود المعدنيّ المستقيم والوسادة الحمراء بتجويفها الّذي يمنحها شكل الأرداف.

أصبح الثّلم الّذي يرسمُ في السّقف حرف الرّاء، الكامن في كلمة «سرّيّ»، واحدًا من أفضل مواقعي. لقد كان نافذةً على العالم البشريّ، نافذتي الأولى. وبهذا الشّكل، كان شبيهًا بكتابٍ؛ إذ يمكنك النّظر من خلاله إلى عوالم ليست ملكًا لك. سمّيتهُ المنطاد، لأنّ ذلك هو الشّعور الّذي ينتابني وأنا أنظر إلى الأسفل، ببساطةٍ لقد كُنت أحسّ بنفسي أطفو في بالونٍ على سطح الغرفة. وبعد أيّام قليلةٍ اكتشفتُ مكانًا ثانيًا حسنًا جدًّا في الطّرف المقابل من السّقف في اتّجاه الزّقاق. يتعلّق الأمر هذه المرّة بحفرةٍ مسنّنةٍ في الجصّ، حيث يلتقي حاجزٌ مرتجلٌ بالسّقف، يُمكنني أن أتسلّل منه لأصل إلى إحدى الواجهات الزّجاجيّة العالية لحجرةٍ يحتفظ فيها نورمان بالكتب النّادرة. وفي تلك النّقطة تحديدًا، أفوز بمنظرٍ رائعٍ يطلّ على القاعة الرّئيسيّة للمتجر، ويشمل الباب الأماميّ ومكتب نورمان وكرسيّه. سمّيته الشّرفة. (لقد اندمجت اليوم كلمتا *الشّرفة* و*المنطاد* لتكوّنا معًا نوعًا من المهد أو قاربًا صغيرًا حزينًا. أحيانًا، أتسلّق القارب وأطفو في الأنحاء، أو أستلقي في المهد وأتأرجح وأنا أمصّ إصبع قدمي). علمتُ لاحقًا أنّ هذه الغرفة، الّتي بدت لي في تلك الفترة شبيهةً في اتّساعها بالمحيط، كانت مجرّد قطعةٍ صغيرةٍ من جُملة المكان. يملك نورمان الكثير من الغرف. لقد اشترى قبل زمنٍ

طويلٍ من ولادتي المتجرين المجاورين للمكتبة. ثمّ أحدث حفرًا في الجدران الواصلة بينها، مداخل ضيّقة جدًّا حتّى إنّ النّاس كانوا يُضطرّون إلى العبور الواحد تلو الآخر أو المشي بشكلٍ جانبيٍّ حتّى تتلامس بطونهم. يدخلون الغرف تباعًا. فيجدونها مليئةً بالكتب أيضًا. اعتدتُ التّفكير في أنّ كلّ تلك الغرف المتّصلة بعضها ببعضٍ بواسطة مداخل صغيرة، تشبه شيئًا مّا قد يصنعه جرذٌ عملاقٌ، وظللتُ أستمتع بتلك الفكرة إلى أن خيّب نورمان ظنّي.

أحيانًا، تُرتَّب الكُتب تحت لافتاتٍ، ولكنّها في أحيانٍ أُخرى تُلقى في كلّ مكان. وبعد أن فهمتُ البشر بشكلٍ أفضل، أدركتُ أنّ هذه الفوضى العجيبة تُمثّل إحدى الأشياء الّتي يحبّونها في كتب بيمبروك.[1] فهم لا يأتون إلى هناك من أجل شراء كتاب وإلقاء بعض النّقود والانصراف فحسب، وإنّما يتجوّلون أيضًا، هم يسمّون ذلك التّسكّع وإلقاء نظرة، لكنّه أشبه بالتّنقيب واستكشاف المناجم. في الحقيقة، كنت متفاجئًا لعدم دخولهم بالمعاول، إنّهم يحفرون بأيادٍ فارغةٍ بحثًا عن الكنوز. يغمسونها حتّى الإبطين أحيانًا. وعندما يسحبون من جوف كومةِ نفاياتٍ سبيكةً أدبيّةً، تغمرهم سعادةٌ أكبر بكثيرٍ ممّا لو كانوا قد اكتفوا بالدّخول واقتنائها. وبهذا المعنى، كان التّسوّق من بيمبروك شبيهًا بالقراءة؛ لا يمكنك التّنبّؤ سلفًا بما ستواجهه في الصّفحة التّالية -الرّفّ التّالي، الكومة أو الصّندوق

(1) اسم دار نشر مختصّة في إصدار كتبٍ عمليّةٍ في التّعلّم والتّدريس، تمّ تأسيسها سنة 1985.

التّاليين- وكان ذلك جزءًا من متعة الأمر. بل إنّه جزء من متعةِ الأنفاق أيضًا، إذ لا يمكنك أن تتيقّن أبدًا ممّا يجول في المنعطف القادم أو يحدث في قعر الفتحة التّالية.

لم أتجاهل تعليمي حتّى خلال أسابيع الاستكشاف المسكرة الأولى، إذ لم أدخل الأنفاق قطّ قبل أن أُقضّي أوّلًا بعض السّاعات مع كتبي، وقد أحرزتُ تطوّرًا هائلًا، فقد أصبحتُ قادرًا في وقتٍ وجيزٍ على فهم حتّى ما يُسمّى بالرّوايات العسيرة، وأغلبها روسيّةٌ وفرنسيّةٌ. فضلًا عن أنّني انغمست فورًا في بعض مختصراتٍ فلسفيّةٍ وكتب إدارة الأعمال. صار من الواضح بالنّسبة إليّ، استنادًا إلى أبحاثي اللّاحقة، أنّ تحقّق مثل تلك الإنجازات كان رهينًا، من حيث الجانب العضويّ، لنموٍّ مسترسلٍ في فصّيّ الجبهيّ والصّدغيّ، مصحوبًا -في ما أُقدّر- بانتفاخٍ هائلٍ في التّلفيف الزّاوي[1]. وإذ أفكّر على نحوٍ عكسيّ، من الأثر في اتّجاه السّبب، أشعر أنّني على حقٍّ في تقديري أنّ جمجمتي تُخفي تحت مظهرها المألوف تمدّدًا جانبيًّا استثنائيًّا في منطقة فرنيك[2]، وهُو تشوّهٌ يقترن عادةً بمهاراتٍ لغويّةٍ مبكّرةٍ، رغمّ أنّه حاضرٌ أيضًا -وعليَّ أن أسلّم بذلك- في بعض حالاتِ البلاهة النّادرة. إنّني أسند هذا النّموّ الاستثنائيّ إلى محيطٍ محفّزٍ، رغم أنّ التّغذية كانت كذلك، ودون شكٍّ، عاملًا مساهمًا فيه. ولكنّه يملك أيضًا أثرًا جانبيًّا مؤسفًا يتمثّل في ازدياد ثقل

(1) جزءٌ من أحدِ فصوص الدّماغ.

(2) منطقة فرنيك هي جزء من القسمين المرتبطين بالقشرة الدّماغيّة المتدخّلة في عمليّة التّحدّث. تتضمّن إدراك اللّغة مشافهةً وكتابةً.

رأسي مع مرور الوقت، حتّى صار من الصّعب بالنّسبة إليّ الحفاظ عليه مرتفعًا، فللأسف، لم تقترن بنية دماغي العضليّة بمتانةٍ جسديّةٍ موافقةٍ لها. كنتُ ما أزال ضئيلَ الحجم على نحوٍ مؤلمٍ، قزمًا ودنيئًا.

إنّه من البديهيّ عمليًّا في علم النّفس أنّ التّطوّر الذّهنيّ المبكّر المقترن بضعفٍ جسديٍّ يمكن أن يتسبّب في ظهور خصائص كريهة لشخصيّة الفرد، من قبيل الشّحّ وأوهام العظمة والاستمناء الهوسيّ، وغير ذلك ممّا يطول ذكره.

وفي الحقيقة، عانيت طيلة حياتي من امتلاك من يسمّون بالخبراء لرؤيةٍ معدّةٍ سلفًا لأعمق أعماق شخصيّتي، وقد تعرّفت على رؤيتهم بواسطة أكثر الكتيّبات بدائيّةً، إنّني أقصد الأطبّاء النّفسيّين. ولا يعدّ هذا النّفور مبرّرًا إلّا إذا وضعنا في الحسبان، ضمن عدّة آثار أخرى يُسبّبها وضعي الخاصّ، الحاجة الّتي تكاد تكون مَرضيّة إلى الاختفاء أو الفشل في ارتداء الأقنعة.

لقد دفعني زواج رأسي الثّقيل بأعضائي الواهنة إلى اكتساب مشيةٍ ثقيلةٍ مزعجةٍ. ورغم أنّني صرتُ أتخيّل لاحقًا أنّ ذلك يمنحني ملمحًا متّزنًا ورزينًا، فإنّه اكتفى في تلك الفترة بجعلي غريبَ الأطوار. لم أكن قادرًا على منع رأسي من التّأرجح من جهةٍ إلى أخرى، بينما أمشي أو أتبختر، ممّا غمَرني بمظهرٍ بقريٍّ. بالإضافة إلى ذلك، كنت أنزع بتلك الحمولة الّتي في جبهتي إلى الاندفاع على نحو مستمرٍّ إلى الأمام، تاركًا الآخرين يغرقون في ضحكهم من هيئتي.

كان ذاك الثّقل الفظيع بالنّسبة إلى شخصٍ بمثلِ حجمي الضّئيل مُؤسفًا، وفي تلك الفترة من حياتي على نحو خاصّ، إذ كانت تقتضي أقصى ما يمكن من الخفّة. وفيما لم يكن شيء في سلوك إخوتي يشي بأنّ أدمغتهم تتمدّد، تلقّت أجهزة المضغ لديهم نموًّا ملحوظًا يؤكّده ألم كلّ عضّةٍ وُجّهت إليّ. كنتُ أمضغ الورق، بينما كانوا يمضغونني. إنّ عدم التّماثل الكامن في هذا الوضع بغيضٌ جدًّا. كنّا جاهزين جميعًا للمرور إلى الأطعمة الصّلبة، مُتأهّبين في الحقيقة للتّخلّي عن الحياة العائليّة. وقد استشعرت ماما هذا الأمر أخيرًا من خلال أبخرة الكحول. لا شكّ أنّ قواطعنا المشعّة بدت لها مثل وميض النّور في آخر النّفق الأموميّ الطّويل. وإذ جذبها ذلك النّور، كشفت فجأةً عن حسٍّ بالمسؤوليّة جعلها تعلّمنا تدبّر شؤوننا من دونها، وتسلّحنا بما هو ضروريّ حتّى تتمكّن من مغادرتنا والانصراف إلى حياة البذخ والتّرف.

كان تعليمنا بسيطًا وعمليًّا؛ نمشي في صفوف ثنائيّة خلف أمّي. فنتبعها في رحلاتها إلى «الفوق»، حيث من المفترض أن نتعلّم تقنيّاتها من خلال الملاحظة، لقد ولّى ذلك الزّمن الّذي تسيل فيه الأشياء وتُلقى بيسرٍ في أفواهنا وبطوننا. وصار لزامًا علينا أن نواجه نمط حياةٍ مختلفٍ تمامًا. يعتبر الأنثروبولوجيّون الصّيد والقطف المرحلة الأكثر بدائيّةً في تاريخ الحضارة، لكنّنا كنّا في مرحلة أدنى من ذلك حتّى، سمّها التّمشيط والكشط. وهي مرحلةٌ تكادُ تقتصر على العمل اللّيليّ، بوضعيّاتٍ أساسيّةٍ هي الانحناء والاختباء والتّلبّد، بينما الحركات الّتي لا تنقطع هي الزّحف والهرولة والوثب. وعندما

حان دوري، تمّ وضعي مع لوينا. وكنت مبتهجًا لذلك. فلطالما عاملتني بنوع من اللّامبالاة، ولم تكن تعضّني أو تركلني لحسن حظّي. فهي صاحبة بنيةٍ رياضيّةٍ مذهلةٍ. وقد اقتلعت مرّةً، أثناء شجارٍ، معظم أذن شانت. كنتُ واعيًا دومًا بتميّز بنيتها ومحترسًا منها. لكنّني في تلك اللّيلة، ونحن نوشك أن ننطلق، لاحظتُ جيّدًا كم هي ممتلئة غزيرة الفرو. لم تكن أسنانها فحسب ما ينمو بقوّة في جسدها. وإذ كنت منهمكًا طيلة الوقت في استكشافاتي الخاصّة، جعلتُ هذا التّطوّر الجديد ينفلت منّي. ولكنّ منظر أردافها المكسوّة فروًا، وهي تهتزّ الآن أمام وجهي أربكني تمامًا، وملأني فجأةً بغضبٍ عنيفٍ مباغتٍ تجاهها.

تتقدّمُنا أمّي في الرّيادة، تسلّلنا من تحت باب القبو، خارجين إلى العالم. كنتُ أحسبُ أنّني أكثر استعدادًا من أيّ شخص آخر لمواجهة ما يمكن أن يحدث في الخارج. إذ كنتُ أنا، في نهاية المطاف، من قضّى ساعات طوالًا في الشّرفة، وهو يحدّق في المتجر باتّجاه الواجهة الأماميّة. لقد رأيتُ نصيبًا من العالم في تلك النّافذة؛ أناسًا وسيّارات يعبرون، وجزءًا من البناية في الشّارع. رأيت مرّةً رجل شرطةٍ على حصان. ومرّةً أخرى، نزل المطر. لكن أن أخطو في اللّيل إلى الشّارع خلف أمّي ولوينا، ذلك ما جعلني أدرك فورًا أنّ صورتي عن العالم، تلك المحدودة والمستطيلة، تكاد لا تملك أيّ شبهٍ مع عظمة الأصل ذاته. شعرتُ بما يُشبه ارتماءة خارج الأرض نحو سطح المشتري. لقد دخلنا إلى صحراء سوداء قاسية. كانت مصابيح الشّارع تتدلّى فوق رؤوسنا مباشرةً، مثل شمسٍ في سماءٍ

سوداء. ومن مكان مّا -لعلّه المصابيح- سُمعت صرخةٌ باهتةٌ بنبرةٍ متوتّرةٍ، مؤذية للأذن ودافعة إلى الجنون في استرسالها الملحّ لفترةٍ طويلةٍ. وفي كلا الجانبين، لاحت مبانٍ متداعية ذات طوابق أربعة، كأنّها حوافّ وادٍ كبيرٍ. وحتّى في تلك المرحلة المبكّرة من تعليمي، كنتُ قد قرأتُ بما يكفي لكي أصوغ عبارة «واد الوحدة الواسع». قلتها، وارتجفتُ. ومن حينٍ إلى آخر، كانت سيّارة تمرّ بعينين برّاقتيْن. فتهتزّ أرض الصّحراء. وكان الجوّ باردًا، حتّى إنّ شيئًا مّا شبيهًا بمشطٍ جليديٍّ ظلّ يشّق فراءنَا. إنّها الرّيح. ولا شكّ أنّ لوينا الّتي تفتقر إلى تجربتي قد كانت مندهشةً أكثر منّي. توقّعتُ منها أن تتسمّر في مكانها، أو يفغر فاها على الأقلّ من العجب، أو تكون مذهولةً على نحو مّا. لكنّها طفقت تتشمّم الهواء، وتهرول خلف أمّي، كأنّها تعتبر المشي على سطح المشتري أمرًا عاديًّا تمامًا. أمّا بالنّسبة إليّ، فقد كنت ما أزال محتميًا بجهل إخوتي. ولم يكن بي شيء سوى قلقٌ غامضٌ ظلّ ينخر حوافّ ذهني.

ذهبنا صفًّا واحدًا، ونحن نتحرّك بسرعة حريصين على المكوث أقرب ما يكون إلى البنايات، على امتداد شارع كورنهيل، ومن ثمّ عبر زقاقٍ ضيّقٍ ومظلمٍ، له رائحة دورة المياه في الأسفل، ولكنّها أشدّ قوّةً. لا بدّ أنّ هناك نوعًا من الطّعام، لأنّني سمعتُ أمّي ولوينا تسحقان بين أسنانهما شيئًا مّا في الظّلام. لم يتقاسما معي شيئًا. وعندما أدركتُهما، لم أجد إلّا قطعة خسّ، يشبه طعمها جين آير[1].

(1) عنوان رواية إنجليزيّة للكاتبة تشارلوت برونتي.

غادرنا الزّقاق عند شارع هانوفر، لنجد أنفسنا أمام الضّوء السّاطع لمسرح الكازينو. كانت هناك لافتةٌ ناتئةٌ تتقلّب باستمرارٍ في أضواء صفراء، كتب عليها؛ *فتيات، فتيات، فتيات*، وكذلك *«الأفضل في بوسطن»*. وتحت اللّافتة، على جانبيْ زجاج شبّاك تذاكرٍ، توجد صورتان بحجمٍ طبيعيٍّ بالأسود والأبيض لمن تعلّمتُ منذ تلك اللّحظة أن أتعرّف عليهما بصفتهما امرأتين جميلتين. كانتا بلا ملابسٍ، باستثناء أحذيةٍ ذات كعوب عاليةٍ وتاجين ماسيّيْن في شعريهما، بينما يحجب مستطيلان أسودان طويلان أثداءهما وأعلى أفخاذهنّ. كانت إحداهما ذات شعرٍ فاتح اللّون، بينما الأخرى بشعر داكن. وكلاهما ترفع ساقًا إلى أعلى؛ التقطتهما الكاميرا أثناء الرّقص. فتجمّدتا في منتصف الخطوة. قطعتهما ضربة مصراع الكاميرا عن الزّمن، مثل مقصلة. لم تنتبه ماما ولوينا إليهما مطلقًا. وبدلًا من ذلك، اتّجهتا رأسًا إلى باب المسرح تحت «خروج». وها هما مشغولتان بحشو الفشار الّذي بصقه أحدهم هناك. أبرزت لوينا موهبةً في الحشو والمضغ بوضوحٍ شديدٍ. ولم أفكّر حتّى في الالتحاق بهما هذه المرّة، إذ اكتفيتُ بالوقوف هناك محدّقًا في الملصقات، بساقٍ مرفوعة في الهواء. ورغم قراءاتي الواسعة والتهامي لـ«عشيق السّيّدة تشاترلي»، فإنّني كنتُ أفهم على نحو فاترٍ هذا الجانب من العالم. ولم أُجرّب من قبل ما يمكنه أن ينمتي إليه. يُمكنني تذكُّر تلك اللّحظة، عندما وقفتُ محدّقًا في تينك المخلوقتين شبه العاريتين، تينك الملاكين، باعتبارها -وفق ما يحبّ أن يسمّيه كتّاب السّيرة الذّاتية- لحظةً فارقةً. عليّ أن أقلّدهم وأقول إنّني في السّادس والعشرين من نوفمبر سنة 1960،

أمام مسرح الكازينو على جانب شارع بمقربةٍ من منطقة سكولاي، تغيّر مسارُ حياتي. ودون شكّ، لم أكن أعرف ذلك بعد. ففي تلك اللّحظة، لم أكن أعرف حتّى أنّني في بوسطن.

بعد أن حصدت أمّي ولوينا كلّ الفشار، مشينا عبر شارع هانوفر مُنزلِقين على امتداد المجاري وصولًا إلى الميدان شبه الخالي. لقد كان -وفق التّسمية الّتي يحبّها النّاس- بالوعةً. وفعلًا، يلمع الإسفلتُ الرّطبُ في المكان تحت أضواء مصابيح الشّارع كأنّه الماء. مرّت امرأة دون أن ترانا، وكان رجلٌ غريبٌ يتبعها على مقربةٍ. كانا يمشيان بسرعةٍ. ثمّ انعطفا. واختفيا عبر مدخلٍ، فيه لافتة كُتب عليها: «غرف». لن أنسى مطلقًا ذلك الصّوت الّذي يحدثه ارتطام كعب المرأة بالرّصيف. احتمينا بمصرفٍ حتّى عبرا إلى الدّاخل، وانغلق الباب خلفهما. بعد ذلك تبعنا أمّي عبر الامتداد الشّاسع للميدان، مُتسابقين بأسرع ما يُمكننا، أقصدُ أسرع ما يُمكن بالنّسبة إلى أمّي، ففي تلك الأيّام، كنت أنا ولوينا ما نزال نملك خطوًا سريعًا. وعندما وصلنا إلى الجهة الأخرى من الرّصيف، عثرت أمّي على بركة بيرة. فرفضت هي ولوينا أن نتقدّم خطوةً واحدةً قبل أن تلعقا آخر قطرة فيها. لقد هاجر قلقي في تلك اللّحظة من حوافّ وعيي إلى مركزه. وأخذتُ أرتجف من الخوف. فكّرتُ في سرّي: «ليذهب الطّعام إلى الجحيم». أردتُ أن أركض باتّجاه البيت، نحو الأمن الدّافئ لمتجر الكتب. لكنّني كنت مرعوبًا من أن أنفصل عن أمّي، وشدّني الذّعر خصوصًا من الشّاحنات الّتي تمرّ بنا، من حينٍ إلى آخر، شبيهةً بالرّعد، إذ تُلقي مصابيحها الأماميّة ظلالًا

هائلة على الجدران، فيما لا ترفع أمّي رأسها حتّى، وكذلك لوينا بعد فترةٍ من الزّمن. استأنفنا طريقنا بعد ذلك. مررنا أمام هيكل *أولد هاورد* القاتم ذي النّوافذ القوطيّة، الّذي كان مسرحًا شهيرًا ذات يوم، لكنّه أغلق منذ سنواتٍ. هناك العديد من جرذان الطّبقة السّفلى يعيشون هناك. تقول أمّي إنّه مكان مناسبٌ ليُقتل فيه المرء. وفي النّهاية، بعد المزيد من اللّحس واللّعق، وجدنا طعامًا -نقانق، مخلّلات، كعك، كاتشب، خردل- في الحاويات الزّرقاء الكبيرة الموجودة خلف مطعم جو ونيمو. كان هناك جرذان آخرون أيضًا، لكنّنا مكثنا بعيدًا عنهم. فنحن لسنا فصيلةً متّحدةً بشكلٍ جيّدٍ. توقّفنا لاحقًا عند حانة القبّعة الحمراء، حيث يوجد المزيد من البرك الّتي كان معظمها بولًا. ومع ذلك، كان هناك ما يكفي من أحواض الخمر الّتي انشغلت بها أمّي ولوينا كذلك. إنّه، على الأرجح، عمل الجينات السّيّئة. ومع اقترابنا أكثر من البيت، ازداد تهوّرهما. كانتا تمشيان في وسط الرّصيف في شارع كامبريدج، وهما تغنّيان بأعلى صوتٍ. أمّا بالنّسبة إليّ، فلم أنضمّ إلى حفلتهما. وبدلًا من ذلك، التصقتُ بالمباني أو المجاري، وتظاهرت بأنّني لا أعرفهما. لقد حافظتُ في الحقيقة على مسافةٍ جيّدةٍ تفصلني عنهما، فإذا نزلت نازلة هائلة من السّماء على رأسيهما، أكون في مأمنٍ منها.

إنّني أحاول أن أروي قصّة حياتي الحقيقيّة. ولكن، صدّقوني، ليس الأمر يسيرًا. لقد قرأتُ عددًا كبيرًا من الكتب تحت «*الرّوايات*»، حتّى صار لديّ نصف فكرة عمّا تعنيه تلك اللاّفتة والسّببِ الّذي يجعل كتبًا معيّنة تُوضع تحتها. لقد حسبتُ في البداية

أنّني كنتُ أقرأ تاريخ العالم. وحتّى اليوم، أجدني مضطرًّا إلى تذكير نفسي باستمرار -وبضربةٍ على الرّأس أحيانًا- أنّ آيزنهاور شخصٌ حقيقيٌّ أمّا أوليفر تويست فلا. *«تائها في العالم: الابستيمولوجيا والرّعب»*. وإذ أسترجع الآن ذكرى ذلك الخروج الأوّل مع أمّي ولوينا إلى البرّيّة، ألاحظ أنّني أهملتُ حادثًا صغيرًا. لقد كان في نظري حادثًا تافهًا تمامًا. لكنّك إذا ما اكتشفته لاحقًا، فستلقي به في غضبٍ على وجهي. يمكنني أن أراك الآن وأنت تتقلّب في كرسيّك الدّوّار وتصرخ من المتعة. بالإضافة إلى أنّه لم يكن حادثًا على وجه الدّقّة، وإنّما هو أشبه بالاستفزاز، أو بالأحرى محاولة استفزاز من قبل مؤخّرة لوينا المكسوّة فروًا.

بينما كنتُ أتبعها عبر الزّقاق، راحت تهتزُّ -مثلما ذكرتُ سلفًا- صعودًا فنزولًا أمام أنفي. قلتُ صعودًا فنزولًا... والأسوأ من ذلك أنّها أصرّت على أن ترفع ذيلها عند زاوية مثيرة، زاوية يمكنني أن أصفها، عادلًا، بالوقحة، بل هي وقحةٌ ومستفزّةٌ أيضًا. وعند دخولنا صفًّا واحدًا إلى الزّقاق، ملأت مؤخّرتها كامل مجالي البصريّ، واكتسحت وعيي لتمنعني من التّفكير في أيّ شيء آخر، حتّى لو كان الطّعام أو الخطر. وكانت هناك الرّائحة طبعًا. ولا أفترض البتّة أنّ بإمكاني أن أجعلك تفهم ذلك الجانب من المسألة، أي سُلطان الرّائحة الّذي لا يُقاوم. لقد أوشكتُ أن أنقضّ عليها، كأنّ بي مسًّا من الجنون. شعرتُ بنفسي مدفوعًا من خصري إلى الأمام. ورأيتُني أقفز فوقها من خلف، وأغرز قواطعي في فرو رقبتها، بينما تكوّر هي ظهرها الطّويل المليء بالعضلات، ترفع مؤخّرتها في الهواء، وبصرير

ألم لذيذٍ تهب نفسها لي. لقد كان الأمر فظيعًا. ولكنّه، ولحسن الحظّ، كان وجيزًا أيضًا. أوشكنا أن ندرك نهاية الزّقاق، ونحن نقترب من شارع هانوفر. وفجأةً، عبرت شاحنة حذونا هادرةً. فاختفى شغفي المباغت رغم قوّته. لم يحدث شيء. ولن يحدث طبعًا، بما أنّنا كنّا في تلك اللّحظة نبعدُ مسافة أمتارٍ قليلةٍ وبضع دقائق عن النّقطة الفارقة، حيث أقف على الرّصيف بقدمٍ مرفوعةٍ، وأهزّ بصري نحو الملائكة، فلأفتح لكم قلبي؛ تلك الرّغبة الملحّة في أن أجامع أختي داخل زقاقٍ كانت آخر رغبةٍ جنسيّةٍ عاديّةٍ اختبرتُها في حياتي. عندما غادرت البيت في تلك اللّيلة، كنتُ ذكرًا عاديًّا إلى حدّ مّا رغم ذكائي، ولكنّني أثناء عودتي أصبحتُ شاذًّا غريب الأطوار.

الفصل الرّابع

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان العالم خارج مكتبتي العزيزة يسير على النّحو التّالي؛ الكلبُ يأكل الكلب، ولينجُ كلٌّ برأسه. كلّ شيءٍ هناك محكومٌ دومًا بأن يلحق بنا أذًى مميتًا. وكانت حظوظ بقاء الواحد منّا حيًّا طيلة سنة كاملة تناهز الصّفر. في الحقيقة، يمكن القول إذَا ما استندنا إلى المعطيات الإحصائيّة، إنّنا كنّا شبه ميّتين. لم أكن متيقّنًا بعد من هذا الأمر، لكنّني حدستهُ، ولديّ حدسٌ رهيبٌ يشبه حدس أناسٍ يميلون بشكلٍ فظيعٍ على سطوح سفنٍ تغرق. إذا كان هناك شيءٌ واحدٌ يُفيد التّكوينُ الأدبيّ في تنميته، فهو الإحساس بالنّهاية. وليس هناك ما يُخرّب شجاعة المرء أكثر من مخيّلةٍ حيّةٍ خصبةٍ. فأنا مثلًا، قرأتُ *مذكّرات آن فرانك*[1]، وبعد ذلك *صرتُ آن فرانك*. أمّا بالنّسبة إلى الآخرين فيمكنهم أن يشعروا برعبٍ عظيمٍ، ويقرفصوا في الزّوايا مُتعرّقين من شدّة الخوف، ولكن ما إن يزول الخطر حتّى يعودون إلى حياتهم العاديّة كأنّ شيئًا لم يحدث، فيقفزون جميعًا في

(١) آن فرانك: واحدة من أشهر ضحايا الهولوكوست. عُرفت بمذكّراتها عن الحرب وتجربتها في الاختباء من القوّات النّازيّة أثناء احتلالها لهولندا، حيث سافرت مع عائلتها من قبل.

مرحٍ ويواصلون حياتهم إلى أن يُسحقوا، أو يُسمّموا، أو تكسر أعناقهم بقضبان حديديّة. أمّا أنا، فقد عشتُ بعدهم جميعًا. ومقابل ذلك، متُّ آلاف المرّات. لقد شققت طريق حياتي مثل سلحفاةٍ، مخلّفًا ورائي أثرًا يلمع خوفًا. ومن المؤكّد أنّ الأمر سيكون مُحبطًا تمامًا عندما تحينُ ساعتي حقًّا.

وذات ليلةٍ بُعيْد رحلتنا التّوجيهيّة في أنحاء الميدان، صعدت أمّي إلى «الفوق» كعادتها، ولم ترجع أبدًا. رأيتُها مرّات قليلة خلال الأشهر اللاّحقة وهي تتسكّع مع الفاسقات خلف مطعم جو ونيمو، ثمّ اختفت تمامًا. وكانت تلك نهاية عائلتنا الصّغيرة، إذ ظلّ ينقص واحد من المجموعة في كلّ ليلةٍ من اللّيالي الّتي تلت رحيل أمّي، إلى أن بقيت أنا ولوينا وشانت. ومن ثمّ، رحلا هما أيضًا. كان من العسير بالنّسبة إليهما تصديق رغبتي في البقاء هناك، وبالنّسبة إليهما أيضًا لم أكن أكثر من مجنونٍ، ولكن مجنونًا غير مؤذٍ. لم يستحسنا مطلقًا ما كنتُ أفعله، فَمتجر الكتب مكانٌ رديء، لا يُعاش فيه. لقد اختارته ماما لسببٍ طارئ فحسب. ورغم اختلافاتنا السّابقة، فإنّ يومنا الأخير كان مؤثّرًا تقريبًا. لقد احتضنتني لوينا. أمّا شانت الّذي شعر بالخجل، فقد ربّت بلطفٍ على كتفي. كانا بصدد الاختفاء تحت الباب عندما صحتُ بهما: «أراكما مرّة أخرى يا وجهي الخسّة، يا حقيرين دون البشر!». قلتُ لهما ذلك. ومن ثمّ، شعرتُ بتحسّنٍ.

انتقلتُ إلى مكانٍ صغيرٍ كنتُ قد أعددته في السّقف فوق المتجر،

في منتصف المسافة بين المنطاد والشّرفة، حيث يمكنني أن أتابع مسار الأشياء بينما أواصل تعليمي ليلًا في القبو، مُلتَهِمًا الكتاب تلو الآخر، دون أن يكون هذا الالتهام على وجه الحقيقة. حسنًا، هناك نزرٌ قليلٌ من الحقيقة فيه. فقد اكتشفتُ، خلال المراوحات اللّيليّة الغامضة، أنّ هناك علاقة عجيبة بين القراءة والمضغ، لنقل أنّه نوعٌ من التّناسق المعدّ سلفًا بين مذاقِ كتابٍ وجودته الأدبيّة. ولكي أعرف ما إذا كان كتابٌ مّا جديرًا بالقراءة، كنتُ أقضمُ نتفةً من المساحة المطبوعة. وقد تعلّمتُ أن أستخدم صفحة العنوان لهذا الأمر، تاركًا النّصّ سليمًا غير ملموس. «لذيذٌ في الأكل، ممتعٌ في القراءة». هذا هو شعار مرحلتي الجديدة.

أحيانًا ومن أجل أن أريح عينيّ الملتهبتين، أذهبُ لاستكشاف القنوات والغرف السّرّيّة الّتي بناها الأسلاف السّابقون. وذات ليلةٍ، بينما كنتُ أزحفُ خلف إحدى القواعد، اصطدمتُ بسدٍّ من الجصّ، حاجزٌ كنتُ قد حسبته من قبل جزءًا من جدارٍ. ولكن ها إنّني أتبيّن أنّه نفقٌ مسدودٌ. كانت القطع المُعيقة كبيرةً إلى حدّ مّا ومتراصّةً، حتّى إنّني احتجتُ إلى وقتٍ طويلٍ وجهدٍ جهيدٍ كي أشقّ طريقي خلالها وأعثر خلفها على حفرةٍ جديدةٍ. كانت فتحةً جميلةً تكاد تكون دائريّةً، تطلّ مباشرة على قاعة المخزن الرّئيسيّة. لقد أعدّها أسلافي الكادحون من شدّة مكرهم -أو لعلّهم كانوا محظوظين فحسب- خلف خزينةٍ حديديّةٍ قديمةٍ، في بقعةٍ لا مرئيّةٍ عمليًّا من قبل أيّ شخصٍ في المحلّ. ورغم أهميّة المنطاد والشّرفة إلّا أنّهما لا يصلحان إلّا للمراقبة، فهما مرصدان معلّقان كأبراجِ المراقبة

في هذا العمل، لكنّهما لم يمنحاني القدرة على الدّخول الفعليّ إلى المخزن وكنزه الواسع من الكتب الطّازجة مثلما فعل هذا الاكتشاف الجديد. وبواسطة ما كنتُ أحسبُ أنّه حسُّ سخريةٍ مرهفٍ، سمّيته ثقب الجرذ. وكان عليّ أن أسمّيه بوّابة الجنّة.

بعد ذلك، هجرتُ القبو على نحو مّا، مفضّلًا الكتب الأرقى في الطّابق العلويّ. تفحّصتُها غرفةً إثر أخرى. كان بعضها مغلّفًا بالجلد، يؤطّر صفحاتها خطٌّ ذهبيّ، رغم أنّني كنتُ أفضّل شخصيًّا الكتب ذات الأغلفة الورقيّة، خاصّة كتب نيودايركشنز[1] بأغلفتها السّوداء والبيضاء، والمؤلّفات الجادّة الصّارمة الّتي تصدرها سكريبنر[2]. لو كنت شخصًا يقرأ في حديقة عامّة، لحملتُ معي دومًا إحدى هذه الكتب. كان القبو جيّدًا بالنّسبة إليّ، ولكنّني شعرت في الطّابق العلويّ بأنّني أُزهر وأَتفتّح. صار ذهني أحدَّ من أسناني. وخلال وقتٍ وجيزٍ، صرتُ قادرًا على إتمام روايةٍ ذات أربع مائة صفحةٍ في ساعةٍ واحدةٍ، والتهام سبينوزا في يومٍ واحدٍ. يحدث لي أحيانًا أن أحدّق من حولي، ثمّ أرتجف من الفرح. لم أستطع أن أفهم لِمَ وُهبتُ كلّ هذا. وفي أحيانٍ كثيرة، أفكّر أنّ هناك خطّةً سرّيّةً تكمن في ما يحدث لي. أمِنَ الممكن أنّني أملكُ، رغم مظهري القبيح، مصيرًا وقدرًا؟ وبهذه العبارة أقصدُ ذلك الشّيء الّذي يذكره النّاس في القصص، والّذي يقضي بأنّ الأحداث في الحياة

(1) دار نشر أمريكيّة شهيرة، أسّسها الشّاعر الأمريكيّ دجايمس لافلين سنة 1936. ومعنى اسمها في العربيّة «اتّجاهات جديدة».

(2) دار نشر أمريكيّة تحمل اللّقب العائليّ لمُؤسّسها، تأسّست سنة 1846.

مهما اهتزّت وعصفت فإنّها تهتزّ وتعصف وفق منوالٍ معيّنٍ. تملك الحيوات في القصص اتّجاهًا ومعنى. فحتّى الحيوات الغبيّة الّتي بلا معنى، مثل حياة ليني في *«فئران ورجال»*[1]، تكتسب على الأقلّ شرفَ ومعنى أن لا تكون غبيّة من خلال مكانتها داخل القصّة، أي عزاءَ أن تكون مثالًا على شيء مّا. ففي الحياة الحقيقيّة، لا يحصل المرء حتّى على مثل هذا.

لم أكن شجاعًا يومًا، في ما يتعلّق بالجانب الجسديّ. والحقّ أنّي لم أكن شجاعًا في ما يتعلّقُ بأيّ جانب آخر. وطالما كان من العسير بالنّسبة إليّ مواجهةُ الغباء الأجوف لحياةٍ عاديّةٍ غير قابلة لأن تُصبح قصّةً. ولهذا السّبب، شرعتُ مؤخّرًا في مواساة نفسي بالفكرة السّخيفة القاضية بأنّني أملك فعلاً مصيرًا مميّزا. وأخذتُ أبحثُ عنه عبر كتبي، مُسافرًا إلى أزمنةٍ وأمكنةٍ مُختلفة؛ عثرتُ في البداية على دانيال ديفو[2] في لندن، الّذي قادني في جولةٍ عبر المدينة أيّام الطّاعون. وسمعتُ قارع الجرس، وهو يهتف: «أخرجوا موتاكم!». وتنفّستُ دخان الجثث المحترقة. إنّه ما يزال إلى الآن عالقًا في أنفي. كان النّاس يموتون مثل الجرذان في شتّى أنحاء لندن. وفي الحقيقة، كان الجرذانُ أنفسهم يموتون مثل النّاس في كلّ مكان. وبعد ساعاتٍ قليلةٍ، شعرتُ بالحاجة إلى تغيير المشهد. فذهبتُ إلى الصّين. وتسلّقتُ مسلكًا منحدرًا ضيّقًا عبر أشجار الخيزران والسّرو، لكي

(1) نوفيلاّ شهيرة كتبها جون شتاينبك، ونشرت سنة 1937.

(2) مغامر وتاجر وكاتب إنجليزيّ (1731-1661)، عرف بصفته مؤلّف رواية المغامرات الشّهيرة «روبنسون كروزوي».

أجلس لوهلةٍ أمام الباب المفتوح لكوخٍ جبليٍّ صغيرٍ رفقة العجوز تو فو[1]. كُنّا نحدّق صامتينْ في الضّباب الأبيض الّذي يطوفُ صاعدًا من الوادي، وننصتُ إلى الرّيح تنفخُ عبر ستائر القصب وإلى الصّدى الخافت لأجراس المعبد البعيدة، على حدة، كلّ واحد منّا «وحيدٌ مع عشرات آلاف الأشياء». عدتُ بعد ذلك إلى إنجلترا، قافزًا فوق المحيطات والقارّات والقرون بخفّةِ من ينزل عتبة الرّصيف، حيثُ أضرمتُ نارًا صغيرةً على امتداد طريقٍ برّيّةٍ، كي تتمكّن تيس[2] المسكينة، المشؤومة منذ البدء، والّتي تجمع اللّفت في حقلٍ موحشٍ تعصف به الرّياح، من أن تُدَفِّئَ يديها المتشقّقتين. كنتُ قد قرأت حياتها كاملةً، مرّتين اثنين. أقصد أنّني أعرف مصيرها. وقد أشحتُ بوجهي عنها كي أخفي دُموعي. سافرتُ بعد ذلك مع مارلو[3] على متن باخرةٍ باليةٍ، عبرنا بواسطتها نهرًا في أفريقيا. كنّا نبحثُ عن رجل يُدعى كورتز، وقد عثرنا عليه في نهاية المطاف. ولكن كان من الأفضل ألّا يحدث ذلك. كُنت سببًا أيضًا في لقاء أشخاصٍ متباعدين. إذ وضعتُ بودلير على قارب جيم وهاك[4]. وسّره ذلك كثيرًا. إضافةً إلى أنّني نجحتُ أحيانًا في جعل بعض الأشخاص

---

(1) تو فو (712–770) هو أشهر شاعر في سلالة تانغ الحاكمة قديماً في الصّين.

(2) بطلة رواية «تيس الدوبرفيل» لطوماس هاردي (1840–1928)، الّتي أخرجها في السّينما، سنة 1979، رومان بولانسكي بعنوان «تيس».

(3) الشّخصيّة الرّئيسيّة لقصّة جوزيف كونراد (1857–1924) المعنونة «قلب الظّلام».

(4) الشّخصيّتان الرّئيسيّتان لرواية مارك تواين (1835–1910) المعنونة «مغامرات هاكلبيري فين».

التّعساء يفرحون، سمحتُ لكيتس[1] بتزوّج فانيّ قبل موته، ولكنّي لم أستطع إنقاذه من الهلاك. ولكن يجدر بكم أن تَروه رفقة زوجته، في ليلِ زفافهما بإحدى الفنادق الرّخيصة في روما. بالنّسبة إليهما، يعتبر المكان قصرًا عجيبًا. لقد سمحتُ للكتب بدخول أحلامي. وفي بعض الأحيان، كنتُ أحلم أنّني واحدٌ من شخصيّاتها. أمسكتُ بخصر ناتاشا روستوفا[2] النّحيف، تحسّست يدها وهي تسترخي على كتفي، ورقصنا معًا كأنّنا نطفو على أمواج الفالس، على امتداد المرقص اللّامع وصولًا إلى الحديقة، حيث عُلّقت فوانيس ورقيّة، بينما يلوي ملازمو الحرس الإمبراطوريّ المتباهون شواربهم في توتّرٍ.

أتضحك؟ معك حقٌّ في ذلك. لقد كنتُ ذات يومٍ -رغم مظهري المقرف- رومانسيًّا إلى النّخاع، واحدًا من تلك المخلوقات الأكثر سخافةً. كنت ذا نزعةٍ إنسانيّةٍ أيضًا، غارقًا فيها إلى أبعد حدّ. ورغم كلّ هذه الإخفاقات -أو لعلّه بسببٍ منها- تمكّنتُ من لقاء العديد من الأشخاص الرّائعين والكثير من العباقرة أيضًا في سياق تعليمي المبكّر. وأقمتُ حواراتٍ مع جميع العظماء، مثل دوستويفسكي وستريندبرغ[3]. وسريعًا ما تعرّفتُ فيهم على رفاق الشّقاء الهستيريّين مثلي، ومنهم تعلّمت درسًا ذا قيمةٍ كبرى، وهو أنّه لا علاقة لحجمِ جسدك الصّغير بعظمةِ جنونك.

---

(1) جون كيتس (1795-1821)، شاعر بريطانيّ شهير، نشر له بعد وفاته كتاب مراسلات جمعه بخطيبته فانّي.

(2) الشّخصيّة الرّئيسيّة لرواية «الحرب والسّلم لـليو تولستوي (1828-1910).

(3) كاتب ومؤلّف مسرحيّ ورسّام سويديّ (1849-1912).

لستَ في حاجة إلى أن تصدّق القصص حتّى تحبّها. أنا مثلًا، أحبّ جميع القصص. أحبّ لذّة البدايات، ولكنّي أحبّ الوسط والنّهاية أيضًا. أعتقد أنّي أحبّ التّراكم البطيء للمعنى؛ مشاهد المخيّلة الضّبابيّة، مسارات المتاهة، المنحدرات الكثيفة بالأشجار، البرك المرآتيّة، الالتواءات التّراجيديّة والعثرات الكوميديّة. الأدب الوحيد الّذي لا أستطيع تحمّله هو أدب الجرذان، بما في ذلك أدب الفئران. إنّني أحتقر راتّي العجوز الطّيّب في *«الرّيح في الصّفصاف»*[1]. وأبول في حُنجرتيْ ميكي ماوس وستيوارت ليتل[2]، فهؤلاء الوديعون الودودون اللّطفاء يعلقون في حلقي مثل عظام الأسماك حين أقرأ قصصًا تتحدّث عنهم.

والآن، في نهاية كلّ شيء، لم أعد قادرًا على تصديق أنّ الكثير من النّاس الحقيقيّين يملكون مصائر، إضافةً إلى أنّي مُتيقّن من أنّ الجرذان لا علاقة لهم بذلك.

ورغم ذكائي وبراعتي ورقّة مشاعري وتهذيبها وسِعة معرفتي المتنامية، بقيتُ مخلوقًا ذا إعاقاتٍ كثيرةٍ. فالقراءة شيءٌ والكلام شيءٌ آخر، ولا أعني بذلك أن يخطب المرء في الجماهير، لا أقصد أنّني عانيتُ من الفوبيا الاجتماعيّة، رغم صّحّة ذلك في الواقع، إنّني أتحدّث هنا عن مشكلةِ النّطق تحديدًا، أي عن التّلفّظ الصّوتيّ الحقيقيّ. فقد كُنت عاجزًا عن ذلك، أنا الذّي تناهز فصاحتي الثّرثرة، كنتُ

(1) عنوان رواية للأطفال لكينيث غراهام (1859-1932)، صدرت سنة 1908.

(2) عنوان كتاب لإلوين بروكس وايت (1899-1985)، تحوّل إلى سلسلة من الأفلام.

محكومًا بالسّكوت. فالحقيقة أنّني لا أملك صوتًا. وكلّ هذه الجمل الرّائعة الّتي تحوّم في رأسي مثل فراشات كانت في الواقع تطير داخل قفصٍ لا يمكنها مغادرته. كلّ الكلمات المحبّبة الّتي ألوكها في فمي، داخل فكري الصّامتِ المختنق، كانت بلا نفعٍ، مثلها مثل آلاف الكلمات -بل الملايين ربّما- الّتي مزّقتُها من الكتب وابتلعتُها، تلك الشّذرات غير المتماسكة المجتزأة من رواياتٍ ومسرحيّاتٍ وقصائد ملحميّة ومذكّراتٍ واعترافاتٍ فاضحةٍ. لقد سالت جميعها مع مياه الأنابيب، خرساء ومهدورة دون فائدة. المشكلة فيزيولوجيّة. فأنا لا أملك النّوع المناسب من الحبال الصّوتيّة، والحقّ أنّي قضّيتُ ساعات وأنا أحاول أن أتلو أبيات شكسبير. ولم أكن قادرًا على تجاوز بضع تنويعات على الصّرير الأساسيّ. وهكذا كان هاملت بخنجر في يده؛ صرير، ثمّ صرير، ثمّ صرير...(أدّى دوره فرمين، الّذي سحقه وابلٌ من أصوات الاستهجان ووسائد المقاعد) أتدبّر أمري بشكلٍ أفضلٍ مع ماكبث حين يقول إنّ الحياة أشبه بقصّة لا معنى لها، يرويها أبله. ففي هذا السّياق تحديدًا، يكون الصّرير لأكثر من مرّة أمرًا مناسبًا جدًّا. آه، أيّ مهرّج أنا؟ أضحك بدلًا من أن أنتحب، فذلك أيضًا ممّا لا أستطيع القيام به. ولكنّ الضّحك أيضًا، باستثناء أن يكون في رأسي، أمرٌ مؤلمٌ جدًّا أكثر حتّى من البكاء.

كنتُ ما أزال صغيرًا خلال مرحلة استكشاف الأنفاق، لم أكن مُتمكّنًا بعد من الأعمال الكلاسيكيّة الموجّهة للأطفال، وكُنت حاملًا لفكرةٍ مبهمة حول العالم. في هذه المرحلة تحديدًا رأيتُ نفسي في المرآة لأوّل مرّة. لم أتمكّن في السّابق من الدّخول إلى دورة المياه،

وسببُ ذلك هو التزام النّاس بما كُتب بخطّ اليد على لافتةٍ عُلّقت على الباب: *«حافظوا على هذا الباب مغلقًا، من فضلكم»*. وهو ما جعل علاقتي بالحمّام تُختصر في نقرةِ المزلاج المُهدِّدة المُنبعثة بين صوتِ اندفاع الماء ووقع الأقدام على الدّرج. كنتُ في الرّكن خلف سخّان الماء يومَ وقع الصّمتُ مدويًّا أكثر من أيّ نقرٍ آخرٍ، فأدركتُ ما حدثَ على الفور. وبعد أن أغلق المتجر في ذلك المساء، خرجتُ إلى الأضواء الوامضة. كان باب دورة المياه مفتوحًا، وهناك ضوء يشعّ من خلفه في الغرفة الصّغيرة، متوهّجًا أكثر من أيّ شيءٍ آخر تخيّلتُه من قبل. أبهرني في البداية. ثمّ أربكني مشهد التّحف الخزفيّة المنتصبة في الدّاخل. كانت شبيهةً بتلك الموجودة في مذابح كتابٍ مقدّسٍ مصوّرٍ للأطفال. وشعرتُ أنّني بصدد الدّخول إلى هيكلٍ أو معبدٍ مّا، حيث بدت السّطوح البيضاء النّاعمة والأدوات الفضّيّة اللّامعة مهيبةً جدًّا. (لم أكن أميّز في تلك السّنّ بين ما هو مهيبٌ وما هو صحّيٌّ) بدأتُ باستكشاف حافّة حوض بيضويّ الشّكل، مملوء حتّى نصفِه بالماء، ووسطُه مخطّط ببقعٍ بنّيّة. ثمّ قضمتُ قطعة من لفيفة ورقٍ أبيضٍ ناعم مثبّت في الجدار إلى جانبه. لقد كان طعمه شبيها بإميلي بوست[1]. ومن هناك، تمكّنتُ من القفز إلى المذبح العالي، الّذي اتّضح لاحقًا أنّه حوض آخر، لكنّه فارغ وفيه ثقب مدوّر ومغلّف بالفضّة في قعره. عُلّقت فوقه مرآة مؤطّرة بالمعدن، تنحرفُ قليلًا إلى الأسفل وفي داخلها تميل الغرفة من خلفي على

(1) إميلي بوست (1872–1960) كاتبة أمريكيّة عرفت بكتابتها عن آداب التّعامل وحسن السّلوك.

نحوِ مجنونٍ. ورغم أنّ ذهني لم يكن متطوّرًا بما يكفي، إلّا أنّي فهمت الأمر على الفور، فوقفتُ على ساقيّ الخلفيّتين، مستندًا إلى الحافّة الخارجيّة للحوض، ثمّ مدّدتُ جسمي إلى أعلى قدر استطاعتي. وتوصّلتُ إلى أن أرى صورتي الكاملة للمرّة الأولى. لقد رأيتُ دون شكّ أفراد عائلتي، وكان عليّ أن أستنتج ملامحي من صورهم. ومع ذلك، اكتشفت أنّنا مختلفون في نَواحٍ كثيرة مهمّة، حتّى إنّني قدّرتُ آنذاك إراديًا -بل صرت متيقّنا- أنّ ملامحي الجسديّة تختلف عنهم.

في آخر الأمر، لم تكن رؤيتي لنفسي للمرّة الأولى شبيهةً برؤيةِ أيّ جرذٍ عجوزٍ، فقد كانت التّجربةُ ذاتيّةً بشكلٍ أكبر، وأكثر إيلامًا كذلك. وفيما كان من السّهل التّحديقُ في صور شانت أو بيوي الكريهة، أصبح فظيعًا بالنّسبة إليّ النّظرُ إلى قُبحي المشابه. واكتشفتُ، دون شكّ، أنّ حدّة هذا الألم تُساوي تمامًا عظمةَ غروري. وذلك ما زاد الأمر سوءًا. إذْ لم أكن قبيحًا فحسبُ، بل متكبّرًا أيضًا. يا للسّخافة! وقفتُ هناك مائلًا بعض الشّيء، مرئيًّا بكلّ تفاصيلي الدّقيقة، قصيرًا، واسع الخصر، مكسوًّا بالشّعر الكثيف، وبلا ذقن. فرمين أو فرمان[1] على الأرجح. يا للفظاعة! لقد تسبّب لي الذّقنُ -أو بالأحرى غيابُه- في ألمٍ مخصوصٍ. وبدا أنّ هذا الغياب يشير إلى نقصٍ فادحٍ في الأليافِ الأخلاقيّة، رغم أنّه مجرّد غيابٍ تافه غير جدير بالإشارة إليه. ووجدتُ أنّ العينين الدّاكنتين المنتفختين منحتاني على نحوٍ مقزّزٍ مظهرًا ضفدعيًّا. إجمالًا، كان ذلك وجهًا مخادعًا، عديم

(1) Fur-man يمزج بين كلمتي الفرو والرّجل/ الإنسان.

النّزاهة وغير جديرٍ بالثّقة. إنّه وجه شخصٍ دنيء؛ فرمين الحثالة. ولكنّ التّفاصيل -غياب الذّقن والأنف المدبّب والأسنان الصّفراء، إلخ...- لم تكن مهمّةً في ذاتها مقارنةً بانطباع القبح العامّ. وحتّى في تلك المرحلة الّتي لم تتجاوز فكرتي عن الجمال خلالها رسومات تينييل[1] لأليس، كنتُ أعرف أنّ هذا الشيّء قبيحٌ حقًّا. ثمّ إنّ التّباين والمسافة الّتي لا تُجسّر على نحوٍ مؤلم، أصبحا أعظم عندما تعرّفتُ لاحقًا على مخلوقاتٍ جميلةٍ جدًّا، مثل جنجر وفريد وريتا وغاري وآفا وكلّ اللّطفاء الآخرين. لم يكن ذلك مقبولًا بتاتًا.

ومنذ تلك اللّحظة، فعلتُ كلّ ما بوسعي كي أتفادى صُورتي المنعكسة على أيّ سطحٍ. لقد كان من السّهل الابتعاد عن المرايا، لكنّ الأمر كان مُختلفًا في ما يتعلّق بالنّوافذ وأغطية العجلات، فكلّما ألقيت نظرةً خاطفةً على إحداها، شعرت بالرّعب على الفور كأنّني رأيت وحشًا. وطبعًا، أكتشف سريعًا أنّ الوحش ليس شخصًا آخر غيري. لا يمكنني أن أصف الكآبة الّتي تحلّ بي آنذاك، ولهذا السّبب طوّرتُ خدعةً ذهنيّةً صغيرةً؛ كلّما حدث الأمر أتفادى أن أقول «هذا أنا» وأنفجر باكيًا، وبدلًا من ذلك أقول «هذا هو»، وأفرّ هاربًا.

كنتُ خلال تلك الأيّام الخوالي، وخاصّةً بعد أن ظفرتُ بالنّفاذ إلى الطّابق الرّئيسيّ، أصل السّهر باليقظة باكرًا. وباستثناء المرّات الّتي يدفعني فيها الجوع خارجًا إلى العالم كي أتدبّر أمر طعامي،

(1) جون تينييل (1820-1914) رسّام كتب بريطانيّ اشتهر برسوماته لـ«أليس في بلاد العجائب».

أستنفد معظم ساعات ليلي وأنا أقرأ وأسافر في متجر الكتب، وأُقضّي أفضل قسمٍ من يومي مُسمّرًا بين المنطاد والشّرفة، خشية أن يفوتني أيّ شيء ممّا يحدث في الأسفل. لقد نمتُ مرّتين على الكتاب بسببِ شُعوري بإرهاقٍ شديدٍ، ولم أستيقظ إلّا على حشرجة المفتاح في الباب الأماميّ. كان نورمان يفتح المتجر، لذا كُنت أقفز في الوقت المناسب داخل ثقب الجرذان.

تمكّنت قبل أسابيعٍ قليلةٍ من رُؤية نورمان للمرّة الأولى، كُنت آنذاك في المنطاد، ولم ألمح نورمان بالكامل، وإنّما قبّة رأسه اللّامعة وأطراف كتفيه وذراعيه فحسب. وفي تلك اللّحظة لم يصبح نورمان بالنّسبة إليّ، بل ما يزال صاحب المكتب فقط. احتجتُ إلى وقتٍ طويلٍ كي أقتنص الشّجاعة الكافية للتّلصّص من المنطاد أثناء ساعات العمل في المتجر، ولكنّني نجحتُ في ذلك أخيرًا ذات صباحٍ باكرٍ. لم أكن أسمع شيئًا سوى صرير الكرسيّ الحزين وحشرجة الورق من حينٍ إلى آخر. وضعتُ عينًا حذرةً على حافّة الصّدع السّريّ، ورأيتُه هناك عند المكتب، مرفقاه يستندان إلى ذراعيْ الكرسيّ وهُوَ يقرَأ الجريدة. وبواسطة بصري الحادّ، استطعت أنا أيضًا أن أقرأ ما في الورق، لكنّني في تلك اللّحظة كنتُ مهتمًّا أكثر بقراءة ما هو مكتوب على رأس نورمان الأصلع. لقد تمّ تعيينُ حياتي بسلسلةٍ من المصادفات العجيبة. (اعتبرتُها لفترةٍ طويلةٍ علامات إضافيّةً تؤكّد امتلاكي لمصيرٍ مميّزٍ) وقد صادف أنّني كنتُ أتعلّم بعض الأشياء حول قراءة الجمجمة قُبَيل نظري إلى رأس نورمان للمرّة الأولى.

انشغلتُ طيلة أسبوعٍ بـ«*كتب نادرة وطبعات أولى*»، وقد قضّيتُ شطرًا من اللّيلة المنصرمة مُنكبًّا على مؤلّف فرانتس يوزيف غال[1] «بنية وفيزيولوجيا الجهاز العصبيّ بشكلٍ عامٍّ والدّماغ بشكلٍ خاصٍّ»، العمل الرائد في علم الدّماغ. وفيما كنتُ مرتابًا في البداية من إمكان قراءة شخصيّة المرء انطلاقًا من نتوءات جمجمته وتجويفاتها، مَكّنني التّحسّس المنهجيّ لرأسي المكسوّ فروًا من اكتشاف العديد من النّتوءات العظميّة، وهي نتوءات تكاد تكون تشوّهات في الشّكل. فمثلًا، التّورّم الّذي في جبيني -وهو نتوء يُشبه المقبض اعتدتُ أن أفركه كلّما شعرتُ بالحيرة- يشير، حسب غال، إلى موهبة لغويّةٍ مذهلةٍ، بينما يمثّل كيسَا الحزن تحت محجريّ علامةً على حساسيّةٍ «روحانيّةٍ» مرهفةٍ. لقد اكتشفتُ كذلك عند قاعدة جمجمتي نتوءات مدبّبة تخصّ «الوصل» و«الارتباط»، والّتي تشير إلى «نزوعٍ -لا يمكنني أن أنكره- إلى خلقِ روابط قويّة بالآخرين» و«ميلٍ إلى الشّبق والشّهوة الجسديّة». وختامًا ولمجرّد بيان أنّ الجمجمة نفسها قادرة على السّخرية، أحمل في صدغيّ تموّجات صغيرة لكنّها واضحة، تنتُج عن اندفاعات قويّة لأملٍ لا يُقهر.

محدّقًا من حافّة المنطاد، مسحتُ خريطة التّلال والوديان الّتي تشكّل قبّة رأس نورمان، فبدت علامات الذّكاء والرّوحانيّة والطّاقة الذّهنيّة والصّرامة واضحةً مثل شمسِ النّهار، وكذلك لمحتُ تلًّا

(1) فرانتس يوزيف غال (1758-1828) طبيب ألمانيّ والأب المؤسّس لعلم الدّماغ، وهو علم موازٍ يهدفُ إلى استقراء ملكات الشّخص وميولاته استنادًا إلى تضاريس الجمجمة وشكلها.

صغيرًا -هو الأفضل إطلاقًا- يشير إلى «حبّ النّسل»، الّذي يعرّفه غال بصفته «شعورًا مخصوصًا يدفع المرء إلى حماية ذرّيّةٍ عاجزةٍ، والاهتمام بها». ملأني هذا الاكتشاف للطّبيعة الحقيقيّة لصاحب المكتب بالسّعادة. ولأوّل مرّة في حياتي، لم أشعر بأنّني وحيدٌ في العالم. لقد منحني ذلك إحساسًا بالأمان وشعورًا قويًّا بالوصل، على حدّ عبارة غال. لقد وقعتُ على الفور في حبّ نورمان.

ها إنّي أسمع الآن أصواتًا تنمّ عن نفاد صبرٍ، أقدام كرسيّ تكشط الأرض وزفرة طليقة. حسب تقديري، يدفعكم مرأى سعادتي إلى التّساؤل عمّا إذا كان قد خطر ببالي من قبل أنّني أنتمي إلى «الذرّيّة العاجزة». وجوابي لكم باختصار هو: «لا، مُطلقًا». وبالعودة إلى الماضي، أكتشفُ أنّ شبه التّراجيديا هذه الّتي سأحدّثكم عنها قريبًا، سببُها بكلّ بساطة أنّ رأس نورمان لم يكن أصلع تمامًا. لقد ارتبكتْ دراستي لشخصيّته، رغم جدّيّتها، بسبب خصلة شعر متموّج تحجب صدغيه. أنا متيقنٌّ من أنّني في حال جثمتُ على كتفه سأعثر على نتوءات فوق الأذنين تعني «الحسّ التّدميريّ»، ترفدها بعض التّورّمات على شكل أوتادٍ، وهي تورّمات تشير إلى «السّرّيّة». ولكن كلّ هذا ينتمي إلى المستقبل. ومن الأجدر الآن أن نضع تحت صورة نورمان عند مكتبه التّعليق التّالي: *أوّل كائن بشريّ أحبّه ف.*

الفصل الخامس

سافرتُ في كُتبي. وتوقّفتُ عن أكلها. وأصبح الطّعام المعتاد الّذي بلا كلمات مشكلةً دائمةً. لذا كنتُ مضطرًّا إلى مغادرة المتجر كلّ ليلةٍ؛ أستجمع شجاعتي، أنسلّ من تحت باب القبو وأتّجه إلى أنحاء الميدان بحثًا عن الطّعام، منكمشًا في الظّلّ، زاحفًا في المجاري، وراكضًا من بقعةٍ مظلمةٍ إلى بقعةٍ مظلمةٍ أخرى. إنّها *مذكّرات زاحف ليليّ*. ومع مرور السّنة، ازدادت برودة الأيّام ومن ثمّ دفؤها. وبدأتُ ألاحظ تغييراتٍ تطرأ على الحيّ. ولستُ أتحدّث هنا عن التّفتّح المتأخّر لنتف العشب والنّرجس البرّيّ. إنّ التّحوّلات الّتي أتحدّث عنها أكبر بكثير، وعلى نحوٍ ساخرٍ، من عمليّات التّفتّح الصّغيرة تلك. كانت المحلاّت والمتاجر تُغلق في كلّ ركنٍ تقريبًا. وفي اللّيل، تخلو الشّوارع الجانبيّة من النّاس في وقتٍ مُبكّر، بل إنّ الميدان نفسه يصيرُ خاليًا وفي العادة لا يبقى بعد الحادية عشرة أيّ شخصٍ باستثناء البحّارة المسمّرين في مداخل الحانات. ازداد عدد النّوافذ المكسورة في البنايات، وقد صارت تظلّ كذلك طيلة الوقت، أو تُستبدل بصفائح من الخشب الرّقاقيّ. تكوّمت النّفايات في الأزقّة وعلى الأرصفة أمام بعض

المحلاّت. وأُهملت السّيّارات في المواقف، إلى أن يُفكّكها الزّبّالون على امتداد زمنٍ طويلٍ إلى قطعٍ متفرّقةٍ. وحتّى بنايات الآجرّ نفسها بدت منكمشةً بسبب التّقدّم في السّنّ كأنّها تحاكي الشّيوخ وعجائز الجرذان، أو كأنّها فقدت رغبتها في الوقوف منتصبةً. إضافةً إلى كلّ ذلك، انتقل الجرذان إلى السّيّارات. وأعدّوا جحورًا مريحةً في المقاعد.

كنتُ ألتقي من حينٍ إلى آخر بأحد أفراد عائلتي القديمة. هم كذلك قد تغيّروا كثيرًا منذ رحيلهم. صارت خدودهم مجوّفةً ومنظرهم خبيثًا. لهم أجسام طويلة وبطون متدلّية. ويبدون أشخاصًا ذوي ملمحٍ مزعجٍ جدًّا، إلى درجة أنّني أكادُ لا أتعرّف عليهم. وعادةً، ما يحبّ الواحد منهم أن يدّعي أنّه لم يتعرّف عليّ هو الآخر. كانوا متلهّفين دومًا للذّهاب إلى أيّ مكان، اقتفاءً لإشاعة طعام متاح أو هربًا من البشر. ولكن، قد يتوقّف أحدهم أحيانًا، كي يثرثر قليلًا وينبئني بالمستجدّات، ولمَ لا يدلّني على بعض الأماكن حيث يمكن لي أن أجد ما ألتهمه.

كانت نصائحهم خاطئةً في معظم الأحيان، مُصمّمةً كي توقعني في الطّريق الخاطئ. وفي الحقيقة، لم يتغيّروا كثيرًا. كنتُ ما أزال في عيونهم معتوهًا لا خير فيه. وفي إحدى تلك اللّقاءات، علمتُ أنّ بيوي قد قُتلت. دهستها سيّارة تاكسي في اللّيلة السّابقة. وقفتُ مع شانت على الرّصيف، بينما أشار إلى رقعة من الفرو تُشبه سجّادًا صغيرًا وسط شارع كامبريدج. ورغم أنّ بيوي لم يبدِ تجاهي أيّ

نوع من الاهتمام، فإنّ رؤيته على ذلك النّحو كانت صدمةً مزعجةً بالنّسبة إليّ. وعلى الفور، علّقتُ في رأسي كلمتين حذو اسمه: *حياة سخيفة*.

ولكن، ما الّذي أعلّقه حذو اسمي؟ عندما أكون في مزاج سيّء، تكون الكلمة: «*مهرّج بشع*» أو «*جرذ*» في بعض الأحيان. أمّا إذا كان مزاجي حسنًا -وهو كذلك في الأغلب الأعمّ خلال تلك الفترة- فإنّني أعلّق *رجل أعمال*. تتعلّق أعمالي بالكتب، استهلاكًا وتبادلًا. أمكثُ بين المنطاد والشّرفة وأتعلّم المهنة. تعلّمتُ عند حافّة المنطاد، ومع خطر السّقوط الدّائم، ما أمكن لي قراءته من الجريدة فوق كتفِ نورمان. أحيانًا، حين يضع فنجان قهوته على نحوٍ محدّدٍ، أستطيع رؤية صورتي منعكسة على سطح الماء الدّاكن، والحقّ أنّها ليست صورة تفتح الشّاهية عند فطور الصّباح. كان نورمان قارئًا حقيقيًّا كذلك. فهو يتحسّس بيده بحثًا عن فنجانه مثل رجلٍ أعمى. وعندما يعثر عليه، يمسكه بيده، ويرفعه إلى شفتيه دون أن يحوّل عينيه عن الجريدة. كانت رائحة القهوة تطفو صاعدة إلى أعلى. ثمّ تتشبّث بالسّقف. وتمكث هناك. لقد أحببتُ تلك الرّائحة كثيرًا على رغم من أنّي لم أتذوّق طعم القهوة إلّا بعد فترة طويلة.

سألني رجل في حانة ذات مرّة عن مذاق الكتب «بشكل عامّ». وكان جوابي جاهزًا. لكنّني تظاهرتُ بتأمّل السّؤال كي لا أشعره بأنّه غبيّ جدًّا. ثمّ قلتُ له: «يا صديقي، نظرًا إلى الهوّة الفاصلة بين

جميع تجاربك الخاصّة وتجاربي، لا يمكنني أن أقرّب إليك ذلك المذاق الفريد إلّا إذا قلتُ إنّ الكتب، بشكلٍ عامّ، لها مذاقٌ مماثلٌ لرائحة القهوة.» ويمكنني القول استنادًا إلى الطّريقة الّتي التفت بها إلى مشروبه أنّني منحتُه الكثير ليفكّر فيه. الآن، وقد عدتُ إلى وحدتي، لم أعد أشمّ رائحة القهوة مطلقًا، وذلك شيءٌ آخر جميل قد رحل عن حياتي.

بعد جريدة الصّباح، أتنصّتُ على معاملات نورمان مع زبائنه. وقد كان الكثيرُ منهم -بل أغلبهم- قرّاء حقيقيّين آملين في شراء بعض الكتب الجيّدة بسعرٍ زهيدٍ. وعندما لا يأتون بعناوين جاهزة أو يبدو بحثهم مرتبكًا وضبابيًّا، فإنّ نورمان يلاحظ ذلك دون شكّ، ويعرف دومًا كيف يرسلهم إلى الوجهة الصّحيحة. لقد كان شارلوك هولمز[1] حقيقيًّا، حين يتعلّق الأمر بتكهنّ شخصيّة مّا انطلاقًا من المظهر الخارجيّ. ويمكنه أن يخبرك بعد لمحة عينٍ -استنادًا إلى الثّوب، اللّهجة، تسريحة الشّعر وحتّى المشية- نوع الكتب الّتي يحبّونها. إضافةً إلى أنّه لم يخطئ في ذلك مطلقًا. إذ لم يقدّم قطّ كتابَ *ساحة بيتون*[2] مثلا لزبون كانت روايةُ *الدّكتور جيفاغو*[3] ستُسعدُه أكثر. وهكذا دواليك. لم يكن نورمان شاين متحذلقًا. كان قصير القامة بمؤخّرة برميل. وكان وجهه عريضًا

(1) شخصيّة سرديّة شهيرة لمحقّق استثنائيّ، من أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطّبيب الاسكتلنديّ آرثر كونان دويل.

(2) رواية من تأليف الكاتبة الأمريكيّة غريس ميتاليوس (1924-1964).

(3) رواية شهيرة من تأليف الكاتب الرّوسّي بوريس ياسترناك (1890-1960).

-علي أيّة حال، يبدو أعرض من كونه طويلًا- وله فم صغير جدًّا، يزمّ شفتيه كلّما أصغى إلى شخص مّا. اسأله شيئًا مّا. اسأله ما إذا كان لديه *دومبي وابنه*[1] أو *حياة ماريان* لماريفو[2] مُترجمةً، ثمّ تأمّل جيّدًا حوافّ فمه وهي ترتفع إلى أعلى. يشبه الأمر سحب خيط كيس أو قرص شقائق نعمان البحر. ومهما كان السّؤال عاديًّا (من قبيل «من كتب الحرب والسّلم؟» أو «أين دورة المياه؟») فإنّه يميل برأسه، كأنّه يريد أن ينظر إليك من فوق طرف نظّاراته، يزمّ شفتيه، ثمّ يتصرّف كأنّ سؤالك هو أعمق سؤالٍ اعترضهُ طيلة حياته. بعد ذلك، ينسى شقائق النّعمان خوفه. يتراخى الرّباط. وينفتح فمه في ألطف ابتسامةٍ. ثمّ يرفع سبّابته ويمدّها كأنّه يختبر الرّيح. ويقول: «الغرفة الخلفيّة، الرّفوف اليسرى، الرّفّ الثّالث من الأسفل في اتّجاه الطّرف الأبعد»، أو شيئًا مّا بهذه الدّقّة. كان يبدو مثل راهبٍ مرحٍ برأسه الأصلع وشعره الكثيف على الجانبين الشّبيه بحدوة الحصان، حتّى إنّني في بعض الأحيان أحسبه الرّاهب تاك[3].

يزدحمُ المتجر بالزّبائن خلال مساءات السّبت، وخصوصًا حين يكون الطّقسُ حسنًا. فيترك نورمان مكتبه عند المدخل، ليتنقّل بين النّاس ويساعدهم في العثور على ما يبحثون عنه. كم كان جميلًا في تلك اللّحظات وهو يتحرّك برشاقةٍ في ما بينهم، كأنّه جنديّ مشاة.

---

(1) رواية من تأليف تشارلز ديكنز (1812-1870).

(2) بيير دو ماريفو (1688-1763) كاتب فرنسّي شهير، من بين أعماله «حياة ماريان». وهي رواية غير مكتملة.

(3) شخصيّة مرافقة لروين هود في الخرافات الّتي تتعلّق به.

لقد كان آيثوس[1] هادئًا ومتحفّظًا، قليل الغضب لكنّه قاتلٌ عندما يُستفزّ. يهجم عليه سؤال من خلف، فيلتفتُ ويرفع سيفهُ إلى أعلى رفٍّ. ثمّ يسحب «الموت في البندقيّة»[2] مخوزقًا ولامعًا مثل سمكةٍ في رمح. وقد يُرسله طلبٌ آخر إلى إحدى الممرّات بحثًا عن كتابٍ، أو الالتفاف عند ركن رفّ من الرّفوف، حيث يتظاهر بالاقتراب يسارًا في اتّجاه كتب اليافعين، ومن ثمّ يقرفصُ ليغرق جهة اليمين. وهناك، يثبّت بطرف سيفه *دليل بيّتي كروكر المصوّر للطّبخ*. يُسمع طلبٌ ثالث يأتي هذه المرّة من امرأة عجوز، قبيحة ومحنيّة الظّهر، ترتدي معطف مطر، فيستقبله نورمان بالاحترام ذاته؛ انحناءة، فاستدارة فرسان ونقرتان برقيّتان على الأرض، ثمّ يكون *«قوّة التّفكير الإيجابيّ»*[3] و*«التهاب المفاصل»* و*«الحسّ السّليم»*[4] عند قدميها. برافو عزيزي آيثوس، برافو![5].

ولكنّ أجمل لحظات نورمان تكون خلال الأيّام الممطرة، عندما يخلو المتجر من الزّبائن ويمضي هو متجوّلًا بين الممرّات، حاملًا منفضة غبار في شكل ريشة ديك روميّ عريضة. ينفضُ الغبار يمينًا وشمالًا، وهو يدندن أغنية أو يطلق صفيرًا. لطالما جعلتني رؤيته في تلك الحال أفكّر في مدى جمال أن يكون الواحد إنسانًا. لقد كانت

---

(1) أحد مشاة الملك الفرنسيّ. ولد سنة 1615. وتوفيّ سنة 1645. ألهم الكاتب الفرنسيّ ألكسندر دومًا شخصيّة روائيّة تحمل اسمه في رواية «الفرسان الثّلاثة».

(2) نوفيلاّ شهيرة كتبها الرّوائيّ الألمانيّ توماس مان سنة 1911. ونشرت بعد ذلك بسنة.

(3) كتاب من تأليف نورمان فنسنت بيل، صدر سنة 1952.

(4) كتاب لدان دايل ألكسندر، صدر سنة 1950.

(5) وردت بالفرنسيّة في النّصّ الأصليّ.

الأيّام الممطرة ممتعةً بالنّسبة إليّ أيضًا، إذ يهدهدني اندفاع الماء فأغفو من حينٍ إلى آخر في موقعي. ويحدث أن أرى كوابيس، أموتُ فيها ميتات فظيعة، مسحوقًا تحت وبستر[1] في طبعةٍ كاملةٍ أو صارخًا تمتصّني إحدى المجاري. أستيقظ بعد ذلك في دفء المتجر، مصغيًا لوقع المطر النّاعم وهمس ريشة الغبار، فأشعر بالسّعادة مجدّدًا.

في الأثناء، كان العالم في الخارج يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى مكانٍ لم أرد حقًّا الانتماء إليه. خلال رحلتنا التّوجيهيّة إلى «الفوق»، تذمّرت ماما كثيرًا من عدم امتناني أنا ولوينا لها مقابل كل الجهود الّتي بذلتها، كي ترينا أفضل أماكن الكشط والتّمشيط. لكنّني أعتبر تذمّرها أمرًا سخيفًا وخاليًا من المعنى، وحسب رأيي، لقد دلّتنا على فخاخ قاتلة، لا تستحقّ الشّكر عليها. أمّا الاستثناء الوحيد، فهو مسرح ريالتو، وفي ما يخصّه هو، لن أفيها حقّها من الشّكر قطّ. إذ دون ريالتو لا وجود للرّغبة. ودون الرّغبة لا وجود للجميلات. وبلا جميلات... ماذا؟ دون جميلات، ليس هناك سوى متسكّع وحيد يجترّ يأسه ساعةَ إغلاق الحدائق. كان بقيّة أفراد عائلتي محظوظين نوعا مّا. فلم يعتادوا على طلب الكثير باستثناء الطّعام والجماع بفضل مخيّلاتهم الضّامرة، وكان لديهم ما يكفي من ذلك ليشقّوا طريق حيواتهم ما دامت لهم. ولكن لم تكن تلك حياةً بالنّسبة إليّ. لقد كنت مثل أيّ أبله آخر، أملك طموحات. وبالإضافة إلى ذلك،

(1) أحد أشهر القواميس والمعاجم، يحمل اسم نوح وبستر (1758-1843)، وهو مصلح وكاتب ونحويّ وصحفيّ وناشر أمريكيّ، يُعتبر أب التّعليم والمدرسة الأمريكيّة.

كنتُ مرعوبًا. فمسرح ريالتو هو المكان الوحيد الآمن إلى حدّ مّا في تلك المنطقة الكئيبة كلّها، حيث يمكنك أن تلتقط شيئا تأكله بهدوء دون أن تجزع خوفًا من مصيبة تنزل بك وتحوّلك إلى سجّادٍ مثل بيوي. إنّه مزيج من قاعة لعرض الأفلام وملجإ ليليّ يظلّ مفتوحًا طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم. ونصف المتفرّجين هناك يأتون من أجل النّوم. فالمكان أرخص من غرفة في فندقٍ وأدفأ من الشّارع. كان معروفًا بتلك التّسمية الوديعة: «منزل الحكّ». ومعظم الجرذان يتجنّبونه تفاديًا للحشرات، وهي جماعات شرهة من البراغيث والقمل، ويتجنّبونه أيضًا بسبب العفن الصّادر عن المُسنّين والفقراء ورائحة العرق الممتزجة بنُتن المبيدات الحشريّة والمطهّرات الّتي تُرشّ مرّة في الأسبوع. ولكن بالنّسبة إليّ ونظرًا إلى طبيعة مزاجي، كان ذلك ثمنًا رخيصًا يُدفع بسهولة. يعرضُ الريالتو أفلامًا قديمة أثناء ساعات النّهار واللّيل -أربعين فيلمًا تقريبًا- تظلّ تُبثّ في حلقة مسترسلة كي تحافظ على واجهة من الاحترام المهلهل. وفي منتصف اللّيل، حين يندسّ المواطنون والمراقبون في أسرّتهم ويتمكّن أفراد الشّرطة من غضّ نظرهم بلا مجازفة، تنقلبُ العروض إلى البرنوغرافيا. مع نقرة منتصف اللّيل تمامًا، تتوقّف الصّور المتمايلة المليئة بالخدوش لتشارلي تشان[1] وجين أوتري[2] عن الحركة في

---

(1) شخصيّة متخيّلة أمريكيّة من أصول صينيّة، أبدعها إيرل دير بيغر (1884-1933) في كتاباته. ثمّ اشتهرت في العديد من الأفلام.

(2) جون أوتري (1907-1998) كان مغنّيًا أمريكيًّا يُلقّب براعي البقر. وهو من أبرز وجوه السّينما الأمريكيّة طيلة ثلاثة عقود، انطلاقًا من الثّلاثينيّات.

منتصف البكرة، مُحدثةً صوت قعقعة معدنيّة. يخيّم بعد ذلك الظّلام المطلق. وتمرّ بضع دقائق من السّعال والوشوشة قبل أن يهدر جهاز العرض من جديد، مُستعيدًا حياته. وحتّى صوتُه يبدو حينئذ أشبّ وأكثر وضوحًا. كان التّحوّل مذهلًا حقًّا.

ورغم أنّ الرّيالتو يملك الكثير ليمنحه لزوّاره، إلّا أنّ الحضور كان ضئيلًا دومًا. ولذلك يسهل عليّ أن أتسلّل أسفل الصّفوف الفارغة، فأحصد بدقّة عالية بقايا أعواد الحلوى والفشار وأحيانًا وجبة عرضيّة من النّقانق أو لحم الخنزير المدخّن (عادةً ما يجلبُ اللّيليّون غداءهم معهم)، بينما يومضُ شعاع جهاز العرض فوق رأسي مثل مصباحٍ ليليٍّ. في المقابل، لم تكن وفرة الطّعام هذه الشّيء الوحيد الّذي يجذبني إلى مسرح ريالتو. فقد كانت تتحرّك على شاشة منتصف اللّيل تلك مخلوقاتٌ عارية هائلة الحجم مثل الأمازونيّات[1]، تُشبه الفتاتينْ اللّتين سمّرني جمالُهما في مكاني قبل أسابيع قليلة، أمام المسرح. ولكنّ اللّواتي أراهنّ هنا لا يحملن مستطيلات سوداء على صدورهنّ وأفخاذهنّ، ولا هنّ متجمّدات في سكون فوتوغرافيّ. بل هنّ يتحرّكن مثل مخلوقات حقيقيّة في ألوان حيّة، ويرقصن ويتلوّين أحيانًا على سجّادات، كان من الواضح أنّها قد صُنعت من جلود حيوانات تملك فروًا أكثر من بيوي. كنّ يتلوّين بمفردهنّ أو مع رجال يشبهون في حضورهم وعضلاتهم البارزة

(1) الأمازونيّات هنّ مقاتلاتٌ في الأسطورة الإغريقيّة يؤلّفن شعبًا يقيم، وفق عدّة مصادر، على ضفاف البحر الأسود. وقد ظهرن أوّل مرّة في إلياذة هوميروس.

رضّع جرذان عمالقة. كان حضورًا عدوانيًّا مبالغًا فيه في الحقيقة. يحدث أحيانًا أن يتلوّين في أحضان بعضهنّ البعض. وكم تلهّفتُ إلى تلك البشرة النّاعمة الشّبيهة بجلد الشّامواه[1] الأملس، حالمًا بشَمّ رائحتها ولمسها وتذوّقها. يا لذلك الشّعر الكثيف المتدفّق! كم رغبت في أن أدفن وجهي فيه وأتلاشى. كنتُ أعي جيّدًا كيف يمكن لأبناء جنسي المزعوم، القلّة الذين يغامرون بالقدوم إلى هنا، أن يفكّروا في هذه الكائنات ذات البشرة المخمليّة. ففيما كنتُ أرى ملائكة، كانوا هم يلمحون حيوانات بشعة. تقف على قدمين، ثقيلة الخطى، بلا شعر وتافهة. وإذا لم يضحكوا عليها، فإنّ السّبب الوحيد يتمثّل في كونهم لا يضحكون بتاتا.

كان انجذابي إلى هذه المخلوقات السّاحرة العجيبة قويًّا جدًّا، حتّى إنّني وجدتُ نفسي أقضّي السّاعات الطّوال وحتّى الأيّام مُتأمّلًا صورها في متجر الكتب. مرّة أخرى، أستخرجُ بصري البعيد. وأظلّ أنتظر، مرتجفًا من نفاد الصّبر، أن تألف عيناي الظّلمة الرّاجفة. محدّقًا في ريالتو الأحلام والذّاكرة، أمسحُ الفضاء هنا وهناك حتّى أعثر على وجهي الشّابّ، المنشئ العابث لهذا الحطام الّذي أصبحتُه، سجينًا وسط العدسة: أمسكُ ما يبدو أنّه إصبع شوكولاطة، جاثمًا في مقعدٍ في الصّفّ الأوّل، وسط النّيام الشّاخرين والمتسوّلين المزدردين، سائلي اللّعاب والمُستمنين. منهمكًا في المضغ بهدوء، أتأمّل التّعرّي البطيء، التّموّجات

(1) نوع من ظباء الماعز الّتي تعيش في جبال أوروبا.

الأوّليّة، والالتواءات المجنونة للكائنات الّتي انتهيتُ إلى تسميتها «حسناواتي». أمضغُ وأتأمّل. أتأمّل وأمضغ، جذلًا بأتمّ معنى الكلمة، سعيدًا تمامًا. لست خجولًا من ذلك، بل إنّني أفكّر أحيانًا أنّ كلّ ما يحتاجه المرء في الحياة هو الكثيرُ من الفُشار والقليل من الحسناوات.

كان نورمان يحصّلُ كتبه من المبيعات الّتي تقام ضمن تصفيات المواريث. وذلك هو القسم المحزنُ الوحيدُ بالنّسبة إليّ في تجارة الكتب. عائدًا من هذه المبيعات، تكون عربة سيّارته البويك المصفّحة بالخشب مثقلة جدًّا بالكتب، حتّى إنّ المصدّ يكشطُ سطح الرّصيف حين يتراجع إلى الخلف نحو باب المتجر. يفتح البوّابة الخلفيّة ويحملها ملء ذراعيه تباعًا إلى الدّاخل، فيكوّمها قرب مكتبه في شكل أعمدة تناهز الخصر. وخلال الأيّام الّتي تلي، يظلّ يفتح الكتب واحدًا بعد آخر. ويدوّن الأسعار بقلم الرّصاص على صفحاتها الأولى. إنّني أمقتُ هذا الجزء من العمل. وأكره خصوصًا تلك الكلمات الّتي أقرؤها فوق كتفيه: «إلى عزيزي بيتر، في عيد ميلاد زواجنا الخمسين» (في رباعيّات الخيّام)، «أهدتني هذا الكتابَ عزيزتي المتوفّاة فايوليت سواين، عندما كنّا في السّابعة عشر» (في الحارس في حقل الشّوفان)، «إلى ماري، عسى أن تجد فيه السّلوى» (في مواعظ جون دون[1])، «فقط لأذكّركِ بأسبوعيْنا

(1) جون دون (1572-1631) شاعر وواعظ إنجليزيّ، رائد ما يسمّى بالشّعر الميتافيزيقيّ، اشتهر بمواعظه الّتي اعتبرت أفضل وأجمل مواعظ في القرن.

في الفردوس الإيطاليّ» (في حجارة البندقيّة لراسكن[1])، «ليس الجنون سوى عبقريّة يُساء فهمها. صلِّ من أجلي» (في أغاني البراءة والخبرة لبلايك[2])، «أحيا، أموتُ؛ كنتُ قد عشتُ. أنا ميّت؛ علّي أن أموت. وسوف أحيا» (في خوف وارتجاف لكيركغارد[3]). كان هناك العشرات من هذه العبارات في كلّ حمولة جديدة. إنّه أمر فاحش. وكان ينبغي أن تُدفن الكتب مع أصحابها، مثلما فعل المصريّون القدامى، كي لا يخربش النّاس عليها أيّ شيء، وكي يكون لديهم ما يقرؤونه في رحلتهم الطويلة عبر الأبديّة.

تُسعّر أغلب الكتب بأقلّ من دولار واحد. لكنّ نورمان يملك عينًا مدرّبة على اقتناص الكتب الثّمينة أيضًا، بالإضافة إلى ملكته في التّكتّم الّتي تشير إليها النّتوءاتُ فوق أذنيه. إذ ما إن يلاحظ كتابًا قيّمًا حقًّا في إحدى تلك المبيعات، حتّى يتستّر على الأمر إلى أن يشتريه بثمنٍ بخسٍ. يمكنه أن يدفع نيكل[4] واحدًا مقابل كتاب. فيمضي، ويضعه في صندوق بلّوريّ. ويبيعه في اليوم التّالي مقابل ألف دولار. وعندما يأتي مجمّعو الكتب ليروا ما لديه، ويرتدون قفّازات قطنيّة

---

(1) المقصود هو جون راسكن (1900–1819)، وهو ناقد فنّيّ إنجليزيّ كتب في مسائل كثيرة من بينها الأدبُ والعمارة والجيولوجيا والتّعليم والسّياسة، إلخ. وقد ألّف كتابًا من ثلاثة أجزاء عن هندسة مدينة البندقيّة وطابعها الفنّيّ عنوانه «حجارة البندقيّة».

(2) ويليام بلايك (1827–1757) شاعر ورسّام إنجليزيّ شهير، يعتبر أوّل شاعر رومنطيقيّ في إنجلترا. له ديوان شعريّ عنوانه «أغاني البراءة والخبرة».

(3) سورين كيركغارد (1855–1813) شاعر ولاهوتيّ وفيلسوف دنماركيّ، يعتبر رائدًا للوجوديّة.

(4) نيكل: عملة أمريكيّة تساوي خمس سنتات، تمّ إدخالها سنة 1866.

بيضاء قبل أن يلمسوا أيّ شيء في الصّندوق، يجدون بعض هذه الكتب الّتي حملها نورمان من عربته قُبيل أيّام قليلة. ولكن لا تخبر المجمّعين بذلك! لقد كانوا يجلسون هناك في جلال كأنّهم باباوات، يمسكون بقفّازاتهم البيضاء كتابًا بعناية من يمسك مولودًا جديدًا، ويتحدّثون عن مأتاه وطبعته الأولى والتّوقيعات وروزنباخ[1] العظيم. بعض هؤلاء النّاس يعرفون الكثير عن تاريخ الكتب. ولكن لا أحد منهم يعرف نورمان، أو يستطيع تجاوزه في مسألةٍ من المسائل. لقد كان رائعًا إلى حدّ جعلني أعتقد أنّه رجلٌ عليمٌ بكلّ شيء. لقد مرّ زمن بعيد منذ حذفتُ من رأسي تلك اللّافتة الّتي تعيّنه بصفته صاحب المكان فحسب، واستبدلتها بلافتتين جديدتين حذو اسمه: *المبارِز* و*حامل مفتاح المعرفة*. كان من اليسير عليّ الانتقال من صورة المفتاح إلى القدّيس بطرس[2]. وعلى هذا النّحو، ارتبطتْ صورة نورمان شاين في ذهني بفكرة القداسة.

كانت هناك خاصيّة مُمتعة أخرى في تجارة الكتب، وهي الّتي تجعل نورمان شبيهًا بعارض الأفلام المخفيّ في ريالتو. فبالإضافة إلى الكتب المستعملة على الرّفوف والّتي تكون في وضع حسن، والكتب الأخرى البالية في القبو، وتلك النّادرة في الخزائن ذات

(1) أبراهام روزنباخ (1876-1952) مجمّع كتب أمريكيّ، عرف بثقافته الموسوعيّة. وهو بائع للكتب والمخطوطات النّادرة.

(2) هذه إشارة إلى مفهوم مسيحيّ وهو «مفاتيح المملكة» أو مفاتيح الجنّة الّذي يشير إلى سلطة الكنيسة ونفوذها في المعاد، والمرتبط بالقدّيس بطرس، حتّى إنّ العديد من اللّوحات والتّماثيل الّتي تجسّده تتضمّن مفتاحًا أو أكثر بيده اليمنى. ومن بينها ما يتضمّن هذه العبارة، منسوبة إليه: «سوف أهبكم مفاتيح مملكة السّماء».

الواجهات الزّجاجيّة، كان هناك كتب أخرى في الخزنة الحديديّة أمام ثقب الجرذان. إنّها الكتب المحظورة ذات الأغلفة الورقيّة البيضاء، المنشورة في دار أولمبيا ومنشورات أوبليسك[1]، والّتي تمّ تهريبها من باريس. لها عناوين مثل *مدار السّرطان*[2]، *سيّدتنا ذات الأزهار*[3]، *رجل الزّنجبيل*[4]، *الغداء العاري*[5]، *حياتي والحبّ*[6]. لم يكن يأتي من أجل هذه الكتب إلّا الرّجال، وقد كانوا يتلفّظون أسماءها همسًا إذا كان نورمان يعرف الزّبون من قبل، أو قرّر بعد تفحّصه أن يمنحه ثقته، وفي هذه الحالة يختفي تنكّر الرّاهب تاك على الفور: تضيق عينا نورمان المستديرتان. وينبسطُ فمه الشّبيه بكتاب جيب صغير ليصير صدعًا يابسًا. كان لديّ انطباع بأنّ الفيلم الّذي كنت أشاهده قد تغيّر فجأةً، وصار أمامي العميل السّرّيّ للمقاومة الفرنسيّة، وهو بصدد تقديم وثائق مزوّرة. أو ربّما وسيط من وسطاء العالم السّفليّ وهو يمرّر ماسات مسروقة. «لحظة فحسب»،

---

(1) دارا نشر شهيرتان، تعود الأولى إلى الكاتب والنّاشر موريس جيروديياس (1990-1919) والثّانية انتقلت إلى ملكيّته أيضًا بعد أن ورثها عن والده الّذي أسّسها من قبل.

(2) رواية شهيرة لهنري ميلّر (1980-1891) اشتهرت بمحتواها الجنسّي المباشر والمغالى فيه بالنّسبة إلى السّلطات.

(3) الرّواية الأولى للكاتب الفرنسّي جان جونيه (1986-1910).

(4) أشهر عمل للرّوائيّ وكاتب المسرحيّات الإرلنديّ الأمريكيّ دجايمسباتريك دونليفي (1926-2017).

(5) رواية شهيرة لويليام بوروز (1997-1914).

(6) السّيرة الذّاتيّة للكاتب الأمريكيّ من أصول إرلنديّة فرانك هاريس (1931-1855).

يقول قبل أن يطلق نظرة سريعة من حوله. ثمّ يجثم أمام الخزنة كأنّه يريد أن يحجب ما فيها، ويلقي بمهارةٍ البضاعة المهرّبة في كيس بنّيّ عاديّ، ليس مكتوبًا عليه عبارة كتب بيمبروك. تنفلتُ من الخزنة أثناء العمليّة نفحة عطر من باريس -سجائر الغولواز الزّرقاء والنّبيذ الأحمر وعادم السّيّارات- وتصعدُ نحو السّقف، حيث تمتزج برائحة القهوة. حينئذٍ أقول لنفسي:»يا لنورمان الطّيّب! إنّه يسدّد ضربةً من أجل الحرّيّة». وذلك ما يبيّن لي أنّني كنتُ في أعماق نفسي ثوريًّا، حتّى قبل أن ألتقي جيري ماغون. مثلما يبيّن لي أيضًا أنّني كنتُ أحجُب عن نفسي حقيقةً جليّةً، وهي أنّ نورمان يحقّق أرباحًا كبيرة، بالإضافة إلى كونه يُناضل من أجل الحرّيّة. إنّني أعي الآن أنّه كان شخصًا مضطربًا، ولكنّني في تلك الأيّام لم أكن أعرف أيّ شخصٍ مضطربٍ غيري.

كانت كلّ هذه التّجارب الجديدة تخوض معركة شرسة في رأسي، بين كتب بيمبروك ومسرح ريالتو. لقد كانا بالنّسبة إليّ مثل معبدين خصمين يتنافسان على تقديسي لهما، واحد لحكماء ومعلّمين روحيّين وآخر لملائكة. وكنتُ أستسلم لأحدهما أحيانًا، ومن ثمّ للآخر في لحظات مختلفة. وعندما تميل الكفّة لصالح ريالتو، أمكث هناك عادةً طيلة اللّيل. وعلى هذا النّحو، أتمتّع ببرمجة النّهار دون أن أضطرّ إلى المشي في الشّوارع في وضح النّهار. هناك من بين أفلام الأبيض والأسود الّتي تعرض بلا انقطاع، إلى جانب تشارلي تشان وجون أوتري، أفلامُ الوستيرن والعصابات والأفلام الموسيقيّة، أفلام جون فونتان وبوليت غودارد وجيمس كاغني وأبوت

وكوستيلو[1]، وكذلك فْراد أستير. لا شكّ أنّ عارض الأفلام يملك حسًّا مرهفًا إزاء فراد أستير، لأنّه كان يعرض الكثير من أفلامه. ولم أحتج بدوري إلى وقتٍ طويلٍ حتّى وقعتُ في حبّه. وكلّما عُرضت أفلامه، مكثت هناك، ولم أغادر. كنتُ متيقّنًا أنّ عارض الأفلام هو حارس ألغاز آخر أيضًا، مثل نورمان... معبدان إذَن وكاهنان. وكم وددت أن ألقي نظرةً عليه. لكنّني لم أتمكّن من ذلك قطّ.

أصبح فراد أستير قدوتي المثلى، في مشيته وطريقته في الكلام وأذواقه. ولذلك، طوّرتُ بشكل طبيعيّ حسّا مرهفًا إزاء جنجر روجرز[2]، وأضفتُها إلى قائمة حسناواتي. ومن حين إلى آخر، يكون أحد أفلامها آخر ما يُعرض في القاعة قبل أمجاد منتصف اللّيل. مُرتديةً ثوبًا طافيًا في الهواء، مُرصّعةً بالجواهر وممسكةً يد أستير الممدودة، ثمّ مُختفيةً كأنّها خفيفة بلا وزن، إنّها ثابتةٌ في انحناءتها الرّاقصة، في سحابة من الظّلام كأنّها يوريديس[3]. كنتُ أجثم في الظّلمة الثّقيلة الّتي ابتلعتْها، معتقدًا أنّها قد اختفت إلى الأبد. وبسبب ذلك، جرّبت حزن الفقد حقيقةً لا خيالًا. في الواقع، كنت أتوصّل إلى شيء من دخانِ عاطفة، حين يُسمع صوتٌ مصحوب بأزيز آلة العرض، كان قد أصبح مغويًا بالنّسبة إليّ مثل ركوب

(1) ثنائيّ كوميديّ أمريكيّ هما باد أبوت ولو كوستيلو.

(2) ممثّلة وراقصة ومغنّية أمريكيّة، تعتبر إحدى أفضل ممثّلات السّينما الأمريكيّة على مرّ التاريخ. شكّلت طيلة سنوات عديدة ثنائيًّا بارزًا مع فراد أستير.

(3) شخصيّة في الميثيولوجيا الإغريقيّة، زوجة أورفيوس.

الفالكيري لفاغنر[1]. وهناك أراها مجدّدًا، عائدةً من بلاد الموتى، عاريةً وفي الجنّة كما يبدو، وهي تتلوّى على سجّادةٍ. كان المشهد ساحرًا. وكم كنتُ أرغب في أن أقترب منها مُتوسّلًا، حاملًا رأس وردة لأضعه باحتشام في مزهريّة سرّتها الصّغيرة كأنّني أقدّم قربانًا، ولكنّني أعتقد أنّ كلّ تلك المشاعر والرّغبات كانت قويّة جدًّا بالنّسبة إلى جسمي الصّغير. وفي تلك اللّيالي، عندما أرجعُ إلى ثقبي المغبرّ في السّقف، تجتاحني كآبة فظيعة. إذا كان الحبُّ غير المتبادَل سيّئًا، فإنّ بإمكان الحبّ مستحيل التّبادل أن يصرعك.

خلال تلك الفترات، أمتنع عن الأكل ليومين. وأمكث لأقرأ بايرون[2]. أقرأ مرتفعات وذرينغ[3] كذلك، حتّى إنّي غيّرتُ اسمي. وجعلتهُ هيثكليف. أتمدّد على ظهري. وأتأمّل أصابع قدميّ. ثمّ ألقي بنفسي بعد ذلك في العمل بطاقةٍ مرتفعةٍ. لقد كنتُ جاي غاتسبي[4]. وقد أبديتُ قدرةً هائلةً على الوقوف مجدّدًا. استمرّيتُ في العمل. كنتُ قد عدتُ في الظّاهر إلى ذاتي الرّقيقة القديمة. فمن كان يستطيع أن يعرف أنّني أخبّئ في داخلي قلبًا محطّمًا؟

كنتُ أقرأ البوسطن غلوب[5] مع نورمان كلّ صباحٍ. نقرؤها كاملةً من أوّلها حتّى آخرها، بما في ذلك الإعلانات الصّغيرة. لقد

---

(1) إحدى مقطوعات رتشارد فاغنر الشّهيرة.

(2) شاعر بريطانيّ من روّاد الشّعر الرّومانسيّ.

(3) الرّواية الوحيدة لإميلي برونتي، تعتبر واحدةً من أهمّ روايات الحبّ على الإطلاق، تسرد قصّة حبّ مأساويّ بين كاثرين وهيثكليف.

(4) الشّخصيّة الرّئيسيّة لرواية سكوت فيتزغيرالد الشّهيرة، وعنوانها: «غاتسبي العظيم».

(5) صحيفة أمريكيّة يوميّة، مقرّها بوسطن.

أصبحتُ على اطّلاع بما يحدث في العالم. وصرتُ مواطنًا ذا اطّلاع. وكلّما أشارت الصّحيفة إلى الجمهور العامّ، شعرتُ بقرصة صغيرة من الفخر النّرجسيّ. تعلّمتُ أن أحدّد موقعي في الفضاء. فعندما أقف مقابل الخزانة الزّجاجيّة المخصّصة للنّوادر، يكون أنفي مُشيرًا إلى بروفنستاون من جهة الخليج الأخرى، وذيلي مشكّلًا رمحًا في اتّجاه الطّريق الثّانية من فيتشبورغ. مثلما تعلّمت تحديد موقعي في الزّمان. إذ قبلي تمامًا، تمّ انتخاب كاثوليكيّ رئيسًا للولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتحطيم طائرة جاسوسيّة في روسيا. حدثت أيضًا مجزرة في جنوب إفريقيا. وفي المقابل، تلوح في أفقي، حسب ما تقوله صحيفة الغلوب، الإبادة النّوويّة والتنورات القصيرة جدًّا والكثير من الأفلام الجديدة.

قريبًا من المنزل، اكتشفتُ أحوال الجوارب الحمراء[1]. وعلمتُ بمخطّطات اختفاء ميدان سكولاي، وهو اختفاء تمّ إنجازه بواسطة العمل المسترسل للآلات الثّقيلة. لقد كان هذا أمرًا تصعُب قراءته، خاصّة بالنّسبة إليّ. فهذه هي الحياة الوحيدة الّتي خبرتها دومًا. أين يمكنني أن أكون دون متجر الكتب ومسرح ريالتو؟ يمكنني القول أيضًا إنّ الأمر كان صعبًا بالنّسبة إلى نورمان كذلك، لأنّه ظلّ يتحدّث عنه كثيرًا. تحدّث عن الأمر مع آلفن سويت، صاحب متجر حلويّات سويت المجاور، ومع البدين الأصلع جوروج فاهراديان، مديرُ ما يريده مزيجًا من دكّان سلع مختلفة ومتجر سجّادات. يقع

(1) فريق كرة قدم أمريكيّة في بوسطن.

محلّه في الجهة المقابلة. واسمه «سجائر وسجّادات». تقول الصّحيفة في بعض الأيّام إنّ عمليّة الهدم وشيكة. وفي أيّام أخرى، تصرّح بكونه مجرّد مشروع قيد الدّرس. خلال الأيّام الممطرة حين لا يكون في متجر الكتب زبائن، يتّخذ مشروع الهدم هذا شكلَ تهديد صريح وحقيقيّ، إذ تتحلّق الرّؤوس الصّلعاء الثّلاثة حول مكتب نورمان وتحت المنطاد تمامًا. يشربون القهوة ويتحدّثون بتذمّر عمّا يوشك أن يحدث، ومتى سيحدث وماذا سيفعلون بحقّ الربّ بعد حدوثه. يملك آلفن انجذابًا كبيرًا إلى الكلمات البذيئة، بينما لا يقاوم جورج السّيجار الكبير. وهكذا، يقفان حول مكتب نورمان متحدّثيْن إليه، بينما تمتزج عبارات اللّامبالاة النّابية و«المؤخّرات من المرافق»[1] و«القذف» من فم آلفن بأدخنة سيجار جورج، وتطفو معًا صاعدة إلى السّقف، حيث تلتحمُ برائحة القهوة وعطر باريس. لم تفعل هذه المحادثات طبعًا أيّ شيءٍ لتنقذ الحيّ. وعادةً ما كانت تتركني أنا ونورمان في اكتئابٍ وضيقٍ شديديْن، حتّى إنّنا نرمي بنفسينا في العمل، نُخرج الكتب ونمسحها بقطعة قماش. كان نورمان هو الّذي يقوم بذلك طبعا. أمّا بالنّسبة إليّ، فإنّني أتمدّد على فراشي، وأعمل على قصيدتي الّتي سمّيتها «نشيد إلى اللّيل»، والّتي يقول مطلعها: «سلامًا أيّها الظّلام!».

لقد كان الحيّ عقبةً في مسار التّقدم، وقد كانت صحيفة الغلوب تصفه أحيانًا بـ«التّاريخيّ»، ولكنّها تشير إليه في الأغلب الأعمّ

(1) إشارة إلى عبارة شائعة تقول حرفيًا: «لا يميّز مؤخّرته من مرفقه». ومقابلها في الثّقافة العربيّة «لا يعرف كوعه من بوعه» أو «لا يعرف كوعه من كرسوعه».

بعبارة «الخرِب» وحتّى بـ«المصاب بالفئران»، وهو أمرٌ صحيحٌ لا يُمكنه نفيه. ولذلك أراد المُحافظ ومجلس المدينة التّخلّص منه وإماطته عن الطّريق. ويبدو أنّ أفضل طريقة لفعل ذلك تتمثّل في تسويته بالأرض، ومن ثمّ تغطيته بالإسمنت. نشرت الغلوب بعض الرّسومات الّتي تصوّر منظر بوسطن بعد الانتهاء من ذلك، متى ستبرُق مثل ميامي على امتداد مياه الميناء الرّماديّة. كانوا يخطّطون لاستبدال ميدان سكولاي بقطعة كبيرة مسطّحة من الخرسانة. وعلاوةً على ذلك، سوف يشيّدون، تخويفًا للنّاس، بنايات حكوميّة شبيهة بالقلاع والحصون. كان نورمان يتأمّل صور البنايات في الصّحيفة، ويكتفي بهزّ رأسه. وفوقه عند المنطاد، كنتُ أهزّ رأسي أيضًا.

يقتضي تدمير هذا الجزء الكبير من المدينة عملًا كثيرًا. كانت البنايات قديمةً، ذاتَ جذور عميقة، ورافضةً للرّحيل. ولهذا السّبب، راح المحافظ ومجلس المدينة يفتّشان عن الرّجل المناسب، والّذي ينبغي أن يكون شخصًا عليمًا بمصاعب إعمال الآلات الثّقيلة في البنايات القديمة جدًّا والشّوارع الضّيقة، وقد عثروا على إدوارد لوغ المُلقّب بـ«المُفجّر»، لأنّ ذلك ما كان يفعله في الحرب العالميّة الثّانية على متن قاذفة قنابل من طراز ب 24. لقد شارك إذن، بشكل شخصيّ، في أكبر مشروع تجديد حضريّ في التّاريخ الإنسانيّ. لقد أرسل إلى المحافظ ومجلس المدينة صورًا من شتوتغارت ودريسدن قائلًا: «يمكنني أن أفعل نفس الشّيء لميدان سكولاي». وهكذا تحصّل على الوظيفة. ثمّ نشروا صورةً كبيرةً له في الصّحيفة، وهو

يقف إلى جانب المحافظ. كانا يتصافحان. لكنّهما لم ينظرا إلى بعضهما، وإنّما ابتسما للكاميرا. كان لوغ الرّجل المناسب لهذه الكارثة. عندما رأيتُ صورته لأوّل مرّة، لم أمنع نفسي من تخيّله وهو يرتدي زيّ الفيرماخت[1]، ومن ثمّ قمتُ بترقيته لرتبةِ جنرالٍ. واستمرّت الحياة بعد ذلك. تركنَا عينًا على العمل وأخرى على الجنرال لوغ. ثمّ أخذَ الإحساسُ بالبؤس ينمو من حولنا مثل ضبابٍ مسموم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) بالألمانيّة Wehrmacht، وتعني «قوّة الدّفاع». وهو اسم القوّات المسلّحة الموحّدة لألمانيا بين 1935 و1945.

الفصل السّادس

كان متجر بيمبروك للكتب شهيرا جدًّا، إنّه واحدٌ من تلك الأماكن الّتي يزورها المشاهير من حينٍ إلى آخر. لقد سمعتُ نورمان يقول في أكثر من مرّة إنّ كينيدي، الّذي أصبح لاحقًا رئيسًا للولايات المتّحدة، كان يأتي من حينٍ إلى آخر عندما كان مُجرّد عضوٍ في الكونغرس ليشرب معه القهوة ويتبادلا الحديث. وكذلك تيد وليامز الّذي كان مدافعًا شهيرًا في فريق بوسطن للبيسبول. لم أكن مهتمًّا بهما في الحقيقة، ولكن كم تمنّيت أن أكون بالمتجر في المرّات الّتي توقّف فيها الكاتب المسرحيّ الشّهير آرثر ميلّر ليشتري نسخةً من مسرحيّته الخاصّة. سمعت نورمان يتباهى بذلك مرارًا وكم تمنّيتُ أن أكون هناك ساعتها. لقد ظللتُ راجيًا أن يعود مجدّدًا، أو أن يأتي كتّاب آخرون مثل جون شتاينبك، روبرت فروست أو حتّى غرايس ميتاليوس[1]. لقد كانوا جميعًا يعيشون في الأنحاء المجاورة. هناك أيضًا روبرت لويل[2] الّذي يسكن في عمارة عند زاوية الشّارع. ولكنّه لم يأت إلى المتجر مُطلقًا.

---

(1) كاتبة روائيّة أمريكيّة من أصول كنديّة فرنسيّة.

(2) شاعر أمريكيّ شهير يعتبر رائد التيّار الاعترافيّ.

زار كاتبٌ وحيدٌ المتجر خلال فترة وجودي. وقد خاب ظنّي فيه في البداية، إذ لم يكن مشهورًا في تلك الأيّام. ذات مرّة سمّاه آلفن بـ«الشّخص البوهيميّ» وهو يتحدّث إلى نورمان عند مُغادرته لمتجر الكتب. كنت ما أزال في مرحلتي البرجوازيّة. ولذلك، لم أحبّذ تسميته تلك. لقد وصفه نورمان كذلك بالرّوائيّ التّجريبيّ، وأظنّ أنّه كان يقصد المزاح على الأرجح. وفي أحيانٍ أخرى، يلقّبه بالسّكّير غريب الأطوار. يعيش هذا الكاتب فوق متجر الكتب. لم أكن أعرف ذلك. بل إنّي كنت أجهل أنّ هناك طوابق أخرى فوق المتجر. يمكن الوصول إلى مسكنه عبر بابٍ يقع بين *بيمبروك* و*قصر الوشم*، أسفلَ لافتة غرف. وقد كُتب في نصفه العلويّ على زجاج مجمّد وبحروف مُذهّبة تُشكّل نصف دائرة: *«الدّكتور ليبرمان، طبيب أسنان بلا أوجاع»*. عادة ما يتوقّف هذا الكاتب لزيارتنا عندما يكون في طريقه إلى أماكن أخرى، وهي أماكن بعيدة في أغلب الأحيان، مثل ميدان هارفارد في كامبريدج من الجهة الأخرى للنّهر. وهو يذهب إلى هناك بواسطة درّاجة قديمة جدًّا، ذات سلّة معدنيّة كبيرة في المقدّمة، مصدّات عجلاتها خضراء، وفي وسط مقودها زرّ صغير أبيض من أجل البوق. لا أعرف ما إذا كان البوق سليما. كان من عادته أن يترك الدّرّاجة مستندة إلى نافذة المتجر، رغم أنّ نرومان قد طلب منه مرارًا التوقّف عن فعل ذلك. لم أتمكّن بعدُ من الإعجاب بتلك العادة. لذلك كنتُ مُؤيّدًا لموقف نورمان، وربّما سببُ تأييدي له هو أنّي لم أشعر في البداية بكثيرٍ من الاحترام إزاء هذا الكاتب. لم يكن رجلًا شابًّا على الإطلاق. وقد

قلتُ في سرّي إنّ من الأفضل له أن يسرع إذا كان يريد أن يصبح مشهورًا. حسنًا، لقد كنتُ برجوازيًّا إلى هذه الدّرجة. كان الرّجل الوحيد الّذي رأيته بشعرٍ ينسدل على كتفيه، رماديًّا، رقيقًا ومثبّتًا في الأعلى بواسطة عصابة زرقاء مثل شعرِ هنديّ. وباستثناء ذلك، لم يكن هناك أيّ شيء في ملمحه يشبه الهنود. كان اسمه جيري ماغون. وقد كان رجلًا قصير القامة، بدينًا وذا رأسٍ كبيرٍ. له أنف أيرلنديّ صغير وشارب كثّ يغطّي فمًا واسعًا ذا شفاهٍ رقيقةٍ، وعينين زرقاوين تنحرف إحداهما بشكلٍ مسترسلٍ لتحدّق جانبًا. لم يكن في وسع النّاس التّيقّن بتاتًا ممّا إذا كان ينظر إليهم أم لا. وكان يرتدي دومًا نفس السّترة الزّرقاء المجعّدة وربطة العنق السّوداء. منحه ذلك مظهرًا متناقضًا على نحوٍ غريبٍ، كأنّه يريد أن يبدو أنيقًا ونظيفًا في نفس الوقتِ الّذي ينامُ فيه مرتديًا كلّ ملابسه.

وباستثناء السّترة وربطة العنق، كان يبدو مثل منقّبٍ عن الذّهب في إحدى أفلام الوستيرن الّتي تُعرض في قاعة ريالتو، حتّى إنّني ظلّلتُ أسمّيه المنقّب قبل أن أعرف اسمه الحقيقيّ. وبعد ذلك صرت ألقّبه بأذكى رجل في العالم. كان يأتي باطّراد خلال فترة إقامتي في المتجر. وهو واحد من أولئك الزّبائن الّذين يقضّون ساعات طوالًا بين الكتب، في القبو عادة حيث توجد أرخص الكتب. يسحب المجلّدات عن الرّفوف، يتصفّحها، ثمّ يعيدها إلى مكانها. وحين يجد كتابًا يعجبه حقًّا، فإنّه يقرؤه واقفًا هناك، من أوّله حتّى آخره. كان رجلًا عجوزًا إلى حدّ مّا، يظلّ يتمتم لنفسه أثناء القراءة وهو يهزّ رأسه الكبير. كُنت أخمّنُ أنّه ليس مستعجلًا،

ولم يبدُ على نورمان أيّ اعتراض على حضوره. لهذا السّبب قلت لنفسي بعد فترة إنّ نورمان يحبّ هذا الكاتب، وشرعتُ في حبّه أنا أيضًا.

كان يساعد نورمان أحيانًا في إفراغ الحمولة من العربة المليئة بالكتب، وقد دفع له ذات مرّة ليغسل واجهتها الزّجاجيّة. كان عمله جيّدًا على أيّةِ حالٍ. إنّه لا يشتري أيّ شيء في العادة (ومن الواضح أنّه فقير جدًّا) لكنّه غادر ذات يوم في بدايات الرّبيع، حاملًا حقيبة كبيرة مليئة بالكتب. لم أستطع أن أرى العناوين الّتي وضعها في حقيبته. لكنّني تمكّنتُ ليلتها من تحديد القائمة انطلاقًا من الفراغات على الرّفوف. كانت كلّها في الدّين والخيال العلميّ: كتاب بوبر[1] *طريق الإنسان: وفق تعاليم الحاسيديم*، *النّجوم مثل الغبار* لآزيموف[2]، *متاجر إيشر للأسلحة* لفان فوغت[3]، *التّاريخ وعلم آخر الزّمان* لبولتمان[4]، و*مواطن المجرّة* لهاينلاين[5]، وقد

---

(1) مارتن بوبر (1878–1965) فيلسوف وكاتب نمساويّ، من أشهر مؤلّفاته كتابه المخصّص لدراسة الحاسيديم، وهي حركة تجديد دينيّ في صلب الدّيانة اليهوديّة، تأسّست في أوروبا الشّرقيّة في القرن الثّامن عشر.

(2) آيزك آزيموف أو إسحاق عظيموف (1920–1992) كاتب أمريكيّ، روسّي الأصل وأستاذ كيمياء حيويّة في جامعة بوسطن.

(3) ألفريد إلتون فان فوغت (1912–2000) كاتب خيال علميّ كنديّ.

(4) رودولف بولتمان (1884–1976) لاهوتيّ ألمانيّ لوثريّ، أستاذ دراسات العهد الجديد طيلة عقود ثلاثة في جامعة ماربورغ. وترجمتنا لـ«علم آخر الزّمان» هي تجنّب لعبارة إسخاتولوجيا الحرفيّة، والّتي تشير إلى مدوّنة تقع بين منزلتي اللّاهوت والفلسفة، وتهتمّ بما يمكن أن يكون أحداث آخر الزّمان أو نهاية العالم.

(5) روبرت أنسون هاينلاين (1907–1988) كاتب خيال علميّ أمريكيّ.

كانت الأعمال الّتي اختارها من بين أعمالي المُفضّلة. في زيارةٍ لاحقة غادر الكاتب الفقير محمّلًا بجميع كتب الحشرات الّتي نملكها، فسأله نورمان وهو يعبّئها عمّا كان بصدد الاشتغال عليه. وكدتُ أسقط من المنطاد عندما سمعت إجابته:

«أعمل على روايةٍ جديدةٍ، بطلها فأر، فأر حقيقيّ ذو فرو. سوف يكرهون هذا العمل حقًّا».

«هل هو تتمّة لما سبق؟». سأله نورمان ضاحكًا.

فأجابه جيري: «لا، إنّه مختلف تمامًا. فقد سئمتُ تلك الأشياء الواضحة. على المرء أن يتقدّم دومًا، مثلما تعرف، كأنّه سمكة قرش؛ إذا توقّفَتْ غرقَت».

ويبدو أنّ نورمان كان يعرف ذلك حقًّا، لأنّه اكتفى بهزّ رأسه وقدّم لجيري كتبه.

ومنذ تلك اللّحظة، صرتُ أرتمي داخل كلّ دفعة كتبٍ جديدةٍ تأتي إلى المتجر بحثًا عن رواية جيري ماغون. المعجزات تحدث، أليس كذلك؟ أنا متيقّن من هذا الأمر. وفي الحقيقة، إنّني أعترف بذلك كلّما عدتُ من الميدان إلى البيت سالمًا، فأنا أُطلق، في الاتّجاه العامّ للسّماوات، تنهيدةَ شكرٍ لمعجزةٍ أخرى مكّنتني من النجاة. وقد اعترفتُ بذلك مجدّدًا في اللّيلة الّتي وضعتُ فيها كفّيّ على الرّواية. كانت مائتين وسبعًا وعشرين صفحة مصفرّة تشكّل كتاب جيبٍ ذا طبعةٍ رخيصةٍ. وعلى الغلاف تظهر مدينة نيويورك غارقةً في اللّهب على خلفيّةٍ صفراء بلون الكناري، بينما يلوحُ فوق خطّ

الأفق الملتهب، جرذٌ هائلُ الحجم بعينين حمراوين وأنيابٍ تقطر دمًا، إنّه جرذٌ أكبرُ من مبنى إمباير ستايْت[1]. كان العنوان مكتوبًا أعلى صفحة الغلاف ببقع حمراء بلون الدّم: *العشّ*. وفي الأسفل: *إ. ج. ماغون*، بحروفٍ صدمني صغرها المهين. اكتشفتُ بعد قراءة الكتاب أنّ الجماعة في منشورات آسترل، الّتي نشرت الكتاب سنة 1950، كانوا موهوبين في ما يتعلّق بالمبالغة. إذ لم يكن في الكتاب أيّ جرذ عملاق، رغم أنّه يتضمّن في نهايته الكثير من المدن المحترقة.

طيلة قرن سابق لعصرنا الحاليّ، ظلّ السّكّان اللّطفاء خارقو الذّكاء في كوكب آكسي 12، الموجود في أقصى نقطة من مجرّتنا، يرسلون مجسّات روبوتيّة لدراسة كوكب الأرض، وهو الكوكب الوحيد في المجرّة، بالإضافة إلى كوكبهم، الّذي يحتوي على أشكال حياةٍ متطوّرةٍ. جمّعت المجسّات كمّيّةً هائلةً من المعلومات الّتي تخصّ الأرض ومخلوقاتها. ورغم معرفتهم المسبقة بصُعوبة الأمر، كان الآكسيّون يعتقدون أنّ الأوان قد حان للبدء في عمليّة تواصل فعليّ مع بني الأرض. صحيحٌ أنّهم كانوا أكثر تطوّرًا في ما يخصّ الأخلاق والفكر، ولكنّ منظرهم لسوء الحظّ (من وجهة نظر أرضيّة) يشبه البزاق[2]، وهم بحجم أقزام الأحصنة في جزر شتلاند[3]. ولأنّهم

(1) ناطحة سحاب شهيرة في مدينة نيويورك بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، متكوّنة من 102 طابق.

(2) جنس حلزون لا صَدَفَة له، سمّي كذلك لأنّه يفرز في سيره لعابًا لامعًا.

(3) المقصود بالفرس أو الحصان القزم، فصيلة من الأحصنة لها شكل ومزاج مخصوص. وفيها أنواع فرعيّة، من بينها النّوع المشار إليه هنا والمنتسب إلى مكان وجوده، وهو جزيرة شتلاند.

أذكياء جدًّا، فقد كانوا يحدسون أنّ مظهرهم ذاك سيمنح الأرضيّين أفكارًا خاطئة حول حسّهم الأخلاقيّ وذكائهم، بل إنّه من الممكن حتّى أن يرفض سكّان الأرض مصادقة حلازين عارية بحجم أحصنة قصيرة. لحسن الحظّ أنّ هذه الكائنات المتفوّقة الشّبيهة بالحلازين العارية تملك تقنيات متطوّرة في التّحوّل البروتوبلازميّ[1]. وقد قرّرت أن ترسل بعثةً استكشافيّةً إلى الأرض، متكوّنة من عشرات الآكسيّين الّذين كانوا قد تحوّلوا من قبل إلى شكل الفصيلة المهيمنة على الأرض. وبالإضافة إلى ذلك، تمّ إرسالهم رضّعًا، كي يتعلّموا بشكلٍ تامّ لغة الأرضيّين وعاداتهم قبل أن يشرعوا في التّواصل معهم. وهكذا، يكونون متحوّلين فضائيّين، تربّيهم أمّهات من الأرضِ كما لو كانوا أبناءهنّ، دون علم بأيّ شيء. ومن هنا جاء عنوان الكتاب. وحين يبلغ هؤلاء سنّ الرّشد، سيكونون متحكّمين في محيطهم، متملّكين للغة الأرض وعاداتها، ولهم أصدقاء وشبكة معارف، وعائلة وأقارب أيضًا، أي في المكان المناسب على نحو مثاليّ للخدمة بصفتهم وسطاء بين بني الأرض والآكسيّين.

بدا ذلك مخطّطا جيّدًا ومحكمًا. ولكن للأسف، رغم عقودٍ من التّجسّس المداريّ والتّحاليل، فإنّ المجسّات الرّوبوتيّة التّابعة للآكسيّين قد اقترفت خطأً فادحًا يتمثّل في كونها قد استنتجت، خلافًا للصّواب، أنّ الفصيلة المهيمنة في الأرض هي الجرذ

(1) نسبة إلى البروتوبلازم، وهو التّركيب الّذي يملك القدرة على القيام بعمليّات الأيض، وهو الأساس الحيويّ للكائن الحيّ.

النّرويجيّ[1]. ونتيجةً لهذا، استقبلت أعشاش عشرات الإناث من الجرذان عددًا مُتساويًا من الآكسيّين المتحوّلين بروتوبلازميًّا، الّذين لا يمكن تمييزهم عن النّسل الطّبيعيّ. اكتشف الأبناء الآكسيّون الخطأ سريعًا. ومع ذلك، فإنّ البدلاء الحائرين الخاضعين لقيادة آلياك المندفع قد حاولوا ببسالة أن يتابعوا مهمّة خلق تواصلٍ مع الفصيلة المهيمنة الّتي تبيّن أنّها البشر. في ما تبقّى من الكتاب يوجد وصفٌ مفصّلٌ لموتهم الشّنيع على يد هذه الفصيلة الّتي لا ترحم، فيما قام الجرذان الحقيقيّون، الّذين كانوا يحسبون الآكسيّين بني جلدتهم، بتضحيات نبيلة في محاولة إنقاذهم. وفي كلّ مرّة يُقتل فيها واحد من الآكسيّين، يُنقل مشهد قتله مباشرةً عبر المجرّة إلى آكسي 12 بواسطة التّخاطر. ومن شدّة فظاعة الصّور الّتي وصلت، شعر الآكسيّون المسالمون والرّاقون أخلاقيًّا بالحنق والغضب الشّديد، ورغم أنّ مركباتهم الفضائيّة قد احتاجت إلى بضع سنوات لكي تصل إلى الأرض، إلّا أنّهم قرّروا تحويلها على الفور إلى كراتٍ ناريّةٍ. ولهذا السّبب، ظهرت المدن المحترقة على غلاف الكتاب. وفي الخاتمة الّتي توافق سنة 1985، يهلك جميع البشر والحيوانات الكبيرة آكلة اللّحوم، بينما يسود الجرذُ النّرويجيّ بلا منازعٍ على القشرة المحترقة للكوكب المدمّر.

أغلقت *العشّ* وجلست عليه. كنتُ على وشك البكاء. وإلى جانب اسم جيري، دوّنتُ الكلمات التّالية: *توأم الرّوح وعزلة*. لقد

(1) أو الجرذ البنّيّ، وهو قارض من الفصيلة الفأريّة، وأحد أكثر الجرذان انتشارًا.

فهمتُ الآن أنّه كان في حاجةٍ إلى السّلّة المعدنيّة في مقدّمة الدّرّاجة كي يحمل يأسهُ الهائل، وأنّ عينهُ المنحرفة جانبًا تحدّق في عدم الحياة البشريّة الفارغ ومُطلق الزّمان والمكان، عدمٌ ومطلقٌ صَهَرهما في كتابه ضمن ما سمّاه *الفراغ العظيم*. ويمكنك أيضًا أن تتخيّل أيّ دفعٍ قدّمته الرّواية لاعتزازي بنفسي. لا مزيد من المستنقعات في الغابة. لا مزيد من الحركات والكلمات الّتي لا معنى لها. لقد صار لديّ قصّة جديدة تمامًا. يمكنني الآن أن أضيف عبارة *كائن فضائيّ* إلى الملصقات الّتي تتضمّن عبارات: *شاذّ، غريب الأطوار وعبقريّ غير طبيعيّ*. في اللّيالي الموحشة، تساعدني كثيرًا قدرتي على النّظر إلى النّجوم في الأعلى، خصوصًا بعد أن صرتُ لا أعتبرها مجرّد رقائق جليد محترق في الفراغ العظيم، وإنّما أضواء نوافذ البيت. للأسف، لا يُمنح المرء لأنّه كائنٌ فضائيٌّ أيّ امتيازٍ عمليٍّ من مزايا الثّراء أو الشّهرة، ولا يرفع ذلك من احتمال أن يمرّ يومك دون أن تنزل مصيبة على رأسك. وعلى أيّ حال، أنا لم أصدّق مُطلقًا هذه الحكاية.

أثناء ساعات العمل، حين لا أكون نائمًا أو معلّقًا في المنطاد، يمكنك أن تجدني في الشّرفة. ولا شيء يحدث تحتي في المتجر يفلت من رقابتي. كلّما ظفر نورمان بعمليّة بيعٍ مربحةٍ جدًّا، وراح يسجّلها على مسجّلة النّقد العتيقة المزخرفة المنصوبة على منضدةٍ جانب الباب، صفّقتُ بقوّة، وصرختُ في صمتي: «أحسنت نورم!». كانت تلك *هتافاتٍ من هامش الحياة*. مكتبة .. سُر مَن قرأ

كان *بيمبروك* متجرًا كبيرًا، متكوّنًا من أربع غرفٍ مليئةٍ بالكتب،

دون حساب القبو. وكان نورم يعرفها جيّدًا كما يعرف كفّه. لكنّه رغم ذلك معرّضٌ للخطإ، وقد يحدث أن يفتّش عن كتاب مّا دون أن يجده. إنّه يشنّ هجومًا مطوّلًا، ثمّ يعود خاوي اليدين. من المؤلم حقًّا مشاهدة هذا الأمر حين يحدث. أتذكّر مرّة بعينها، كان يبحث فيها عن كتابٍ رقيقٍ اسمه *أنشودة المقهى الحزين*[1]. كانت السّيّدة الّتي جاءت في طلب الكتاب قزمةً، امرأة شابّة ترتدي معطفًا كبيرًا من وبر الجمال كأنّه خيمة هنديّة. وكان لشدّة طوله ينجرّ من خلفها على الأرضيّة، حتّى إنّ حافّته السّفلى قد تلطّخت بالوحل. ظلّت تتسكّع بين الأروقة لفترةٍ من الزّمن، وهي تتصفّح كتبًا مختلفة، رغم أنّني أعتقد أنّها كانت تستجمع شجاعتها كي تتكلّم. وما إن تلفّظت بسؤالها -إذا جاز لي أن أسمّي همستها الخجول تلفّظًا- حتّى انتصب نورمان على كعبيه، وسار في ثقةٍ متّجهًا نحو الرّفوف المخصّصة لكتب الجيب، ذراعاه ممدودتان أمامه، كفّاه مفتوحتان، وأصابعه الغليظة مُفرجة، علامةً على متعةٍ مرتقبةٍ. يكاد المرء أن يتخيّل الكتاب قافزًا من الرّفّ إلى يديه. ولكن، لن يحدث ذلك في هذه المرّة. ففي هذه المرّة بالّذات فشل نظام التّصنيف الّذي يديره دماغ نورمان في أداء مهامّه. ويكاد المرء أن يسمع صريرًا في رأسه، ينجم عن جهازه المضطرب. لم يقفز أيّ كتاب. ولم تمسك أصابعه بشيءٍ. شاهدتُ ذلك في قلقٍ متزايدٍ، بينما يفتّش هو أعلى الرّفّ

---

(1) رواية وجيزة أو نوفيلاّ للكاتبة الأمريكيّة الشّهيرة كارسن ماكالرز (1917-1967)، صدرت مترجمة سنة 2017 عن دار مسكلياني، ترجمة علي المجنوني.

وأسفله، حيث من المفترض أن يوجد الكتاب، ينقر بسبّابته صفوف الكتب كأنّه يحصيها، وفي توتّرٍ واضحٌ يمرّ إلى فحص الرّفوف في الأعلى وفي الأسفل، تتدرّج حركاته من الثّقة النّاعمة إلى التّشنّج والاضطراب. وعندما صار من الواضح للجميع أنّ الكتاب ليس هناك، غير موجود على نحوٍ مؤلمٍ وصريحٍ، تراخت كتفاهُ إعلانًا للهزيمة.

«حسنًا، حسبت أنّنا نملك نسخةً منه. لكنّني مخطئ في ما يبدو. أنا آسف حقًّا».

قال ذلك للأرضيّة الّتي تجانب قدميه، عاجزًا عن النّظر في عيني السّيّدة الّتي خاب ظنّها. بدا أنّه منزعجٌ بشكلٍ فظيعٍ، ويمكنني القول أيضًا إنّه قد أزعج القزمة الّتي ندمت دون شكٍّ على سؤالها. آه، كم رغبتُ في الخروج من جحري لأصرخ أمامه: «ها هو ذا، يا سيّد شاين». -سأكون حذرًا على الأرجح من أن أناديه السّيّد شاين في وجهه- «إنّه عندي هنا. لقد انزلق إلى كتب الطّبخ». سوف يتلعثم مندهشًا: «ولـ... ولكن، كيف عرفت ذلك؟». فأجيبه حينئذ: «كتب بيمبروك أكبر من مجرّد عملٍ بالنّسبة إليّ. إنّها بيتي». وسوف يغمره الإعجاب ساعتها، بل إنّه سوف يتأثّر أيضًا. وسوف يكون ذلك بمثابة بدايةٍ فحسب. ففي أحلامي، يأخذني نورمان عاملًا عنده ومتعلّمًا على يديه. وبسرعة، «أتدرّج في المراتب» حتّى أصير المسؤول على المتجر. كنتُ أرتدي نظّارات شمسيّة واقية ذات لون أخضر. كم أحببت مظهري في تلك النّظّارات، جالسًا إلى

المكتب الرّئيسيّ إلى حدود وقتٍ متأخّر من اللّيل، وأنا أتثبّت من الوثائق. كنت أحسب نفسي جيمّي ستيوارت في *إنّها حياة رائعة*[1].

كانت أخبار العالم الخارجيّ سيّئةً. فوفق ما تقولهُ صحيفة الغلوب، سلّم الجنرال لوغ مخطّطات معركته الأخيرة لمجلس المدينة. واصل بعض محامي العائلات المتضرّرة غربَ الميدان صراعهم. لكنّ قضيّتهم ميؤوس منها تمامًا. وفي شهر يونيو، منح المجلس موافقته رسميًّا: ستبدأ أشغال الهدم في غضون أشهر قليلة. هناك كيلومترات مكعّبة من الآلات الثّقيلة المشحّمة، تقف عند أبواب المدينة، متأهّبة للهجوم. وما إن أعلن المجلس قرارهُ بشكلٍ رسميٍّ، حتّى راحت البنايات تحترق ليلةً بعد أخرى، بلا توقّفٍ. كان الملّاك يصارعون لتقليص خساراتهم بأيّ طريقةٍ، وقد مرّت اللّيالي، يجلدها عواء صفّارات الإنذار. يحدث أحيانًا أن يصبح التنفّس في الشّوارع مشقّةً كبرى، لكثافة الدّخان المتصاعد. ظللتُ أعمل على قصيدتي «نشيد إلى اللّيل». وكنت أتعامل معها بصفتها «نشيده إلى اللّيل». فقد ظلّ نورمان يبيع الكتب، حتّى والمتجر يحتضر. أحسب أنّه هو الآخر شبيهٌ بسمك القرش، إذ كان يخشى الغرق إذا ما توقّف عن الحركة.

لطالما كنتُ شخصًا حالمًا. وبالنّظر إلى وضعي الخاصّ، لم يكن لديّ أيّ خيارٍ آخر. ولكنّني أعرف أيضًا كيف أضع أربع أقدام

---

(1) شريط سينمائيّ أمريكيّ شهير، اقتبس عن قصّة قصيرة لفيليب فان دورين ستيرن، عنوانها «الهديّة العظمى».

على الأرض إذا اقتضى الأمر. ثمّ إنّني كنتُ أشعر بالذّنب، غارقًا في رذاذ الواقع، لأنّني لم أستطع أن أفعل أيّ شيء لأساعد نورمان. *الشّعور بالعجز وجذور الاكتئاب لدى الذّكور*. وهكذا، شرعتُ في حمل هدايا صغيرة معي إلى البيت. ذات ليلة، وأنا أختلس بعض الفشار في أرضيّة ريالتو، عثرتُ على خاتم ذهبيّ في شكل ثعبانين متشابكين. وفي أعلى الخاتم، يتمدّد الرّأسان المتقابلان جنبًا إلى جنب. وفيهما عينان من زمرّد. ورغم أنّه كان بإمكاني أن أضع الخاتم حيث يمكن للمنظّفة أن تعثر عليه، فإنّني امتنعت عن فعل ذلك. في الحقيقة، لقد سرقته دون أدنى تأنيبٍ للضّمير. لقد اكتشفتُ منذ زمنٍ بعيدٍ كتلةً مستطيلةً على جمجمتي، تكاد تكون تلّةً صغيرةً. وهي على حدّ تصوّر هانس فوكس، أوّل رجل قام بتوظيف علوم غال في سياقٍ عمليٍّ يتمثّل في الأبحاث البوليسيّة، علامةٌ أكيدة على «ميولٍ إجراميّةٍ» و«انحطاطٍ أخلاقيٍّ». وفي الواقع باستثناء أنّني غير مؤهّل بشكل واضح، فإنّني أناسب تمامًا مقولة فوكس في «الوحش البشريّ»، وهي أدنى مراتب المجرمين. كنتُ أعرف أن لا معنى في إقحام ضميري في معركة مآلها الخسارة المحتومة، وكما قلتُ سلفًا، يمكنني أن أصبح شخصًا عمليًّا حين يقتضي الأمر ذلك. ولذلك، حملتُ الخاتم معي، ووضعته على مكتب نورمان حذو فنجان قهوته. وهناك وجده في الصّباح التّالي. أمسكه بين الإبهام والسّبّابة، وتفحّصه لفترة طويلة، حتّى إنّه جرّبه أخيرا، مثبّتًا يده أمامه، وهو يقلبها من جهةٍ إلى أخرى كما تفعل النّساء. ثمّ وضعه في درج المكتب. لقد ظنّ أنّ أحد الزّبائن قد فقده

على الأرجح. ولذلك، توقّعتُ منه أن يمسك ورقةً، ويكتب عليها: *خاتم مفقود/ الرّجاء الاتّصال بالإدارة*. ولكنّه لم يفعل. وبعد أسبوعٍ، رأيت الخاتم في إصبعه.

مرّةً أخرى، حين كنتُ متسلّلًا في طريق عودتي من ريالتو إلى البيت قبل الفجر، مررتُ برجلٍ وامرأةٍ يتخاصمان في شارع كامبريدج الّذي كان خاليًا من النّاس ما عداهما. كانت الفتاة ساخطةً حقًّا وهي تصرخ: «أيّها المأبون، أيّها المأبون اللّعين!». ظلّت تُكرّر ذلك بلا هوادةٍ، وتدقّ الأرض بقدمهَا في كلّ مرّةٍ تقول فيها كلمة»مأبون» كأنّها تحصي عدد المرّات الّتي تستطيع قولها فيها على التّوالي. أمّا الرّجل فقد كان يترنّح وهو يحاول أن يمسكها من كتفيها، ولكنّها ظلّت تدفعه بقوّةٍ بعيدًا عنها. كانت طريقته في التّرنّح تشي بكونه قد أفرط في الشّرب، وكانت هي ترتدي حذاءً فضّيًّا بكعبٍ عالٍ جدًّا ذكّرني بحسناواتي وجعلني أتأسّف لحالها. كنتُ أساندها بكلّ جوارحي. ولكن فيمَ يفيدها ذلك؟ لا شيء. لِمَ يَجدر بفتاةٍ جميلةٍ مثلها أن تهتمّ بجرذٍ صغيرٍ رثّ يقفُ في صفّها؟ كانت تحمل باقة ورود صفراء كبيرة في يدها. ومع صراخها بكلمة مأبون للمرّة الخامسة عشر، صفعته بالباقة في وجهه، فتطاير الورد منها في كلّ اتّجاهٍ. ثمّ راحت تركض عبر الشّارع وقفزت إلى الميترو. صرختُ في صمتي: «خُذها أيّها الحقير!». وقف الرّجل هناك لوهلةٍ، وسط كلّ تلك الورود المُبعثرة الشّبيهة بألسنة لهبٍ صفراء على الرّصيف، مُتمايلًا بشكلٍ طفيفٍ كأنّه تحت تأثير نسيم عليل. ثمّ أخذ يدوسها بقوّةٍ ويسحقها إزاء حجارة الرّصيف بحركةٍ من

طرف حذائه، وفي هذه اللّحظة انعكست حَركة التواءٍ على صفحة فمه، لقد بدت حركاته شبيهةً بحركاتِ الفتاة، ولكنّ الفرق يكمن في أنّها تدقّ الأرض بقدمها، أمّا هو، فيسحق. لمْ يُفلت أيّ واحدةٍ من الورود، ثمّ مشا ببطء مبتعدًا عبر الشّارع. انتظرت قليلًا حتّى أتأكّد من أنّه لن يعود، ثمّ جثوتُ والتقطتُ واحدةً، تلك الّتي بدت لي أقلّ تضرّرًا، وحملتها معي إلى البيت، حيث سويّتُها في أفضل صورةٍ ممكنةٍ. كان موعد الفتح وشيكًا عندما توصّلت إلى وضعها على فنجان القهوة الفارغ على مكتب نورمان. وددت لو سكبت فيه شيئًا من الماء أيضًا. ولكن، لا قدرةَ لي على فعل ذلك.

عندما رأيت ردّة فعل نورمان، خطر ببالي أنّني قد تماديت على الأرجح. بدا الفزع واضحًا على ملامحه، فقد حدّق مليًّا في الوردة الصّفراء داخل فنجانه، واتّسعت عيناه تمامًا، ثمّ نظر في كلّ مكان من حوله، بما في ذلك أسفل المكتب، كأنّه خائف من أن ينقضّ عليه شخص مّا. أخرج الوردة من الفنجان، ووضعها على سطح المكتب، وظلّ ينظرُ إليها من حينٍ إلى آخر طيلة الصّباح، كأنّه يتوقّع منها أن تفعل فجأةً شيئًا مّا كي تشرح سبب وجودها هناك. وبعد الغداء، ألقى بها في حاوية القمامة. لقد انقلبت هديّتي إلى ضدّها، وفشلت. وبدلًا من إراحتي نورمان، قدّمت له سببًا إضافيًّا ليشعر بالقلق. كنت متأسّفًا لذلك، ممّا جعلني أحجم عن إهدائه أيّ شيءٍ آخر بعد تلك المرّة.

لم أكن سليم الذّهن قطّ. ومع ذلك، لستُ مجنونًا. حسنًا، يمكنك

أن ترفع حاجبًا، بل كليهما إذا شئت. ولكنّ الحقيقة تظلّ مثلما هي؛ إنّ أحلام اليقظة والحيل شيء، أمّا الجنون فشيء آخر تمامًا. إضافةً إلى ذلك، أنا لستُ واحدًا من تلك الكائنات الّتي بإمكانها أن تُجنّ دون أن تعي ذلك. هناك الكثير من النّاس في حالٍ أسوأ منّي. وأنا أصرّح بهذا الأمر بالاستناد إلى سلطة مرجعيّة مثل الدّكتور إردمان، مؤلّف *الذّات بصفتها آخر*. في ذاك الكتاب، يسرد إردمان قصصًا حقيقيّةً عن أناسٍ موغلين في البدانة، يمكنهم أن يقفوا أمام مرآة فيروا صور أنفسهم أرقّ من عارضة أزياء باريسيّة، وآخرين مصابين بالهزال، يقفون أمام المرآة فيرون صورًا بدينة منتفخة تفيض لحمًا وشحمًا. وذلك حقًّا ما يرونه بأعينهم. وفي هذه الحالة، نحن نتحدّث حقًّا عن مجانين. أمّا بالنّسبة إليّ، فلا مشكلة تتعلّق بالمرآة. إذ لم يحدث أن رأيت فيها أحدًا غيرَ الجرذ البائس الفاقد للذّقن. ولكنّها كامنة في صورتي الأخرى، البعيدة عن المرآة، تلك الّتي أراها عندما أتمدّد على ظهري، ناظرًا إلى أصابع قدميّ ومحدّثًا نفسي بجميع الحكايات الرّائعة، عندما أنغمس في ما أسمّيه أحلام اليقظة، مُستقدمًا تلك الأشياء الفاقدة للمعنى في الحياة فأمنحها بدايةً ووسطًا ونهايةً. تتضمّن أحلامي كلّ شيء، كلّ شيء ما عدا ذلك الوحش الصّغير الّذي يظهر في المرآة. عندما أحلم تتشكّل بذهني جملٌ من قبيل «تلاشت الموسيقى، وفي خضمّ الصّمت المُطبق حطّت كلّ العيون على فرمين الّذي وقف منعزلًا وثابتًا في مدخل قاعة الرّقص.» في أحلامي، أرى جرذًا ضئيلًا فاقد الذّقن في مدخلِ قاعة الرّقص. كان الأمر ليُؤثّر بشكلٍ مختلفٍ تمامًا لو كان كذلك. في الحقيقة، أرى دومًا

شخصًا يشبه فراد أستير إلى حدٍّ بعيدٍ، ذا خصرٍ نحيفٍ، ورجلين طويلين وذقنٍ يشبه مقدّمةَ حذاءٍ طويلٍ. وأحيانًا، أرتدي ملابس من ذلك النّمط الّذي يميّز فراد أستير. في هذا المشهد تحديدًا، ألبس سترةً ذات ذيل ونصف جراميق وقبّعة عالية. أضع ساقا على كاحل السّاق الأخرى. وأستند مسترخيًا إلى عكّاز ذي مقبضٍ فضّيٍّ. قل لي رجاءً، أليس من الصّعب أن تحافظ على حاجبيك في تلك الهيئة؟ أحيانًا، عندما أمرّ بنورمان لأشرب فنجان قهوةٍ معه، أرتدي سترةً من صوفٍ محبوكٍ وحذاءً جلديًّا بلا كعبٍ. أتّمدّد في الكرسيّ. وأضع قدميّ على المكتب. ثمّ نشرع في الحديث عن الكتب والنّساء والبيسبول. لقد علّقتُ إلى جانب تلك الصّورة هذه العبارة: *مُحاوِرٌ عظيمٌ*. وأحيانًا أخرى، وأنا ما أزال شبيهًا بأستير إلى حدٍّ بعيدٍ -لكنّني في هيئةِ فاجرٍ مصابٍ بالضّجر والسّأم، تطلُّ من بين شفتيه سيجارةُ لاكي سترايْكْ مثلَ رجلٍ فرنسيٍّ-أكون غاضبًا جدًّا، وأنا أضغط بقوّة اليأس أزرارَ ريمنغتون[1] قديمة. كم أحبّ ذلك الصّوت الّذي يصدره الحامل عندما أقتلع ورقةً، وأشحن أخرى في كنف الغضب. يمكنني أن أواصل طويلًا على هذا النّحو، أحدّثك عن طرقات الباب، وعن طريقةِ دخول جنجر إلى الغرفة في خجلٍ، وهي تحمل شطيرة جبنة أعدّتها بنفسها من أجلي، وعن تلك النّظرة في عينيها. يمكنني حتّى أن أخبرك بما هو مكتوب على الصّفحات المكوّمة إلى جانب آلة الكتابة.

(1) نوع شهير من الآلات الكاتبة.

هناك مقطع في *شبح الأوبيرا*[1] يقول فيه الشّبح، وهو عبقريٌّ عظيمٌ يعيش مختفيًا عن الأنظار بسبب قبحه الشّديد، إنّ أكثر ما يريده في هذا العالم، هو ببساطةٍ أن يتمشّى مساءً في الشّوارع الواسعة، رفقة امرأة جميلة تستند إلى ذراعه، كأنّه برجوازيّ عاديّ. بالنّسبة إليّ، هذا واحدٌ من أكثر المقاطع تأثيرًا في تاريخ الأدب، رغم أنّ غاستون لورو لم يكن كاتبًا عظيمًا.

(1) رواية فرنسيّة، ألّفها غاستون لورو. ونشرت سنة 1910. ثمّ تمّ اقتباسها في المسرح والسّينما والموسيقى والتّلفزيون والقصص المصوّرة.

الفصل السّابع

تأتي الصّحيفة كلّ أسبوعٍ بمزيدٍ من الأخبار الكئيبة الّتي تخصّ ما يُسمّى تجديد ميدان سكولاي. لقد أغلقت متاجر كثيرة أبوابها بعد تصفيتها لمخزونها من السّلع. وها هي الآن تنتصب مظلمةً وخاويةً خلف ألواح رقائق الخشب، بينما أُحرقت بعض المتاجر الأخرى بكلّ بساطة، وسُويّت بالأرض. لم يتزحزح نورمان من مكانه على الرّغم من كلّ ذلك. مازلنا نمرّ بأيّام جميلة وإن كانت لا تشبه تلك الخوالي، هناكٌ عدد أقلّ من الزّبائن حتّى في أفضل الأيّام. أمّا في الأيّام الممطرة، فإنّ نورمان لم يعد يُكلّف نفسه حتّى عناء إخراج ريشة الغبار. وكنتُ من حينٍ إلى آخر، أرى الحرفاء ينفضون الغبار عن الكتب قبل أن يفتحوها. لكنّ نورمان لا يلاحظ ذلك. لقد استمرّ في كدحه. لكنّ قلبه في مكان آخر.

أنا أيضًا كنتُ أكدحُ. فمع تباطؤ وتيرة العمل في الأسفل، صار لديّ المزيد من الوقت لأشتغل على بنية أحلامي. كانت أحلامًا هائلةً شبيهةً بالرّوايات. وقد أقضّي في بعض الأحيان أيّامًا كاملةً في مشهدٍ واحدٍ فقط. قد يتعلّق الأمر بنزهةٍ على شاطئ رفير، أو بصيف 1929 عندما كانت البورصة على وشك الانهيار. كُنت أعتني بكلّ

ما يتعلّق بتأثيث هذه الأحلام؛ ماذا يرتدي شخوصُها؟ أيّ نوع من الأحذية؟ أيّ نوع من الملابس الدّاخليّة؟ كيف يسرّحون شعورهم؟ وما هو شكل سيّاراتهم؟ هل مقاعدهم مريحة؟ ماهو سعر البنزين؟ هل جلبوا معهم كتابًا؟ممَّ تُعدّ الشّطائر؟ وفيمَ تُلفّ؟ أيّ نوع من السّجائر يدخّنون؟ وماذا عن المشروبات الغازيّة؟ أيّ نوع من الطّيور، ذاك الّذي يغنّي؟ ما الّذي تخفيه تلك الشّجرة؟ أصبح تحديد كلّ هذه المسائل أمرًا يسيرًا جدًّا بالنّسبة إليّ. لقد حلمتُ بطريقي، وصولًا إلى أشياء بعيدة جدًّا، مثل سلالة تانغ الحاكمة في الصّين[1] وماتشو بيتشو[2] والطّابق الثّالث والسّبعين من مبنى الإمباير ستايت.

ذات ليلةٍ، وفي وقتٍ متأخّرٍ، كنتُ مشغولًا في حلمٍ أكون فيه شاعرًا فرنسيًّا مجنونًا. لقد فقدتُ -أنا أو هُو أو فراد أستيرْ. الفرقُ ليس مهمًّا- ساقي، أثناء محاربتي في صفوف كومونة باريس. ثمّ صار مجنونًا بعدَ سنواتِ الألم والأفستين[3] الطّوال -صرتُ بالأحرى أو صرنا- يحدث المشهد الّذي يشغلني في ليلةٍ ماطرةٍ، إذ نراه في شارعٍ باريسيٍّ ضيّقٍ، يدقّ بقبضته على الباب الأماميّ لمنزل الممثّلة العظيمة

(1) إحدى السّلالات الحاكمة في الصّين بين 618 و907، سبقتها سلالة سوي (618-581) وتلتها مرحلة السّلالات الخمس والممالك العشر (907-979).

(2) مدينة ماتشو بيتشو أو القلعة الضّائعة. يعني اسم المدينة باللّغة الإنكيّة «قمّة الجبل القديمة». بنيت المدينة من قبل شعب الإنكا في القرن الخامس عشر. وهي تقع في كوزكو في البيرو، بين جبلين من سلسلة جبال الأنديز، على ارتفاع 2340 مترًا فوق سطح البحر.

(3) واحد من المشروبات المقطّرة والكحوليّة بدرجة عالية. له نكهة اليانسون. وهو مستمدّ من الأعشاب الطّبّيّة.

سارة برنار[1]، ويمسك في يده الأخرى شذرات من قصيدته المجنونة العظيمة «نشيد إلى اللّيل»، ملفوفة في قماشٍ زيتيٍّ لحمايتها من المطر. كنتُ في القبو، بصدد القراءة عن سارة برنار في موسوعة بريتانيكا[2]، حين فاجأني صوتُ انفتاح باب المتجر. غصتُ في ثقب الأجداد وزحفتُ في ظلمة المتاهة، حتّى أدركتُ الشّرفة في اللّحظة الّتي علّق فيها نورمان معطفه المطريّ. إنّها تمطر في بوسطن كذلك إذَن. لم يحدث أن عاد من قبل إلى المتجر بعد إغلاقه. ولذلك تتبّعته بعينين قلقتين، وهو يمشي بين الأروقة، كأنّه يكتشفها للمرّة الأولى. ثمّ جلس في كرسيّه المعتاد، على وسادته الحمراء المألوفة. وبسط يديه على سطح المكتب. واسترسل في البكاء. لم يطلق أيّ صوت. ولم يغطّ وجهه بيديه. وحدها الدّموع انسكبت في صمت على وجنتيه، وامتزجت بقطرات المطر على خدّيه وذقنه. ثمّ سقطت على قميصه. صرختُ في صمتي: «تشجّع يا مستر شاين! فغدًا يوم آخر. إيّاك أن ترتكب أيّ حماقة!». شعرتُ بضيقٍ شديدٍ إلى درجة أنّ كلّ ما استطعت التّفكير فيه لم يتجاوز بضع عباراتٍ متكلّسةٍ، فضلًا عن أنّي فكّرت حتّى في أن أقدّم رأسي من فتحة المنطاد، وألقي بنفسي من هناك حتّى ألهيه.

---

(1) سارة برنار (1844-1923) ممثّلة فرنسيّة شهيرة، عرفت شهرة واسعة في أوائل سبعينيّات القرن التّاسع عشر. ثمّ انفتحت شهرتها على كامل أوروبا وأمريكا. ولقّبت بـ«سارة المقدّسة».

(2) موسوعة عامّة شهيرة تصدر باللّغة الإنجليزيّة. وتعتبر من أوثق الموسوعات وأشدّها دقّة وسعة اطّلاع.

ولكنّ ما أردت القيام به حقًّا، ما أوشكتُ أن أفعله، هو أن أندفع من ثقب الجرذان ذاك، وألقي بنفسي عند قدميه. ثمّ أقبّل حذاءه بلا هوادة. سيتأثّر بعمق لذلك. ويأخذني معه عند انتقاله. إنّه لمن المثير للانتباه أن يتأمّل المرء امتداد الأوهام إلى ما لا نهاية له. ما الّذي قد يفكّر فيه نورمان حقًّا، إذا ما اندفع جرذٌ من خلف خزنته، وتعلّق بحذائه؟ إنّ في العالم الواقعيّ فوارق لا يمكن تجسيرها إطلاقًا.

الحياة قصيرةٌ. ومع ذلك، يمكنُ للمرء أن يتعلّم بعض الأشياء القليلة قبل أن يهلك. وأحد هذه الأشياء الّتي تأمّلتُها يتمثّلُ في النّحو الّذي تَتجاذب وفقه العناصر المتطرّفة. ينقلبُ الحبّ العظيم إلى مقْتٍ شديدٍ، وسكينةُ السّلام إلى حربٍ ضَروس. وينجبُ السّأم الثّقيل حماسًا هائلًا. والأمرُ نفسه ينطبق عليّ وعلى نورمان. يمكنني القول إنّه في تلك اللّيلة في المتجر، عندما بكى نورمان وأنا أطفو من فوقه، أكادُ أبكي معه، بلغتْ علاقتُنا حدَّها الأقصى وبلغ اقترابُنا ذروته. وعلى هذا النّحو، أفضت الحميميّة العظيمة إلى اغترابٍ كبيرٍ. كان ذلك ليلةَ سبتٍ. ولطالما كان المتجر مغلقًا في أيّام الآحاد. ولذلك، لم أر نورمان في اليوم التّالي. وفي ليلة الأحد، عدتُ من ريالتو في حالٍ سيّئةٍ، على الأرجح بسبب نقانق أكلتها. لقد حدث مثل ذلك من قبل. ولذلك، لم أجزع. وقد ظللت مُتوعّكًا بعض الشّيء صباح الإثنين رغم أنّني شعرتُ بتحسّن طفيف، لذا قرّرتُ ألّا أجازف بالرّكض إلى ريالتو في اللّيلة التّالية وقد كان ذلك يعني الحرمان من الطّعام حتّى الثّلاثاء.

عاد نورمان إلى مكتبه، مصطحبًا الصّحيفة والقهوة. أمّا أنا، فقد كنتُ في المنطاد، متأهّبًا لتلقّي علامات البؤس. تأمّلتُه عن قرب، وهو يخفض فنجان قهوته ببطء شديد جدًّا، حتّى إنّ عينه وخدّه الأيمنين الطّافيين على صفحة السّائل البنّيّ مثل النّيلوفر على المياه لم يتموّجا تقريبًا. تساءلتُ ما إذا كانت هذه الحركة البطيئة بشكلٍ غريبٍ علامة أخرى على فجيعته. لم أتوصّل مُطلقًا إلى استيعاب قوانين الانعكاس بسبب نفوري من المرآة، ولم أفهم على الفور أنّني إذا كنتُ قادرًا على رؤية عينه، فهو أيضًا يرى عيني. غافلًا عن استتباعات هذا التّناظر الحتميّ، واصلتُ الإطلال من المنطاد، بينما يدفع نورمان ببطء كرسيّه إلى الخلف، يداه مشبوكتان خلف رأسه كأنّه يمدّدهما. إنّه يحدّق الآن مباشرة في السّقف. ولوهلة طويلة ظلّت نظرته معتّمةً شاحبةً ممتزجةً بنظرتي السّوداء اللّامعة. *الرّعب والاعتراف*. سحبتُ رأسي إلى الخلف، قبل أن أنسحب إلى الظّلام بين العوارض، حيث جثمتُ في مزيجٍ من الخوف والمتعة. لقد رآني! ما الّذي سيفعله الآن؟ لم أعد وحيدًا بعد الآن. حاولتُ أن أتذكّر عينيه. ما الّذي كانا يقولانه لي؟ وفي مُحاولتي لاسترجاع مشهدهما، تخيّلتُ أنّني رأيتُ فيهما الحبّ. لا شكَّ أنّ نورمان اللّطيف الذّكيّ كان قادرًا على تجاهل الذّقن الغائب والخدّين المكسوّين شَعرًا. لا شكّ أنّه استطاع أن يرى من وراء العينين اللّامعتين روح فنّان ورجل أعمال شبيه به.

قضّيتُ بقيّة ذلك اليوم في الاختباء. فقط حين سمعتُ صوت انغلاق الباب، ودوران القفل، وخطى نورمان تتلاشى على الرّصيف،

أطللتُ من الشّرفة لألقي نظرةً على المكان. لقد جلبتُ في شهر أبريل حمولات من مِزق الأوراق من العشّ العائليّ القديم إلى الشّرفة. وشكّلتُ منها كرسيًّا ذا ذراعين. لقد كان الجلوس هناك ومشاهدة ما يحدث في الأسفل ممتعًا. وفي بعض الأحيان، كُنت أمكث هناك في الأعلى حتّى بعد إغلاق المتجر، مستغرقًا في الأحلام، بينما يملأ المساء المصفرّ المتجر ببطءٍ بنوعٍ من الكآبة الخفيفة. كم أحببتُ الظّلال المتكثّفة والحزن الّذي يغمرني آنذاك. ولكن في ذلك المساء تحديدًا، بينما كنتُ أرتجف خوفًا وأملًا، متحصّنًا بين العوارض، قام نورمان بزيارةٍ سرّيّةٍ هناك. إذ دُفع الكرسيّ جانبًا، وتحطّم تماما. وإلى جانبه، انتصبت كومةٌ صغيرةٌ من طعامٍ غريبٍ؛ عدد من الكريّات الإسطوانيّة الخضراء المشعّة. كانت رائحتها زكيّة. ولذلك، قضمتُ منها. كانت لذيذةً على نحوٍ غريبٍ. ولها طعم هو مزيج من الجبنة والإسفلت السّاخن وبروست. استعدتُ تلك النّظرة في عيني نورمان عندما التقتا عينيّ. وقلتُ لنفسي: «إنّه الحبُّ إذَن». وهكذا، عرفتُ إحدى أسعد اللّحظات في حياتي. ولكنّها كانت وجيزةً. صرتُ متيقّنًا من أنّني لستُ وحدي، وأنّني أنتمي إلى شخص مّا. قضمتُ من الكريّات مجدّدًا. طيلة أيّامٍ بحثي عن الطّعام، لم يهبني مسرح ريالتو أيّ طعام كهذا. لقد كان ناعمًا كالصّمغ، مطقطقًا عند المضغ كالفشار. وله نكهةٌ لذيذة وغريبة في الآن ذاته مثلما قلت من قبل. حاولت أن أتخيّل اسمًا له. واستقرّ الأمر عندي على نورمانس، كأن تقول: «علبة نورمانس، من فضلك». وللأسف، كنتُ ما أزال أشعر بالغثيان لتسمّمي بالنّقانق، ممّا جعلني أكتفي بقليلٍ من هذه القطع الصّغيرة الشّهيّة.

بعد ذلك، نمتُ في مكاني وسط الشّرفة. وحلمتُ أنّني أرقص مع نورمان. كنتُ أرتدي إحدى أثواب جنجر روجرز الحريريّة. أمّا هو، فقد وضع في طيّة بسترته الوردة الصّفراء الّتي أهديته إيّاها. كان يطعمني النورمانس بأصابعه أثناء رقصنا، دافعًا الواحدة بعد الأخرى في فمي، قطعةً فقطعةً مع كلّ معزوفةٍ موسيقيّةٍ. كان الأمر ممتعًا في البداية. لكنّه انقلب إلى كابوسٍ، بعد ذلك، عندما أبى نورمان أن يتوقّف وظلّ يدفع القطع في فمي، حتّى وأنا أختنق. استيقظتُ مذعورًا، وأنا أسعل بقوّةٍ. حاولتُ أن أتقيّأ. لكنّني لم أستطع ذلك.

في الصّباح التّالي ساءت حالتي أكثر. كنتُ مصابًا بالدّوار. وأسعل على نحو مؤلمٍ. وفي أذنيّ صوتُ هديرٍ يشبه صوتَ اندفاع المياه بقوّةٍ. عدتُ فأكلتُ نصيبًا آخر من الطّعام الجديد. وشعرتُ بتحسّنٍ طفيفٍ. ولكنّني صرتُ أسوأ في ذلك المساء. وانتابني ضعفٌ شديدٌ، حتّى إنّ القيام ببضع خطواتٍ بطيئةٍ قليلة كان أشبه بتسلّق جبلٍ بالنّسبة إليّ. لم أجد ما أشربه طيلة يومين. والآن، لم أعد أفكّر في شيء سوى الماء. ورأيتُ إذ أطللتُ من الأعلى أنّ نورمان لم يغسل كأسه. وما يزال في قعره سنتيمتران من السّائل البنّيّ، فقرّرت أن أحوزهما. بشكلٍ مّا، تسلّقتُ وسقطتُ في الآن ذاته في الفتحة الرّئيسيّة الّتي تقود إلى ثقب الجرذان، وعندما أدركتُ الطّابق الأرضيّ، اكتشفتُ أنّ الفتحة قد سُدّت جزئيًّا بواسطة صندوقٍ من الورق المقوّى. لقد احتجتُ إلى قوّتي كاملةً لأدفعه إلى الخارج. كان ثقيلًا، لأنّه مُلئ حتّى أقصاه تقريبًا بحبّات النورمانس. وكنتُ

أتسلّقه لأخرج من الفتحة، حين رأيت ما هو مكتوبٌ في الملصق: «مبيدٌ الفئران». كان من الأفضل أن يكتبوا «مع النورمانس، تكون منيوكًا لا محالةَ». لم يُكتب عليه «وجبة صحّيّة ولذيذة»، وإنّما «يقتل من وجبة واحدة». تساءلت ما إذا كانت الكريّات السّتّ الّتي ابتلعتُها تشكّل وجبةً، وقرأت المزيد على الصّندوق: «للتّحكّم في الفئران والجرذان النّرويجيّة وجرذان السّقوف في البيوت والمزارع والمتاجر». لم أكن متيقّنًا ما إذا كنتُ نرويجيًّا أم واحدًا من جرذان السّقوف. لكنّ الفرق ليس مهمًّا في ما يبدو. «يُحفظ بعيدًا عن متناول الأطفال والحيوانات الأليفة». إنّها كلمات قاسية بالنّسبة إلى من تَخيّل لوهلةٍ أنّه قد يكون كليْهما معًا. كنتُ أحتضر مثل بيوي، ولكن على نحو أبطء. وبدلًا من أن أهلك بحادثٍ فجئيٍّ، وجدتُني أُقتل عن سبق إصرار وترصّد. وصلتُ إلى القهوة. وشربتها. ثمّ قضّيتُ ما يزيد عن السّاعة وأنا أزحف راجعًا إلى العشّ، وحتّى حين تمدّدتُ على الأرض لم أستطع أن أتنفّس. ظللتُ أسعل، وكلّما توقّفتُ عن السّعال، أصدرت رئتايَ صوتَ صفيرٍ يشبه صراخ شخصٍ من قعرِ حفرةٍ عميقةٍ. عندما مرّرت لساني على لثّتي، تذوّقت طعمَ الدّم. تخيّلتُ نفسي وأنا أموت. فراد أستير، الرّاقص العظيم بصدد الموت. جون كيتس الشّاعر العظيم يحتضر. أبولينير[1] المصاب بالهذيان يموت. بروست، العينان الجميلتان في الوجه الذّابل المنكمش

(1) غيّوم أبولينير (1880–1918): شاعر وقاصّ وكاتب مسرحيّ وروائيّ وناقد فنّيّ فرنسيّ، بولنديّ الأصل.

يموت. جويس يموت في زوريخ. ستيفنسون[1] يموت في ساموا. مارلو[2] يموت مقتولاً. كنتُ متأسّفًا لأنّه ما من أحدٍ هناك ليشهد اللّحظة. وكانت الفراشات الرّائعة تطوي أجنحتها، وأنا أوشك أن أموت مثلَ أيّ جرذٍ آخر.

نمتُ لفترةٍ طويلةٍ. وعندما استيقظتُ لم أجد نفسي في الجنّة، إلّا إذا كانت الجنّة مكانًا مُغبرًّا بين عارضتين خشبيّتين. مازلتُ أشعر بالضّعف والوهن. لكنّ لثّتي توقّفت عن النّزيف. كنتُ ظمآنًا على نحو فظيع، وجائعًا مثل ذئبٍ. يمتلئ الضّوء المتدفّق من الأسفل حول حوافّ المنطاد بهباءات راقصة. وإذ شاهدتُها، شعرتُ بتأثّرٍ بجمالها، حتّى إنّني كدتُ أبكي. زحفت بعض الخطوات فشعرت بأنّ خشونة الرّقائق الخشبيّة تحت قدميّ لذيذة على نحوٍ لا يُفسّر. زحفتُ حتّى حافّة المنطاد. ونظرت إلى الأسفل. كان جالسًا إلى مكتبه، يقرأ الصّحيفة كأنّ شيئًا لم يحدث. وإذ تأمّلتُ رأسه الأصلع من علٍ، أدركتُ أيّ نتوءات مشؤومة يخفيها بمكرٍ تحت ذلك الإكليل الرّهبانيّ من الشّعر المجعّد. كان من السّهل بالنّسبة إليّ أن أحلّ رباطَ مُثبِّتِ المصابيح لأرسله كي يتحطّم على ذلك الرّأس المكشوف. قد يبدو الأمر غريبًا، لكنّني رغم عبور الفكرة في رأسي لم أنفّذها. لقد هيمن على حياتي شعورٌ هائلٌ بحتميّة المصير وجعلها

---

(1) روبرت لويس ستيفنسون (1850–1894): روائيّ وشاعر وكاتب مقالات اسكتلنديّ شهير.

(2) كريستوفر مارلو: (1564–1593) كاتب مسرحيّ وشاعر ومترجم إنجليزيّ، من العصر الإليزابيثيّ.

خالية من مشاعر المرارة والحقد. وبالإضافة إلى ذلك، كان الأمر ليكون انتقامًا من طيفٍ أو شبحٍ. فنورمان الّذي عرفته من قبل وأحببته لم يكن موجودًا أصلًا. إنّه في الواقع نتاج لمخيّلتي ولسوء فهمٍ فظيعٍ، لا أحد يُلام عليه غيري. لقد اتّضح أنّه مجرّد شخصيّة أخرى في أحلامي، ليست تملك من مادّة أكثر ممّا يملكه الشّاعر المجنون الّذي كان يطرقُ قبل أسبوع باب سارة برنار. لقد تحطّم قلبي. *سمّ الغيران* أو *الحبّ المغدور*. لقد تفتّت فجأةً كلّ ما حسبتهُ من قبل ثابتًا متماسكًا، ولكنّني شعرتُ في الآن ذاته بأنّني أُولد من جديد. كنتُ مُستعدًّا لأطوي الصّفحة مثلما يُقال. ومع اندثار كتب بيمبروك الوشيك وانكشاف مالكه المجرم، الحامل علامة قابيل على صدغيه، حان الوقتُ لإنشاء مخطّطٍ جديدٍ.

الفصل الثّامن

هناك صنفان من الحيوانات في هذا العالم؛ أمّا الصّنفُ الأوّل، فهو المتمتّع بهبة اللّغة. وأمّا الثّاني، فهو الذي يفتقر إليها. وتنقسمُ حيوانات اللّغة كذلك إلى صنفين؛صنفٌ متكلّمٌ وآخر مُصغٍ. تمثّلُ الكلابُ الفئة الأبرز في هذا الصّنف المُصغي. وبسبب غبائها الشّديد، تتحمّل الحبْس بنوعٍ من الفرح الذّليل، وتُعبّر عن رضاها عنه بهزّ ذُيولها. ولا مجال طبعًا لمقارنة كلّ ذلك بي. فأنا لم أتحمّل يومًا فكرة أن أقضّي حياتي غارقًا في الصّمت.

منذ زمنٍ بعيدٍ، ومع بدايات قصّة حبّي للبشر، اعترضتني خلال قراءاتي عدّةُ أجهزة عبقريّة مصمّمة كي تخفّف النّزوع الطّبيعيّ الذي تملك تلك الفصيلةُ إلى الخلل والانحطاط: أعضاء اصطناعيّة، أطقم أسنان، دعامات طبّيّة، سمّاعات آذان ونظّارات طبّيّة. وهكذا، تأسّستْ لديّ باكرًا جدًّا فكرةُ تعويض قُصوري الطّبيعيّ بنوعٍ من الأجهزة الميكانيكيّة. عندما اعترضتني كلمة *آلة الكتابة* لأوّل مرّة، كانت تفتقرُ، بالنّسبة إليّ، إلى الشّرح، كما لو أنّ ما تدلّ عليه واضحٌ ومألوفٌ للجميع. ولم أستطع أن ألتقط أيّ معنى باستثناء أنّها شيء ذو مفاتيح أو أزرار، تداعبُها من حينٍ إلى آخر

أصابعُ النّساء الرّشيقة. وخمّنتُ في البداية ضرورة أن يكون هذا الشّيء نوعًا من الآلات الموسيقيّة، فاستغربتُ صلته بالقعقعة. وعندما اكتشفتُ أخيرًا أنّه آلة مُخصّصة لوضع الكلمات على الورق، شعرتُ بحماسٍ لا حدود له. ورغم أنّه لا وجود لآلة كتابةٍ في أيّ مكان تبلغه أقدامي، فإنّ الفكرة في حدّ ذاتها قد أطلقت سيلًا من الصّور في داخلي. رأيتني وأنا أوزّع ملاحظات مرقونة رائعة حول المتجر، كي يجدها نورمان لاحقًا ويتساءل عن مصدرها. ورأيتهُ في حلمي، وقد عثر عليها وراح يفرك رأسه حيرةً. ثمّ ترك رسالةً تردّ عليها.

حسنًا، صرنا نعرف كيف خَذلني نورمان. ولقد فعلت الآلة الكاتبة الشّيء نفسه. بحثتُ عن وصفٍ مفصّلٍ ورسوماتٍ توضيحيّةٍ مذيّلةٍ بشروح، إضافةً إلى أنّني شاهدتُها وهي تعمل في شريط سينمائيّ. ومع ذلك، كان الحكم الفصل بيّنًا لا لبس فيه؛ إنّها كبيرة وثقيلة جدًّا. وعندما تكون صغير الحجم، لن يكفيك أن تكون عبقريًّا. فحتّى إذا استطعتُ الضّغط على المفاتيح، بواسطة القفز من مرتفعٍ على الأرجح، فإنّني لن أتمكّن بتاتًا من لفّ الورق على الإسطوانة -الجرذان سيّئون في ما يتعلّق بالمقابض- ولا أن أُعمل المقبض الفضّيّ الّذي يُعيد حاملة الأوراق إلى مكانها. لقد تعلّمتُ من الأفلام أنّ إصدار الآلة الكاتبة لنوعٍ من الموسيقى فكرةٌ حقيقيّة، وعرفتُ أنّني لن أسمع بمفردي ذلك الرّنين الصّافي المعلن عن نهاية السّطر، أو الكشط المصفّق الطّويل لحاملة الأوراق وهي تتراجع لتبدأ صفحةً جديدةً. أمّا بالنّسبة إليّ، فإنّني حين أنهي سطرًا

لا أسمع شيئًا ما عدا صمت أفكاري، وهي تسقط إلى ما لا نهاية له في ثقب ذاكرتي.

ولكن، مثلما قلتُ من قبل، يمكنني أن أكون مثابرًا جدًّا عندما أريد شيئًا مّا على نحوٍ لا يطاق. ولذلك، لم أستسلم في ما يخصّ فكرة التّواصل مع البشر. بعد أسابيع قليلة من هجراني لمشروع الآلة الكاتبة، عثرتُ تحت لافتة *اللّغات* على كتيّب عنوانه *الكلام بلا صوت*. وفيه عثرتُ على عشرات الصّور لعلامات يستخدمها الصّمّ والبكم. عندما صادفتُ هذا الكتاب، كنتُ متيقّنًا أنّني قد وجدتُ أخيرًا ما كنتُ أبحث عنه. كانت الكلمات الشّائعة مرتّبة ألفبائيًّا، مثلما هو الحال في المعجم. وإزاء كلّ واحدة منها، توجد بدلًا من التّعريف والشّرح صورةٌ لامرأة جميلة ترتدي سترة حمراء، وهي تؤدّي الإشارة الموافقة لها. ربّما بسببها اقترنت فكرة الإشارة بالحسناوات. فمثلًا، توجد إلى جانب كلمة صديق صورةُ حسناء ناهدة في سترة حمراء تثبّت سبّابتيها اليمنى واليسرى في تشابك، إصبعين صديقين جنبًا إلى جنبٍ. ولذلك استعدتُ آمالي مجدّدًا، ولكن لفترةٍ وجيزةٍ فحسب. إذ اكتشفتُ لاحقًا أنّ من صمّمَ هذه اللّغة الصّامتة، كائنًا من يكن، يعني بها كائنات مجهّزة بأصابع. فمن المستحيل بواسطة ما أملكه من قدم حيوانيّة ومخالب أن أتأتئ حتّى أكثر الجمل بدائيّة. وفي أفضل الأحوال، سأتوصّل إلى ما يمكن تسميته بالتّلعثم البصريّ. وقفتُ أمام المرآة، رغم الألم الّذي يسبّبه لي ذلك، مُحافظًا على توازني على حافّة المغسلة. ورحتُ أصارع كي أتمكّن من قول: «ماذا تحبُّ أن تقرأ؟». حاولتُ أن أتخيّل

جسمي كفًّا مفتوحة وقدميّ أصابع. وفي وسط الجملة، غيّرتُ المخطّط. واستخدمتُ قدميّ الأماميّتين بصفتهما ذراعيْن والخلفيّتين باعتبارهما إبهامين. كنتُ أصفع صدري، وأعقدُ ساقيّ وأتكوّر، ثمّ أقذف نفسي في جميع الاتّجاهات بشكلٍ محمومٍ، مثل رجل اشتعلت النّيران في ملابسه. لا جدوى في ذلك.

تُنجبُ المواقف اليائسةُ آمالًا يائسة مثلها. ولذلك عدتُ بعد أن كاد شاين أن يسمّمني إلى لغة الإشارات. فاكتشفتُ أنّ كلّ ما كنتُ أحتاجه في تلك المرحلة جملةٌ بدائيّةٌ، تسمح لي أن أقول للنّاس إنّني ذكيٌّ وصدوقٌ. مرّت فترةٌ طويلةٌ منذ شرعتُ في محاولاتي الأولى. ورغم أنّ أشياء قليلة تغادر المتجر دون علمي، إلّا أنّني ظللتُ متخوّفًا من أن يفلت شخص مّا ذات يومٍ بالكتيّب معه، حين أكون بعيدًا في ريالتو أو مستغرقًا في قيلولتي عند السّقف. سيكون شخصًا أصمّ طبعًا، وبالتّالي صامتًا وهادئًا جدًّا. ولذلك انتظرتُ أن يُقفل شاين الباب في تلك اللّيلة ويسعل مرّة (تلك عادته، وهي نوع من التّحيّة الموجّهة للّيل) ويحمل خطاه عبر الشّارع، لأنزل إلى الأرضيّة وأعبر المتجر بسرعة البرق في اتّجاه الرّكن، حيث يوجد الكتاب في العادة. وقد ظلّ هناك، شريحةً صفراء تمكث مثل قطعة جبنٍ في شطيرة، بين قطعتي الخبز الأسمر (المعجم الصّربيّ الكرواتيّ) والخبز الأبيض (أساسيّات لانغستون لألمانيّة الأعمال). وإذ توصّلتُ بعد جهدٍ عظيمٍ إلى إزاحته من الرّفّ، لاحظتُ أنّ السّعر المدوّن بقلم الرّصاص على الغلاف الدّاخليّ قد تراجع من خمسة وعشرين سنتًا إلى خمسة فحسب.

ظللتُ أقلب الصّفحات ببطءٍ وأطرح أسئلتي على الحسناء، كنتُ أبحث عن الجملة الأبسط والأكثر وضوحًا الّتي تتيحها حدودي الفيزيولوجيّة. وفي لمح البصر، تعلّمتُ أن أقول «وداعًا يا سحّاب السّروال». لم يكن ذلك شكسبيريًّا. أعرف. ولكنّه أفضل ما توصّلتُ إليه. تمكّنتُ من قول ذلك عن طريق الوقوف على قدميّ الخلفيّتين واستعمال الأماميّتين، واحدة لتلويحة الوداع وأخرى لحركة السّحب من الأسفل إلى أعلى أمام صدري. تمرّنتُ مرارًا أمام المرآة؛ «وداعًا يا سحّابُ! وداعًا يا سحّاب! وداعًا!»، إلى أن أتقنتُ الحركة على نحو مثاليّ. ولكنّ ذلك ما استقدم مشكلةً أخرى. فلمن سأقول هذه الكلمات يا ترى؟ الجواب واضح. وهذا ما منحني على الأقلّ هدفًا جديدًا في الحياة، يتمثّل في البحث عن شخصٍ أصمّ. فالصّمّ في نهاية المطاف لا ينبتُون على الأشجار. ولذلك ظللتُ منتبهًا، آملًا أن يدخل أحدهم فجأةً إلى المتجر. فقد أقرّر أن أندفع من جحري، وأقدّم نفسي له. ولا أحسبُ أنّ أيًّا منهم قد فعل ذلك، رغم أنّ رجلًا عجوزًا قد جاء ذات يومٍ، وقضّى وقتًا طويلًا وهو يتصفّح الكتب، ثمّ اختار واحدا منها، وسدّد ثمنه، وغادر، دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة. ولذلك، أرجّح أنّه أصمّ. ولكنّني لم أستطع المجازفة، نظرًا إلى وجود شاين في المكان. بالإضافة إلى أنّ الرّجل عجوزٌ هرِمٌ. ولو كنتُ غادرتُ مخبئي وجثوتُ عند قدميه، لما استطاع أن يحميني.

لم أسافر من قبل جسديًّا إلى خارج ميدان سكولاي. لكنّني كنتُ أعرفُ الكثير عن بوسطن، من خلال الكتب والخرائط، حتّى

إنّه يمكنني أن أراها كلّها في رأسي، منبسطةً تحتي، من آرلنغتون إلى كولومبوس، كأنّني أطلّ عليها من طائرة. ومثل آكسيٍّ حقيقيّ، تمثّلت مهمّتي في التّواصل مع الفصيلة المهيمنة. لقد جرّبتُ ذلك طبعًا مع شاين. ولكنّ مصيري كان شبيهًا بمصير بقيّة الآكسيّين. ومع ذلك، فإنّ قراءاتي الواسعة قد دفعتني إلى الاعتقاد أنّه رغم حشود السّاديّين والشّياطين والمرضى النّفسيّين والمسمّمين، تزخر الفصيلة المهيمنة أيضًا بنماذج من اللّطافة والتّعاطف. وأغلب هذه النّماذج من النّساء. كان بإمكاني أن أبحث حول الميدان. لكنّ شيئًا مّا في ملامح الوجوه قد حذّرني من فعل ذلك. لقد اعترفتُ سلفًا أنّني كنتُ برجوازيًّا في تلك المرحلة. وتبعًا لذلك، رغبتُ في أن يكون محدّثي الأوّل، أو بعبارة أخرى شريكي العذريّ في سياق التّحاور الإنسانيّ، شخصًا من طبقةٍ «راقيةٍ»، مثلما كنتُ أسميّها آنذاك. وبما أنّ معظم الأماكن الّتي تغصّ بذلك النّوع من النّساء الرّاقيات (مثل كلّيّتيْ ويليسلي ورادكليف ودير راهبات القدّيسة كلير في سهل جامايكا) تخرج عن نطاقي، فقد اكتفيتُ بالحديقة العامّة الّتي تبعد بضع شوارع غربَ الميدان. ومرّةً أخرى، يمكنك أن ترى أنّه رغم نزوعي المعتاد إلى المغالاة في الانتقاء والتّطلّب، إلّا أنّني أستطيع أن أضع أقدامي الأربع على الأرض، وأكون واقعيًّا وعمليًّا إذا اقتضى الأمر ذلك.

كنتُ في حاجة إلى ليلةٍ ماطرةٍ كي أتنقّل، حين يكون النّاسُ متلهّين بوضع جرائدهم ومظلاّتهم فوق رؤوسهم، بينما يندفعون بين السّيّارات والمداخل، غير قادرين على ملاحظة حيوانٍ ضئيلٍ

صغيرٍ، يشقّ طريقه تحت السّيّارات المركونة في اتّجاه الغرب. ولم أضطرّ إلى الانتظار طويلًا. ففي السّبت اللاّحق، غادر شاين المتجر تحت قبّة مظلّة سوداءَ قاطرةٍ. وعندما خرجتُ بُعيْد منتصف اللّيل في اتّجاه الحديقة العامّة، كان المطر يهطل بقوّةٍ، رغم أنّ الإسفلت تحت السّيّارات ظلّ جافًّا ودافئًا. المشكلة الوحيدة تمثّلت في المفترقات والفواصل الّتي ينبغي عبورها بسرعةٍ شديدةٍ. أهدرتُ وقتًا طويلًا في تلك الأماكن. فأنا لم أنسَ بيوي المسكينة. وقد كاد الفجر يبزغ، وأنا أقوم باندفاعي الأخير لأدخل الحديقة العامّة.

كان العشب ناعمًا، ذا رائحةٍ زكيّةٍ حلوة. وهو أوّل عشبٍ أختبره في حياتي. أكلتُ قليلًا منه. توقّف المطر. وأخذت السّماء تشحبُ شرقًا. بعد الزّحف تحت السّيّارات المركونة، من سيّارة إلى أخرى، اسودّت أقدامي ومؤخّرتي، وتلبّدت بفعل الحصى والبنزين. نظّفتُ نفسي قدر استطاعتي. ثمّ جثوتُ أسفل دغلٍ. ونمتُ. عندما استيقظتُ، كانت الشّمسُ تُشرق. ورأيتُ الأشجار. لم أر أشجارًا حقيقيّةً من قبل مُطلقًا. كان الدّغل الّذي نمتُ تحته مُجاورًا لمسلكٍ إسفلتيٍّ يشقّ الحديقة كلّها. تأمّلتُ من حولي. فرأيتُ أناسًا يتنزّهون في ملابس جميلة. كانت أجراس الكنيسة ترنّ. وشعرتُ بإحساسٍ غريبٍ مفارقٍ، كأنّني أشاهد نفسي من فوق. إنّه جرذ من المفترض أن يكون ميّتًا. لكنّه ليس كذلك. صحيح أنّه ضعيف ومتّسخ. لكنْ، لا شيء فيه قد هلك في الحقيقة، فضلًا عن كونه جرذًا يملكُ خطّةً.

شاهدتُ النّاس، وهم يتحدّثون. ورأيت ما يفعلونه بأيديهم.

هل كانت أيديهم تتكلّم؟ تفرّجتُ طيلة الصّباح في أيادٍ تتأرجح، تختفي في الجيوب، تمسّح الشّعر الّذي تغضّنه الرّيح، تلقي التّحيّة، تشير إلى السّناجب، تأخذ شكل قبضة، تلقي الفول السّودانيّ، تجولُ في الأنوف الأنوف، وتمسك أيادي أخرى. استغرقت جميع الأيادي في مشاغلها هذه دون أن تنطق بكلمةٍ واحدةٍ. أكلتُ عشبًا. وغادرت مخبئي مرّتين. فانتشبتُ بعض الفول الّذي كان موجّهًا للسّناجب. لكنّ ذلك لم يكن كافيًا. إذ لم أطعم وجبةً حقيقيّةً منذ ما يزيد عن اليوم. كنتُ أشعر بالضّعف، ممّا جعلني خائفًا.

أوشك الظّلام أن يكتسح المكان عندما رأيتهنّ قادمات، -سيّدتان وفتاة تتوسّطهما- يمشين عبر شارع آرلنغتون. كنّ يرتدين ملابس أنيقة وأحذية لمّاعة. وفوق رأس الفتاة، كانت يدَا السّيّدتين تتحدّثان. شعرتُ بالأسف لأنّني لم أخصّص المزيد من الوقت لدراسة الكتاب، حتّى أفهم ما تقوله الأيدي. ظلّ قلبي يخفقُ بشدّةٍ. وكنتُ قلقًا بشأنِ ضعفي، حتّى إنّني خشيتُ أن يجتمع عليّ الخوف والحماس فأفقد وعيي. شاهدتهنّ، وهنّ يقتربن أكثر. وعندمَا حان الوقتُ، اندفعتُ إلى الأمام وعبرتُ بينهنّ، بينما قالت قدماي: «وداعًا يا سحّاب!». حاولتُ أن أصرخ، إذ سعيتُ إلى جعل حركاتي عنيفة قدر المستطاع. «وداعًا يا سحّاب! وداعًا!». ويا للسّخافة! فقد حاولتُ أن أجعل أثر الكلمات أعمق بواسطة الزّعيق ملء طاقتي. كان لديّ انطباع بأنّني أنفذ إليهنّ أخيرًا. توقّفت السّيّدتان والبنت معًا. وحدّقن فيّ بأفواه فاغرة. «وداعًا يا سحّاب!». كان عليّ أن أقف على قدميّ الخلفيّتين حتّى أستطيع

قول ذلك. وفي غمرة حماسي، فقدتُ توازني، وسقطتُ على ظهري. نخرت إحدى النّساء بصوت يشبه الضّحك، بينما صرخت الفتاة الصّغيرة. لستُ متيقّنًا من تذكّري لمسار الأحداث بعد ذلك. صرخ بعض النّاس: «إنّه جرذ! جرذ!». فردّ صوتُ رجل من جهة مّا: «طبعًا، من الواضح أنّه ليس سنجابًا». وأضاف صوت ثالث: «إنّه بصدد الهجوم» وصوت آخر: «إنّه مسعور». ثمّ صار الجميع يتكلّمون ويصرخون معًا في الآن ذاته. قدم رجل بعكّاز في يده. وحاول أن يضربني في معدتي. استعدتُ توازني على أقدامي. وشرعت في الرّكض، بينما سعى الرّجل إلى ضربي بالعكّاز مجدّدًا. وسمعته يتصدّع على الرّصيف، قبل أن يرتفع في الهواء، ويهوي على ظهري في اللّحظة الّتي أدركتُ فيها حافّة العشب. صرخ شخص مّا: «لا تؤذه!». اخترقتُ صفّ الشّجيرات. وركضتُ بأقصى سرعة. لم أشعر بأيّ ألم. لكنّني أدركتُ أنّني أجرّ شيئًا ثقيلًا خلفي. التفتُّ. فرأيتُ ساقي الخلفيّة اليُسرى ملويّةً في الاتّجاه المعاكس لمكانها السّليم. كانت ثابتةً في مكانها أثناء ركضي. وظللتُ أجرّها خلفي مثل كيسٍ.

ليلًا، شعرتُ بالألم. وفي الصّباح التّالي، كنتُ أجرّ نفسي إلى الأمام بصعوبة، مستندًا إلى قدميّ الأماميّتين. كان الألم فظيعًا. أكلتُ عشبًا. وظللتُ أشاهدُ من مخبئي رجلًا يطعم السّناجب. كان يجلس على مقعدٍ قريبٍ، حاملًا كيسًا ورقيًّا على فخذيه، بينما تتسلّق إليه السّناجبُ. وتلتقطُ الفول السّودانيّ من بين أصابعه. *الجشع والانحطاط في الحياة البرّيّة الأمريكيّة*. بدا عليه السّأم بعد فترة

من الزّمن. فقلب الكيس رأسًا على عقب. وتناثرت حبّات الفول على المقعد والأرض. مشى الرّجل مبتعدًا. وهجمت السّناجبُ على الطّعام المباح. وعندما ظنّت أنّه قد انتهى تمامًا، غادرت هي الأخرى. لكنّها غفلت عن قطعة واحدة. كان بإمكاني أن أراها مستلقيةً في العشب إزاء قدم المقعد على مسافة أقدام قليلة من مخبئي. جاء شخص آخر. وجلس على المقعد. لكنّ ذلك لم يؤثّر فيّ، فقد رغبتُ في حبّة الفول السّودانيّ بشكلٍ عنيفٍ لم يسمح لي بالتّفكير في أيّ شيء آخر ما عداها. ولذلك، زحفتُ خارجًا من جحري. والتقطتُها. ومازلتُ إلى الآن أتذكّر كم كان طعمها لذيذًا.

الفصل التّاسع

كلّ ما أتذكّره لاحقًا هو حركة تأرجُحٍ مع رائحة بشريّة قويّة. وعندما استعدتُ وعيي، وجدتني مُقمّطًا مثل طفلٍ هنديٍّ وسط هذهِ الرّائحة وطبقاتٍ خانقةٍ من الصّوف. كان المكانُ مظلمًا، مترجرجًا ومليئًا بالألم. نشبتُ مخالب قدميّ الأماميّتين في طيّات الصّوف الخشن، ونجحتُ في إخراج رأسي إلى الهواء المنعش. وبعد أن ترشّفتُ عدّة جرعاتٍ منه، رأيتُ سماءً زرقاء تتخلّلها الأسلاك وتحدّها حوافّ المباني. أزحتُ طيّةً أخرى فرأيتُ السّيّارت الّتي نتجاوزها من جهة، وتلك الّتي تتجاوزنا من جهة أخرى. أرخيتُ رأسي إلى الوراء ونظرتُ إلى السّماء مُجدّدًا وهي تنتصب فوقي مباشرة، ثمّ أعدته فحطّ بصري على عينٍ بشريّة لها الزّرقة نفسها. كانت العينُ تحدّق في مباشرةً، بينما تركّز قرينتها على حركة المرور.

كان جيري ماغون يتنفّس بشدّةٍ وهو يقود الدّرّاجة، ممّا جعل نفَسهُ يرفعُ شاربه مع كلّ زفيرٍ جديدٍ. ظلّت الدّرّاجة تترنّح من جهةٍ إلى أخرى كلّما ضغط بقدميه على الدّوّاسة، بينما تهتزّ السّلّة المعدنيّة كأنّها مهدُ رضيعٍ. أسندتُ رأسي إلى الصّوف المعطّر الّذي اكتشفتُ لاحقًا أنّه قميص جيري، ممّا يفسّر امتلاءَه برائحته، ثمّ أغمضتُ

عينيّ. لقد خفّف قماش القميص الكثيف من هزّات الطّريق. لكنّه لم يُوقف ألم ساقي. إضافةً إلى ذلك كانت العجلة الأماميّة تصرّ، ووددتُ لو استطعتُ أن أقول لجيري «وداعًا يا سحّاب». لكنّني لم أقوَ على ذلك، وقد شككت في قُدرته على فهمي على أيّة حالٍ.

وهكذا وصلتُ إلى شارع كورنهيل للمرّة الثّانية، فقد دخلتُه أوّل مرّة ممتطيًا مياه الرّحم المتموّجة، وها إنّني أصل إليه الآن بين ثنايا قميص جيري. ومثل موسى، كنتُ أركب سلّةً.

عندما وصلنا إلى متجر بيمبروك للكتب، رفع جيري الدّرّاجة بلطفٍ وحذر شديدين وأسندها إلى الواجهة الزّجاجيّة. بدا تجهّمُ شاين جليًّا من الدّاخل، ولاح وجهه شبيهًا ببومةٍ تتأهّبُ لتحطيم الزّجاج والانقضاض علينا. محدّقًا فيه من تحت غطائي الصّوفيّ في السّلّة، كنتُ أقربَ إليه من أيّ مرّة أخرى، أقرب حتّى من ذلك اليوم المصيريّ الّذي تلاقت فيه نظراتنا لأوّل مرّةٍ. إذ كانت نظرتي مفعمةً بالحبّ. ونظرته... ماذا ؟ الآن إذ أستعيدها مُجدّدًا، فإنّني أجزم أنّه الاحتقار.

اكتفى جيري بتجاهله كعادته.

حملني ملفوفًا بالقميص بين يديه، وتجاوزنا معًا المدخل الّذي تعتليه لافتةُ غرف. ومستخدمًا منكبيه، فتح الباب المكتوب على زجاجه *«الدّكتور ليبرمان، طبيب أسنانٍ بلا أوجاع»* فانغلق على الفور من ورائنا. كان المكان أكثر عتمةً في الدّاخل، ذا رائحة رطبةٍ باردةٍ. حملني جيري ببطءٍ وصعوبةٍ، رافعًا قدمه اليمنى أوّلًا

ومُلحقًا قدمه اليسرى، صاعدًا الدّرج المظلم حتّى الطّابق الثّالث. كان شاربه يرتفع وينخفض مع تنفّسه. استرحنا قليلًا عند كلّ مسطحٍ. كانت هناك أبواب كثيرة في كلّ طابق طُليت كلّها بالبنّيّ ما عدا باب الدّكتور ليبرمان الّذي كان أخضر، مع نافذةٍ فوقيّةٍ من الزّجاج المطروق.

تقع غُرفته في الطّابق الأخير في أقصى البناية، ومنذ وُصولنا إلى الطّابق، حوَّلَ جيري القميص إلى تجويف كوعه المعقوف وأدخل يده إلى جيبه، ثمّ أخرج حفنةً من الأشياء المختلفة؛ علبة ثقاب، قطع نقديّة، قطعة خيط أبيض، شيء من الفول السّودانيّ وبرغيّ نحاسيّ. ألقى بمعظمها على الأرضيّة وتمكّن من استخراج المفتاح. كانت أصابعه قصيرةً وسميكةً. أدار القفل ودفع الباب بقدمه فانفتح ودخلنا. وضعني بعنايةٍ على السّرير وسحب يده بلطفٍ من تحت الصّوف حتّى لا يُؤلمني، ثمّ عدّل القميص ولفّه من حولي جاعلًا منه فراشًا ناعمًا. وبعد ذلك، أخفضه من جهةٍ واحدةٍ كي أستطيع الرّؤية دون أن أضطرّ إلى رفع رأسي.

لم تكن الغرفة واسعةً جدًّا. وبدت لأوّل وهلةٍ مخصّصة للتّخزين. يوجدُ فيها رأسُ سريرٍ حديديٍّ ومقعدٌ جلديٌّ متشقّق، تخرجُ منه حشوة بيضاء، وخزانةٌ ذات أدراج تعلوها مرآةٌ مائلةٌ، كان شخصٌ مّا قد رسم عليها، بأحمر الشّفاه على الأرجح، وجهَ رجل أحول ذا شاربٍ كثٍّ يمدّ لسانه خارج فمه، ورفوفُ كتبٍ صنعت من ألواحٍ خشبيّةٍ عاريةٍ من أيّ دهنٍ وكتلٍ خرسانيّة، وطاولةٌ ذات طلاءٍ

أبيض في أعلاها، يظهر السّواد في حوافّها المتكسّرة. وإلى جانب هذا الأثاث، تكدّست الصّناديق وعلب الكرتون والأقفاص الخشبيّة، مكوّمةً بعضها فوق بعضٍ، حتّى أوشكت أن تبلغ السّقف. وعلى الكومة الأعلى، كانت عربة أطفالٍ حمراء تتقلقل، وهي من ذلك النّوع الّذي يُسحب بواسطة مقبضٍ حديديٍّ طويل، وقد تمّ تمديد جانبيْها بإضافة ألواحٍ خشبيّةٍ كُتب عليها بخطّ اليد بحروفٍ حمراء صفراء مُغلّظة: إ.ج. ماغون، فبدت كأنّها عربة سيرك. وبعد دقائق قليلة، أحضر جيري درّاجته ودسّها مع بقيّة أغراضه. باختصار، لم يسبق أن رأيتُ من قبل بشريًّا يحيا كالجرذ.

فتح بابًا يُجاور رفوف الكتب، وراح ينقّب في خزانةٍ وهو يحفر بيديه وينخر ويلقي بأشياءٍ كثيرة على الأرضيّة من خلفه؛ ملابس وجزم وآلات تسجيل نصف محطّمة ومِحمَصة الخبز وأعداد كثيرة من مجلّة لايفْ[1] والمزيد من الصّناديق والعلب. لقد ذكّرني بكلبٍ يحفر في التّراب. كان هناك في الجهة الأخرى من رفوف الكتب ما يُشبه القُبّة، وهو مكانٌ يحتوي على مكتبٍ ومخطّط عمل يتدلّى منه قماشٌ أزرق يصلُ إلى الأرضيّة ويحجبُ ما اكتشفتُ لاحقًا أنّه سلّة قمامةٍ معدنيّةٍ. ووسط ركام من المقالي والصّحون، يوجد موقد تخييم أخضر من نوع كولمان. كان ضوء النّهار يصارع الأجزاء الدّهنية لنافذةٍ واحدةٍ عريضةٍ، مُحاولًا أن يدخل الغرفة الخالية من السّتائر،

---

(1) اسم مجلّة أمريكيّة شهيرة وعريقة، طُبع أوّل عددٍ منها سنة 1883. ومعنى اسمها «الـ/ حياة».

وتحت النّافذة رُكِن مشعاعٌ[1] حاول شخصٌ مّا تلوينه بالأحمر. لكنّه لم ينجح في ذلك حقًّا.

عثر جيري أخيرًا عمّا كان يبحث عنه في الخزانة: علبة أحذية فورشايم رماديّة. قَلَبها على السّرير وكدّس ما فيها إلى جانبي. كانت العلبة تحتوي على رسائل، ومظاريف، وحفنة من أوراق لعب زرقاء وبيضاء، رُسمت عليها درّاجة من الخلف، وكثير من الصّور الفوتوغرافيّة، رأيتُ على إحداها صورة جيري أصغر سنًّا، مقلوبًا رأسًا على عقب، ذا شعر أسود قصير وشفةٍ عليا تُشبه شفة هنري ميلّر[2]. كان جالسًا إلى طاولة تغطّيها الأوراق، وقد قاطعه شخص مّا أثناء الكتابة، إذ كان ما يزال يمسك القلم بين أصابعه ويرخيه على الصّفحة، بينما يرفع رأسه إلى أعلى، ويكشف ابتسامةً متوتّرةً تبين عن أسنان بيضاء. مازال جيري يبتسم كذلك حتّى في نسخته الأكبر ذات الشّعر الرّماديّ، وها هو يكلّمني بلطفٍ ويحاول تهدئتي، بينما الكلمات تزحف من تحت شاربه، فتهزّه في كلّ مرّةٍ، لكنّ أسنانه الآن صارت طويلةً وصفراء. وتخرج من نفَسه رائحةُ السّجائر واللّحم.

فرش داخل العلبة منشفةً مطويّةً كُتبت عليها عبارة *نزل روزفلت*. ثمّ حملني برفقٍ شديدٍ ووضعني فيها قبل أن ينزلها على الأرضيّة. تحمل المنشفة شرائط زرقاء، ولم تكن فيها رائحة جيري

---

(1) اسم آلة لقياس الإشعاع المضيء خلال النّهار في نقطة معيّنة.

(2) هنري ميلّر (1891-1980) روائيّ ورسّام أمريكيّ شهير، عُرف بقطعه مع أجناس الكتابة الأدبيّة السّابقة له وتطويره لنمط في كتابة الرّواية يجمع بين التّرجمة الذّاتيّة ودراسة الشّخصيّة والنّقد الاجتماعيّ والتّفكّر الفلسفيّ واللّغة «البذيئة» والجنس.

الّذي واصل الحديث إليّ بذلك الصّوت النّاعم الرّقيق -العميق المليء بالحصى- بينما يُنقّب في الثّلاّجة دُون أن يُدير رأسه.

«ماذا تأخذ يا زعيم؟»، خشخش صوته. «حليب؟ ... حسنًا، الحليب جيّد». سحب إناءً ذا غطاءٍ أحمر. وأردف: «هل جرّبت زبدة الفول السّودانيّ من قبل؟». ثمّ جثا عند العلبة، ورأسه الضّخم منحن فوقي.

لم أجرّب زبدة الفول السّودانيّ مطلقًا. ولم أُجرّب الحليب أيضًا، باستثناء الأشياء الغريبة الّتي امتصصتها من أمّي. قُدِّمَ لي الحليبُ في غطاء قارورةٍ والزّبدة في قطعةٍ من الورق المشمّع. إنّ زبدة الفول السّودانيّ هي ألذّ شيءٍ تذوّقتهُ في حياتي. كان اسمها سكيبي. وقد كان الحليب جيّدًا أيضًا، باردًا وحلو المذاق. شاهدني، وأنا آكل. وشاهدني، وأنا ألعق الحليب، بينما ابتسم هو وقال: ميامْ! مم! هيّا، العق كلّ شيء. هنيئًا لك».

بعد ذلك راحَ يضجّ في القبّة، قامَ بطهي الأرزّ في وعاءٍ مملوءٍ بالماء السّاخن. وعندما صار جاهزًا، قام بتجفيفه عبْر قلبِ الوعاء على المغسلة، مع إمساك الغطاء بمنشفةٍ. ارتفعت سحابة من البخار فوق المغسلة وكست النّافذة بالضّباب، فنظر إليّ وقال: «بووووم!» ثمّ ضحك، فارتجّ الحصى داخل رئتيه. خضّ صلصة الصّويا وسكبها على الأرزّ، ثمّ حرّك الخليط جيّدًا. دفع جانبًا أكوامًا من الكتب والأوراق والأطباق المتّسخة، حتّى يُفسح مجالًا لطبقه على الطّاولة. وأخذ يأكل الأرزّ بملعقةٍ يمسكها بكفّه مثل طفلٍ، ويمضغ ببطءٍ

شديدٍ. وددتُ لو أنّه استمرّ في الحديث إليّ أكثر. لكنّه لم يفعل في تلك اللّيلة.

بعد أن ألقى كلّ الصّحون والأطباق في المغسلة -بووووم!- أخذَ سُترته وغادر لفترةٍ طويلةٍ. وعندما عاد كان الوقتُ متأخّرًا جدًّا، والمدينةُ تكاد تكون هادئةً تمامًا، لولا انبعاث صفّارات الإنذار وأبواق السّيّارات من حينٍ إلى آخر، ولولا الخفقان الحادّ في ساقي. تَوجّه إلى سريره دون أن يشعل المصباح من جديدٍ. كانت رائحته شبيهة برائحة أمّي، وكان بإمكاني أن أسمع تنفّسه خلال النّوم، بطيئًا ثقيلًا، بينما يصلني صوت ضحكه في الحلم. وفي الصّباح، رأيتُ أنّه ما يزال مرتديًا ملابسه.

وهكذا، بدأت حياتي مع جيري ماغون، ثاني إنسانٍ أحببته في حياتي. لم أكن قادرًا على التجوّل في الأنحاء طيلة أيّامٍ قليلةٍ، فضلًا عن أنّ الألم قد حرمني من النّوم. ولذلك، تمدّدتُ بهدوءٍ في علبتي ورحتُ أسمّي الأشياء. سمّيتُ الطّاولة المزدحمة دومًا الجَمل. وسمّيتُ علبتي النّزل. أصبحت النّافذةُ النّافورةَ المضيئة والمقعدُ الجلديّ ستانلي[1]. سمّيتُ الأشياء. وشاهدتُ جيري. ظللتُ أتابع بعينيّ كلّ شيءٍ يفعله في وضح النّهار. وفي اللّيل، مكثتُ أُصغي إلى صوتِ تنفّسه.

كان قد طوى المنشفة بشكلٍ ترك كلمةَ VELT في الأعلى. وحين أتمدّد بعينٍ مغمضةٍ وأخرى لصيقة بقماش المنشفة الإسفنجيّ، وأتأمّل

(1) اسم علم تقترحُه الشّخصيّة.

عبر تلالها المتدحرجة، أرى سهولًا عشبيّةً شاسعةً تمتدّ على مرأى البصر، انطلاقًا من حرف T الضّخم في المقدّمة، والشّبيه بشجرة تَبلْدي[1] عارية وصولاً إلى حرف V الصّغير الواقف كأنّه «التّبدّد»[2] في الأفق. وكلّما غادر جيري في تلك الأيّام الأولى، أستلقي بهدوءٍ وأتفرّج على الغزالات تثبُ فوق E والزّرافات تفركُ رؤوسها المليئة بالعقد إزاء حرف L. كان بإمكاني أن أفعل ذلك لساعاتٍ طوالٍ. وعندما أسمع أخيرًا صوتَ مفتاحِ جيري وهو يدورُ في القفل، أرفع رأسي عن المنشفة، وأرى الحيوانات المذعورة المسكينة تحلّقُ مثل الطّيور، وتذوي صرخاتها المكتومة فوق السّهل المُعْشَوْشَب. كان ذلك المشهدُ حزينًا جدًّا وجميلًا. إضافة إلى أنّه دفعني إلى التّفكير في أنّني أفضّل في واقع الأمر أن أكون غزالةً تثبُ وتطفو فوق E على أن أكون إنسانًا، وأن تكون لديّ سيقان طويلة على أن أملك ذقنًا.

شُفيت ساقي بسرعةٍ كبيرةٍ. وعند نهاية الأسبوع، استطعتُ الاستناد إليها من جديد. وبعد أيّامٍ قليلةٍ أخرى، كاد الألم يختفي تمامًا رغم أنّها ظلّت ملتويةً. وصرتُ منذ تلك الأيّام أعرج. في الحقيقة، تبدو لي لفظة «أعرج» كلمةً جميلةً. إنّها تفعل ما تقوله. وبما أنّني لم أكن يومًا رياضيًّا، فإنّ هذه الإعاقة لم تُضايقني. بل لعلّها قد ميّزتني بمظهرٍ مخصوصٍ وددتُ لو أضفتُ إليه عكّازًا صغيرًا

(1) شجرة التَّبلْدي الإصبعيّ، تنتمي إلى الفصيلة الخبازيّة. وتتميّز بطولها الّذي يدرك 18 مترًا. ولها شكلٌ شبيه بالمظلّة أو بحرف T المشار إليه في هذا السّياق.

(2) الكلمة المستخدمة في الأصل هي Vanishing. ولها دلالة الاختفاء أو التّبدّد أو التّلاشي. والكاتب يشير إلى أوّل حرف منها، وهو حرف V، المذكور في هذا السّياق.

ونظّاراتٍ شمسيّةٍ، إذ لطالما شعرتُ بقرابةٍ تصلني بكلمتيْ *تألّق وابتهاج*.

ظلّ جيري يُلقّبني بالزّعيم لفترةٍ من الوقت، وهو اسمٌ لم أكن أحبّه كثيرًا. ثمّ جرّب غوستاف وبين. واستقرّ في نهاية المطاف على إرني[1]، أي مثل اللّفظة في مسرحيّة أوسكار وايلد[2] أو مثل إرنست همنغواي... إرْني. لقد منحني كلّ ما رغبت فيه من زبدة الفول السّودانيّ والحليب. ووهبني قطعًا من الخبز المحمّص، وأيّ شيء آخر كان يتناوله ويعتقد أنّني قد أُحبّه، مثل الأرزّ الّذي يطبخه والفشار المدهون بالكريما الّذي كان يستخرجه من علبةٍ معدنيّةٍ. وعلى هذا النّحو، اكتشفنا أنّ الجرذان لا تأبه بالمخلّلات.

كان جيري يغيب كثيرًا عن البيت، أحيانًا أثناء النّهار وأحيانًا أخرى في اللّيل، مرّات ليذهب إلى المكتبة العامّة في ساحة كوبلي، ومرّات أخرى ليمكث في حانة فلاد في زاوية الشّارع المجاور. ولكنّه ينصرف في معظم الأحيان إلى أماكن مجهولة. كان يرتدي دومًا سترةً زرقاء داكنة عند خروجه. وهو يملك اثنين متطابقتين على أيّة حالٍ. كان يغسلهما بنفسه في المغسلة، ويجفّفهما على سلّم الطّوارئ أو المشعاع. لكنّه لا يكويهما قطّ. إضافة إلى السّترة، كان جيري يرتدي ربطة عنقٍ باستمرار، ولا يشدّها إلى رقبته بتاتًا، بل يتركها مرتخيةً، فلا يضطرّ إلى حلّها وإنّما يكتفي بتمريرها عبر رأسه،

(1) صيغة الدّلال من إرنست.

(2) يشير المؤلّف إلى مسرحيّة أوسكار وايلد الّتي تحمل لفظة Ernest في عنوانها (أهمّيّة أن تكون جادًّا) بدلالة الجدّيّة في أصلها الاشتقاقيّ.

وتركها تَتدلّى حول عنقه مثل أنشوطة. كان مظهره يوحي دومًا بأنّه قد خرج للتوّ من حفلةِ سمرٍ. وإذا كان لي أن ألخّص هيئته في كلمةٍ واحدةٍ، سأقول «مُجعّد».

لم يُبدِ صاحب المنزلِ أيّ اعتراضٍ على تسلّقي خارج النّزل وتسكّعي حول الغُرفة، صرتُ قادرًا على ذلك بعد فترةٍ قليلة، وتسكّعي هذا جعلني أكتشفُ أنّ جيري شخصٌ فظيعٌ لا يحتجّ على أيّ شيءٍ أقوم به، حتّى لو كان ذلك تجريد ستانلي من حشوته. وهو أمر يمتعني جدًّا في الحقيقة. لكنّني في المقابل، لم أُحاول اختباره أكثر من ذلك، إذ لم أقحم نفسي مُطلقًا في أدواته الخاصّة أثناء وجوده في المنزل. وما إن انتصبت على أقدامي من جديدٍ، سليمًا معافى، حتّى استغللتُ فترات غيابه الطّويلة لأتشمّم كلّ ملّيمتر من المكان، بدءًا بحقيبة الكتب. لم أزر من قبل بيت أيّ شخص آخر. ولذلك، لا أعرف كم عدد الكتب الّتي يجدر أن يضمّها منزل مّا. وبعد حياتي الّتي عشتها في بيمبروك، فإنّ أيّ عدد سيكون بلا شكٍّ ضئيلًا مقارنةً بالمتجر. أقدّر أنّ جيري يملك ما يناهز مائتي كتاب. كنتُ سعيدًا لرؤية *صورة الفنّان في شبابه*[1] و*عوليس*[2]، رغم أنّ الكتاب العظيم لم يكن موجودًا للأسف. وأقول للأسف، لأنّني لم أتمكّن يومًا من استعادة الصّفحات الّتي مزّقتها فْلُو، والّتي أكلتُها عن غير قصدٍ. وبالإضافة إلى الكتب، تضمّن الرّفّ السّفليّ صفًّا طويلًا من

(1) رواية شهيرة من تأليف الكاتب الإيرلنديّ جيمس جويس.

(2) رواية أخرى شهيرة لجيمس جويس، اعتبرت عملاً أدبيًّا رائدًا في ما عرف لاحقًا بالأدب الحداثيّ.

الدّفاتر الّتي يُدَوِّنُ فيها جيري كتاباته. ورغم أنّني مازلتُ أحافظُ على فُضولي ذاته، فإنّني شعرتُ أنّه من غير اللّائق أن أتجسّس على ما تحتويه، رغم أنّ الأمر كان مغريًا إلى حدٍّ فظيع، ولكنّني قرأتُ في المقابل كتبه العاديّة، والّتي أجهل عددًا لا بأس به منها. بدأت من الأسفل يسارًا. وتقدّمتُ شيئًا فشيئًا إلى الأعلى. ولم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتّى فاجأني جيري وأنا منهمكٌ في القراءة.

كنتُ قد اكتشفتُ للتّوّ *تيري ساوثرن*[1]، وفتحتُ على الأرضيّة روايته *كاندي*[2]. كانت الرّواية مطبوعةً في نسخة جيب ذات لصق قويّ، من ذلك النّوع الّذي يَنزع إلى أن ينفتح في كلّ مرّةٍ، ممّا اضطرّني إلى تثبيته بقدميّ الأماميّتين معًا. كانت القصّة شيّقةً جدًّا. ووصلتُ إلى ذلك الموضع من الحكاية، حين تشرع كاندي في إقامة علاقةٍ جنسيّةٍ مع قزمٍ. وكنتُ منهمكًا جدًّا في القراءة -بما أنّني وجدتُ بيسرٍ شديدٍ نوعًا من الشّبه بي- حتّى إنّني لم أسمع صوت قدوم جيري إلى أن فات الأوان. لا شكّ في أنّ الباب لم يكن مغلقًا بواسطة المزلاج، لأنّه فجأةً كان واقفًا هناك عند العتبة، يتنفّس بصعوبةٍ، حاملًا في يدٍ كيس بقالةٍ وفي الأخرى مفتاح الغرفة. انتفضتُ على الفور. أمّا هو، فقد دفعته صدمةُ المفاجأة إلى الوقوف هناك لوهلةٍ من دون حركة، مصوّبًا مفتاحه نحوي كأنّه مُسدّس. وبما أنّه قد تمّ القبض عليّ والدّليل بين يديّ، فإنّه لم يعد من حلٍّ أمامي لأجدَ

(1) كاتب سيناريو، روائيّ وصحفيّ ومنتج أمريكيّ (1995-1924).

(2) رواية شهيرة لتيري ساوثرن صدرت عام 1958، كتبها مستخدمًا اسماً مستعارًا (ماكسويل كنتون) وبالاشتراك مع مايسون هوفنبورغ (1968-1922).

مخرجًا سوى الحيلة. ولهذا السّبب، قلبتُ الصّفحة واسترسلتُ في القراءة. توقّعتُ أن يغضب منّي لأنّني أخرجتُ الكتاب، ووضعته على الأرضيّة. لكنّه، على العكس من ذلك، وجد الأمر طريفًا جدًّا. وعندما تجاوز صدمته، انفجر ضاحكًا بصوتٍ عالٍ. وذلك ممّا يندر أن يحدث مع جيري، الّذي ألقت ضحكاتُه أكداسًا من الحصى على السّقف. وبعد هذا الموقف لم أعد أتردّد، كلّما شعرتُ بالسّأم، في سحب كتابٍ وفتحه على الأرضيّة، والمضيّ في قراءته هناك على مرأى منه. لكنّني لا أعتقد أنّه قد تفطّن إلى أنّني كنتُ أقرأ فعلًا، وإنّما ذهب في ظنّه دوما، أنّني أتظاهر بذلك فحسب.

الفصل العاشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

رغم أنّ المرء قد لا يُلاحظ ذلك عندما ينظر إليه، إلّا أنّ جيري شخصٌ مسؤولٌ وبخيلٌ جدًّا عندما لا يكون سكرانًا. إنّه يحبّ أن يقتنص الأشياء القديمة المكسورة من القمامة، ويصلحها. أشياء من قبيل محمصة الخبز وآلات التّسجيل وما إلى ذلك. وقد ينجح في ذلك أحيانًا، ويفشل أحيانًا أخرى. وبالتّالي، يرمي بهذه الأشياء في الخلف إذا فشل في تحقيق مراده، أمّا إذا نجح فإنّه يدسّ ما أصلحه في الخزانة مع بقيّة الأشياء.

يمكنه أن يقضّي نصف اليوم في تفكيك إحدى آلاته على الطّاولة والتّلاعب بالكمّاشة ومفكّ البراغي ولفائف من شريط أسود، مكلّمًا نفسه طيلة الوقت؛ «يجب على هذا السّلك أن يذهب هناك الآن. هذا منظّم الحرارة. وهذا هو الرّباط لتثبيت النّابض. حسنًا، أرى ذلك جيّدًا. وها هو مكسورٌ من هذه الجهة». ثمّ يعيد كلّ شيءٍ إلى مكانه. كان بصره ضعيفًا جدًّا، حتّى إنّه يُضطرّ إلى العمل وأنفه إزاء الطّاولة. يحدث له أن يُسقط القطع الصّغيرة على الأرض، وكم كنت أحبّ تأمّله وهو يزحف في الغُرفة على أربعٍ بحثًا عنها. يبدو حينئذٍ شبيهًا بدبٍّ. كان بإمكاني أن أحضرها

له. لكنّني لم أفعل ذلك قطّ. وكنتُ أحبّ أيضًا أن أشاهده منكبًّا على عمله، بعينه الكبيرة الحولاء الّتي تحدّق جانبًا. كان منظره شبيهًا بطفل تمّ القبض عليه أثناء اقترافه لحماقةٍ. وفي كلّ مرّة ينجح فيها في إحياء آلةٍ مُحتضرةٍ، يشعر بسعادةٍ عظيمةٍ تدفعه إلى القفز في أنحاء الغرفة وهو يقرقر ضاحكًا. *إصلاح العالم: نضال ميكانيكيّ*. وإذ كنتُ أشاهده في تلك الحال، كُنت أشعر برغبةٍ في تعليق كلمة «تألّق» بجانب اسمه. كانت السّعادة تطير منه، فتحلّق في سماء الغرفة وتملَؤُها، حتّى إنّني أستطيع تنفّسهَا. وبعد أن ينجح في إصلاح أربعة أو خمسة من هذه الأشياء المحشورة في الخزانة، فيجعلها بمقام الجديدة الّتي لم تُستعمل، يشحنها كلّها في العربة الحمراء، ويأخذها بعيدًا إلى مكان مّا. لقد علمتُ لاحقًا أنّه كان يوزّعها على النّاس في الشّوارع.

ذات يوم، وبعد شهر من قدومي للعيش معه، أحضر جيري لعبةَ بيانو كانَ قد استخرجها من القمامة. كانت بيضاء لها ثلاثُ سيقانٍ تستند إليها، ومقعدٌ يرافقها. وهي شبيهةٌ ببيانو حقيقيّ في كلّ شيءٍ، ما عدا كونها لا تحمل مفاتيح كثيرة، فضلًا عن أنّ بعضها معطّل. لم تصدر أيّ صوتٍ حين ضغط عليها جيري، أو لنقل أنّها اكتفت بصلصلةٍ ناشزةٍ باهتةٍ. وعندما تَردّد صوت النّشاز ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا، جلس جيري على الجمل وراح يفكّك كلّ شيء. أخرج أحشاء اللّعبة وتحدّث إليها لساعات، ثمّ توصّل أخيرا إلى جعل معظم المفاتيح تعمل بشكلٍ جيّدٍ. وبعد ذلك، قضّى بعض السّاعات مُمسكًا بالبيانو على فخذيه وجالسًا على المقعد، ينتقي

ألحانًا مثل «شوارع لاريدو»[1] و«نهر سواني»[2]. ثمّ وضعه أرضًا، وسمح لي باللّعب به. لقد أحببتُ ذلك البيانو. وكان جيري يعرف ذلك. ولم يتخلّص منه. كنتُ أعزف في معظم الأحيان كول بورتر[3] وغيرشْوين[4]. كُنت أفعلُ ذلك وأنا جالسٌ على المقعد أتمايلُ مع الموسيقى، وقد كنتُ أُشبه فراد أستير تمامًا وأغنّي مثله أيضًا. طبعًا، أنا أعرف أنّ هذا لا يصحّ إلّا من منظورٍ معيّنٍ، وأنّ كلّ ما كان جيري يسمعه لا يتجاوز زعيقَ جرذان حادًّا، لكنّه أحبّه على أيّة حالٍ، أستطيع تذكّر أوّل مرّةٍ عزفتُ وغنيّتُ له فيها، لقد انفجر ضاحكًا حتّى سالت الدّموع على وجنتيه، ومع أنّني كنتُ أودّ لو اختلف ردّ فعله، إلّا أنّني لم أعترض على الضّحك.

كان جيري أوّل كاتبٍ حقيقيٍّ ألتقي به. وعليّ الاعتراف بأنّ ظنّي فيه قد خاب في البداية، بغضّ النّظر عن اعترافي بلُطفِه معي، ومثلما سبق أن قلتُ من قبل، كنتُ ما أزال برجوازيًّا في تلك الأيّام، في حين أنّه لم يكن يمثّل بتاتًا حياة الكتّاب كما تخيّلتها. فقد كانت حياته مثلًا أكثر وحدة ممّا تخيّلت. حسنًا، ليس الأمر هكذا

---

(1) أغنية أمريكيّة شهيرة، تُعرف كذلك بـ«مرثيّة راعي البقر». يسرد فيها راعي بقر يحتضر قصّة حياته لمثيله. وفي العنوان إحالة على مدينة لاريدو في تكساس.

(2) أغنية شهيرة تُعرف أيضًا بـ«القدامى في البيت». ألّفها الموسيقيّ الأمريكيّ ستيفن فوستر (1826-1864). وتحوّلت إلى ما يشبه النّشيد الرّسميّ الّذي يميّز ولاية فلوريدا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

(3) ملحّن وكاتب أغان أمريكيّ (1891-1964). وأحد أشهر من ألّف للمسرح الموسيقيّ في الولايات المتّحدة.

(4) جورج غرشْوين (1898-1937) هو الاسم المستعار لـجايكوب غيرشوفيتس. مؤلّف موسيقيّ وقائد أوركسترا أمريكيّ.

بالضّبط، فوحدتهُ لا تفوقُ الوحدة الّتي تخيّلتها أو تلك الّتي خبرتها أنا بنفسي، لكنّها أكثر وحدة ممّا كنتُ أتصوّر بالنّسبة إلى الكتّاب الحقيقيّين. وطيلة الأشهر الّتي عشناها معًا، لم يُطرق الباب إلّا ثلاث مرّاتٍ فقط. لطالما تخيّلتُ الكاتب الحقيقيّ -وتخيّلتُ نفسي إذ أكتبُ في أحلامي- وهو يقضّي الكثير من الوقت، يتسكّع في المقاهي مستمتعًا بأحاديث لذيذة مع أناسٍ لامعين. ومن حين إلى آخر يصطحبُ معه إلى البيت فتاةً جميلة ذات شعر أسود، ثمّ يطردها في الصّباح التّالي، كي يتمكّن من استئناف عمله. «أنا آسف يا دُمْيَتي. لديّ كتابٍ ينتظر أن يُؤلَّف». كنتُ أراه دومًا في مخيّلتي، معتكفًا في غرفته طيلة أيّامٍ دون أن يُغادرها ولو مرّةً واحدةً، يشرب الويسكي في كأسٍ من نوعٍ وُولورث، ويدقّ أصابعه على أزرار آلته الكاتبة من نوع أندروود[1] حتّى مطلع الفجر. لا يحلق لحيته حتّى آخِرها. ولا يطيلها. توحي حوافّ فمه بشيءٍ من المرارة. وينفلتُ من عينيه الحزينتين شيء مّا غامض وساخر. لم يكن جيري يتطابق مع هذه الصّورة المتخيّلة إلّا في أمرٍ واحدٍ بعيد هو الويسكي. لم أكن أعرف إلى أين يذهبُ عندما يغادر في اللّيل، لكنّه لا يعود مصطحبًا أيّ شخصٍ جديرٍ بالاهتمام. وكلّ ما كان يأتي به لا يتجاوز علب الثّقاب من حانة فلاد المجاورة، وطبعًا، لا يبدو عليه أنّه شخصٌ له أصدقاء، حتّى لو كانوا تافهين مملّين، إلّا إذا أحصيت بعض الّذين يعرفهم على نحو سطحيٍّ، مثل شايْن أو أولئك الّذين يعرفونه في

(1) Underwood Typewriter: ماركة آلات كاتبة أمريكيّة عريقة، تأسّست سنة 1895 في نيويورك. اشتهرت كثيرًا في النّصف الأوّل من القرن العشرين.

الشّارع باعتباره شخصيّةً عجيبة. وعلى أيّة حالٍ، يعرفُ كلُّ سكّان الحيّ جيري ماغون. وبتلك الطّريقة تحديدًا، يوشكُ أن يكون رجلًا مشهورًا.

إضافة إلى ذلك، لم يكن جيري يُقضّي الكثير من الوقت في الكتابة، وإذا كانت الكتابة تعني وضع الكلمات فيزيائيًّا على الورق، فإنّه لا يتجاوز ساعةً في اليوم. وعندما يجلس للكتابة، فإنّه يمكث عند الطّاولة المطليّة بالمينا، الطّاولة ذاتها الّتي يستخدمها في الأكل وإصلاح الأدوات. كانت مكوّمة دومًا بالأشياء والأجهزة؛ ورق، كتب، صحون متّسخة، ملابس، مظلّة، وقطع ونتف من أشياء كان بصدد تفكيكها أو تركيبها من جديد. وكان من عادته أن يدفع هذه الأشياء جانبًا كي يفسح مجالًا يكتب فيه، فيكتب بواسطة قلم رصاصٍ في دفاتر مدرسيّة، من ذلك النّوع المخطّط بالأبيض والأسود الرّخاميّين والّذي يتضمّن مستطيلًا في وسطه مخصّصًا لكتابة الاسم والمادّة المدروسة. كان الاسم المكتوب على الدّفتر الّذي يستعمله طيلة فترة إقامتي معه كالتّالي: *الصّفقة الكبرى الأخيرة*. ولم يكن يتضمّن اسمًا للمادّة.

كان جيري يغمغم ويتمتم أثناء الكتابة. يظلّ يدندنُ بصوتٍ عالٍ، أو يهمسُ بحروفٍ غير واضحة كأنّه شخص مّا يتلو صلاةً في غرفةٍ بعيدةٍ، فيصل الصّوت محاطًا بهالةٍ معنى. لكنّ استخراج كلمةٍ واحدةٍ منه كان أمرًا مستحيلًا. كان يتمتم أيضًا حين لا يجلس إلى طاولة الكتابة. وفي الحقيقة، يظلّ جيري يهمسُ بأصواته تلك طيلة الوقت، باستثناء اللّحظات الّتي يتحدّث فيها مع شخصٍ مّا.

ولذلك، خمّنتُ أنّه يكتب كتبه في رأسه مثلي، وتلك فكرة مشجّعةٌ بالنّسبة إليّ. وعلى أيّة حالٍ، فقد كانت تلك هي الفترة الّتي صرتُ أتعامل فيها بشكل جدّيّ مع مسألة كتاباتي الخاصّة.

قد يُسرف جيري قليلًا في الشّرب من حينٍ إلى آخر. وعندما يعود إلى البيت، يشقّ طريقه إلى الفراش مصطدمًا بالأثاث، ثمّ يستسلم للنّوم بملابسه. أسمع صوته أثناء اللّيل، وهو يستيقظ لخلعها، ولكنّه في كلّ الأحوال يستيقظ دومًا ليتبوّل في المغسلة. وقد يحدث له من حينٍ إلى آخر أن يستسلم للسّكر والعربدة. ويقترنُ ذلك عادةً بنهايات فتراته الزّرقاء[1] (وهي فترات اكتئاب تعود بشكلٍ دوريٍّ ومنتظمٍ كأنّها ساعة مصنع)، والّتي يبدو أنّها تشعره في كلّ مرّة بالرّاحة. لم يكن السّكر يزعجني. -ولِمَ قد يفعل ذلك، خاصّة إذا تعلّق الأمر بشخصٍ له مثل سيرتي؟- لكنّني كنتُ أكره الفترات الزّرقاء. وخلالها، يستيقظُ كلّ اليأس الدّفين وكلّ الحزن الموجود في كتبه، ويطفو على سطح حياته، ويتصاعدُ إلى عينيه، فيغطّي وجهه مثل قناعٍ. وفي تلك الفترات، يكتفي بالجلوس على المقعد الجلديّ، متأمّلًا الجدار في جمودٍ تامّ.

كان يمتنع عن كلّ شيءٍ بما في ذلك تناول الطّعام. إضافةً إلى توقّفه عن إطعامي أيضًا. وذلك ما يدفعني إلى الشّعور بالتّوجّس وبكوني عديم الفائدة. ولعلّك صرتَ تعلم الآن أنّني أنا أيضًا

(1) يحيل المصطلح في الأصل إلى جملةٍ من اللّوحات ذات المناخ الكئيب القاتم، الّتي رسمها الرّسّام الإسبانيّ بابلو بيكاسو. وهيمن عليها حضور اللّون الأزرق.

صاحب شخصيّةٍ اكتئابيّةٍ، وأعرف كلّ شيءٍ عن شتّى أنواع اليأس. ولهذا السّبب، حتّى لو توصّلتُ إلى الكلام، فإنّني لن أُوفّق في قول أيّ شيء يُشعره بتحسّنٍ. وعندما يكون شخصٌ مّا مكتئبًا ويحدّثك قائلًا إنّ العالم باردٌ جدًّا وموحشٌ، وإنّ الحياة تفيضُ وحدةً وهي غارقةٌ في معاناةٍ لا معنى لها، فإنّ موافقتك على كلّ ما يقوله يضعك في موقفٍ سخيفٍ غريبٍ جدًّا. كانت هذه النّوبات تدوم عادةً بضعة أيّامٍ قبل أن تختفي، ولم أتوقّف خلالها، ولو مرّةً واحدةً، عن محاولة إخراجه منها. كنتُ أقوم بكلّ الحيَل الممكنة كي أسلّيه؛ أغنّي، أعزف البوغي ووغي[1] على البيانو، أشكّل من ملامحي أقنعةً مضحكةً، أؤدّي مشهدَ الجرذ المصروع، وباختصارٍ أفعل كلّ ما من شأنه أن يستخرج منه في سائر الأيّام تلك الضّحكة القويّة المقرقرة. لكنّه لم يكن ينتبه حتّى إلى وجودي. وبعد يومين أو ثلاثة، ينهضُ من كرسيّه بشكلٍ مفاجئٍ، يرشّ وجهَه بالماء البارد، يرتدي سترته وربطة العنق، ويُغادر من دون أن يتلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ.

في البداية، كانت ترعبني هبّات الخروج تلك. إذ كنتُ أحسبُ أنّه ذاهب على الأرجح للبحث عن بنايةٍ شاهقةٍ أو جسرٍ فوق مياهٍ جليديّةٍ، وكنتُ أتظاهر أحيانًا بأنّني جنجر، فأخرج على إثره، أفتّش عنه، لأجده في كلّ مرّةٍ قبل فوات الأوان، في مقصف مّا جالسًا بمفرده على مقعدٍ وهُو يتأمّل الثّلج يذوبُ في

(1) نوع من الموسيقى الّتي ذاع صيتها أواخر العشرينيّات من القرن الماضي. وهي تخصّ الجاز وترتبط عادةً بالرّقص. إذ تقوم على لعب وحدات أساسيّة من البلوز، وفقَ إيقاعٍ سريعٍ.

قدح الويسكي. أسحبه حينئذٍ من كمّ سترته في خجلٍ، وأقول له: «فلنعد إلى البيت يا جيري! هيّا من فضلك!». يُحرّر ذراعه ويتلفت نحوي غاضبًا، ولكنّه لا يقول أيّ شيءٍ. «رجاء يا جيري، عد إلى البيت. فأنا أحتاجك». وفي آخر الأمر، أتوصّل دومًا إلى إقناعه. كم كنتُ أحبّ تلك الطّريقة الّتي ينظر بها كلّ من في المقصف إلينا، والحزن بادٍ على ملامحهم جميعًا. في الواقع، لم أكن أفعل شيئًا طبعًا غير المكوث في البيت والشّعور بالقلق عليه. أمّا هو، فيغادر ليوم أو يومين. ثمّ يعود من جديد، ليسقط في السّرير، ويستسلم طويلًا للنّوم. وعندما يستيقظ، يستعيدُ ذاته القديمة مجدّدًا. ومن وجهة نظرٍ نفسيّةٍ، يمكن القول إنّ للسّكر منافع أكثر ممّا يعتقده النّاس ويقرّون به.

ذات صباحٍ، وبعد أيّامٍ قليلةٍ من انتقالي للعيش معه حين كنتُ ما أزال حبيسَ النّزل، فزعتُ من نومي بسبب ضجّةٍ كبرى. أخرجتُ أنفي من طرف علبتي، متلصّصًا، فتفاجأت لرؤية جيري، وهو يلفّ المقعد الجلديّ بذراعيه، يلهثُ، وينخر مُحاولًا أن يُلقي به عبر النّافذة. حسبتُه في البداية يريد رمي العجوز ستانلي خارجًا، وتوقّعتُ أن أسمع صوت ارتطامٍ هائلٍ في الأسفل. ولكنّه كان في الحقيقة يدفع الكرسيّ خارجًا، لينقله إلى قاعدة سلّم الطّوارئ المعدنيّة. وما إن ثبّته في مكانه، حتّى لحق به. وجلس ممسكًا كوب قهوة بيدٍ وعددًا من مجلّة لايف باليد الأخرى. استطعتُ قراءة العُنوان على غلاف المجلّة: «النّجاة من تسرّبٍ إشعاعيّ»، وتبيّن لي لاحقًا أنّ من عادته الجلوس هناك عندما يكون الطّقس جميلًا،

من أجل القراءة أو القيلولة. وقد يخلع قميصه أحيانًا ويستسلم لحمّام شمسيّ. له كومة شعر رماديّ مجعّد في صدره تمتدّ في شكل خيمةٍ حتّى سرّته. وفي عضلة عضده الأيسر، يُوجد وشمٌ لوردة حمراء كُتب تحتها بحروفٍ زرقاء مزخرفة امّحت مع الوقت فلم تعد قراءتها مُمكنةً، ولكنّي أعتقد أنّها تقول «إلى الأبد»، رغم أنّه من الممكن أن تكون الكلمة «ذكيّ» أو «انقلاب». كان يُسمّي سلّم الطّوارئ والمقعد في وسطه شرفتَهُ، تمامًا مثلما كنتُ أفعل في منزلي القديم، ولكنْ كلّ ما يمكن رؤيته من شرفته هو قفا بعض البنايات والزّقاق في الأسفل، حيث يوجد الكثير من صناديق القمامة المحطّمة، وحيث يُمكننا أن ندرك السّماء طبعًا. لقد توقّفت المدينة عن استبدال المصابيح الفاسدة في الشّوارع، حتّى ذهبت كلّها تدريجيًّا. وأصبح الحيّ مظلمًا جدًّا، حتّى إنّنا صرنا نجلس في الشّرفة ليلًا، ونشاهد النّجوم. إنّها أوّل نجومٍ أراها في حياتي. ومثل ذراع جيري، كانت تَقول «إلى الأبد».

لقد كان المقعد الموضوع في سلّم الطّوارئ سببًا كذلك لحدوث أوّل طَرْقٍ نتلقّاه على بابنا، إذ جاء إلينا رجلان من رجال الإطفاء؛ أحدهما قصير في زيٍّ نظاميٍّ والآخر ضخمٌ يرتدي قميصًا أبيض مفتوح الياقة، يكشف عن شعرٍ في صدره يشبه شعر جيري، إلّا أنّه أسود اللّون. قال له إنّ المقعد يسدّ مخرج الطّوارئ. وسمّى ذلك «خطرًا على السّلامة». جادله جيري قليلًا، مؤكّدًا أنّ بإمكانه أن يقفز من فوق المقعد إذا نشب حريقٌ في المكان. «هَل تريدان أن أقفز الآن فوق المقعد أمامكما؟». لا، لم يرغبا في ذلك، كانا غاضبين

بسبب جداله، وقالا له إنّ عليه أن يُخرج المقعد اللّعين من سلّم الطّوارئ فحسب. ولذلك عاد جيري، ليصارع ستانلي من جديد وهو يتذمّر ويدمدم مثل دبٍّ. وبعد يومين، أخرج المقعد إلى حيثُ كان. وسمّى ذلك كعادته مُقاومةً للنّظام.

عندما شُفيتْ ساقي تمامًا، شرعتُ في استطلاع المكان بشكلٍ جدّيٍّ بحثًا عن مخرجٍ، فرغم أنّ الغرفة لطيفة، إلّا أنّها ما تزال شبيهةً بزنزانةٍ. فضلًا عن أنّي بدأتُ، بعد أسابيع قليلة، أشتاق حقًّا إلى متجر الكتب وجلبة السّبت، وحتّى إلى الرّحلات اللّيليّة المخيفة في أنحاء الميدان. ولكنّني اشتقتُ، أكثر من أيّ شيء آخر، إلى مسرح ريالتو والحسناوات. كان جيري يملك بعض الأعداد من مجلّة تُسمّى «بيب شو». وأحببتُ أن أتصفّحها، وأمتّع نظري بصور الحسناوات شبه العاريات، الجاثمات على أربع أحيانًا والواقفات أحيانًا أخرى. كنّ يستلقين على فرُشٍ في العادة، لكنّ الأمر يختلف عمّا رأيته في الأفلام.

ظننت في البداية ألّا طريق تفضي إلى خارج الغرفة، وأنّ الهروب منها أمر مستحيل. كان الصّدع أسفل الباب صغيرًا جدًّا، ورغم أنّني كنتُ قادرًا على الأرجح على المغادرة من طريق سلّم الطّوارئ، لكنّني لن أتمكّن ساعتها من التّسلّق من جديد. لم أكن أنوي الرّحيل دون رجعة. وطبعًا، كان في مقدوري أن أندفع خارجًا في إحدى المرّات الّتي يفتح فيها جيري الباب، فأنا أسرع منه، حتّى مع ساقي المصابة. لكن، ليس ذلك ما كنتُ أريده. إذ لم أرغب في إثارة انتباه

جيري بتلك الطّريقة، وكلّ ما كنتُ أسعى إليه هو أن أغادر متى شئت، لأحافظ على شعوري بالحرّيّة. بالإضافة إلى ذلك، صرتُ أشعر بمللٍ قاتلٍ حين يكون جيري في الخارج، فقد قرأتُ كلّ الكتب مرّتين على الأقلّ. وكان هناك الكثير من المساءات الخاوية واللّيالي الوحيدة الموحشة. وعرفتُ من خلال قراءاتي أنّ المرء يقومُ بأشياء فظيعة حين يشعر بالسّأم، أشياء تقوده إلى البؤس حتمًا. في الحقيقة، هو يقوم بهذه الأشياء من أجل أن يصير بائسًا ولا يُضطرّ بذلك إلى الشّعور بالسّأم مجدّدًا.

أوشكتُ أن أبلغ تلك النّقطة حيثُ شرعتُ في العمل على الثّقب العظيم، وقد تعلّمت على مرّ الزّمن الكثير عن الثّقوب وأين ينبغي أن يحفرها المرء (حيثُ توجد أجهزة كهربائيّة غير مثبّتة على نحو جيّد، أو ألواح أرضيّة لا تكون ثابتة، وفي أيّ موضع سباكة سواء أكان في الجدران أم الأرضيّات). وبعد أن قمتُ بفحصٍ دقيقٍ لكلّ ركنٍ في غرفة جيري، وجدت ألّا شيء فيها يشبه ما ذكرته سابقًا. والثّقب المادّيّ الوحيد الّذي عثرت عليه -إذا جاز لي أن أستخدم لفظة مادّيّ- هو مجرّد ثلمٍ صغير عند حافّة أنبوب تصريف المغسلة، قد يمرّر في أحسن الأحوال فأرًا سمينًا، ولكنّه لن يسمح بعبور أهزل جرذ في العالم. ولكن بصفتي واحدًا من سلالة حفّاري بيمبروك القدامى وتلميذًا لهم، فإنّني لم أستسلم. وذات يوم عندما كان جيري في الخارج، رحت أوسّع الثّلم الصّغير. وسمّيتُ ذلك «ورشةَ بناء الثّقب العظيم». لم يكن الأمرُ عسيرًا في الحقيقة، فقد جعَلَت عقودٌ من الرّطوبة الخشب إسفنجيًّا وقابلًا للنّخر بسُهولةٍ.

وفي غضون يومين فحسب، أنهيتُ مشروع الثّقب العظيم وجعلتُ حوافّه ناعمةً صقيلةً وأركانه مدوّرةً.

وفي انتظار أن أُجرّبه، كدتُ أعجز عن التحكّم في حماسي. ظللتُ أطوف مهرولًا داخل الغرفة مثل مجنونٍ، أفتح الكتب وأتركها مرميّةً على الأرضيّة، إذ لم أستطع التّركيز على الكلمات، أو أقضم ساهمًا حوافّ علبتي محدثًا جلبة في المكان. وفي خضمّ هذه الفوضى ألقى جيري الصّحيفة الّتي كان يقرؤها من يديه، وصرخ: «إرْني! ألا تستطيع بحقّ المسيح أن تمكث ساكنًا لدقيقةٍ واحدةٍ لعينة؟!». ولحسن الحظّ أنّه استيقظ لاحقًا في ذلك المساء. عقد ربطة عنقه. وغادر. وما إن سمعتُ باب الشّارع يُفتح وينغلق من خلفه حتّى انبطحتُ أرضًا. لم أرد أن أخيّب ظنّه بتلك الطّريقة. ولكن، كيف يمكن لي أن أشرح موقفي؟ لو كنتُ أجيدُ الكتابة لتركتُ له رسالةً: «عزيزي جيري، لقد أكلتُ من أرضيّتك حتّى صنعتُ ثقبًا فيها. وها إنّني ذاهب للتّنزّه قليلًا. سامحني ولا تقلق عليّ. مع حبّي. إرْني». وقد أختمها بدلًا من ذلك بـ«المخلص لك إرْني».

وجدتُ تحت الأرضيّة نفس الأخاديد المعتادة المكسوّة بالغبار بين العوارض، ولكن ما من علامة أو أثر يدلّ على الأسلاف، ليس هناك أيّ آثار لأسنان أو أنفاق. اقتفيتُ أنبوب التّصريف المنحدر عبر الأرضيّة حتّى أدركتُ نقطة اتّصاله بأنبوبٍ آخر أكبر منه حجمًا، يصعد من مجرى سفليّ آخر مظلم وبعيد. دفعتُ قطعًا من الجصّ المتكسّر عند حافّته، فارتدّت عند جوانب المجرى ولحقها صمتٌ

طويل صاعد من أعماق نائية. اكتشفتُ أنّهما نفس المجرى ونفس الأنبوب الأسود الكبير اللّذين تسلّقتُهما صعودًا من القبو في ذلك اليوم المصيريّ، منذ زمن بعيد. لقد تعلّمت الكثير عن السّباكة منذ تلك الأيّام، وذلك بفضل كلّ الكتب الّتي قرأتُها تحت لافتة *صيانة منزليّة*. تعلّمتُ مثلًا أنّ هذا الأنبوب الأسود هو مسلك الصّرف المركزيّ الّذي تصبّ فيه كلّ مغاسل ومراحيض البناية، وهذا ما يفسّر كبر حجمه واتّصاله في الأعلى بأنبوب تنفيس عند السّقف، يمنع تشكّل فراغٍ عندما يتدفّق الماء. كنتُ أستمتع بمعرفة أشياء من هذا النّوع، رغم أنّ معرفة المرء لطريقة عمل المرحاض لا تُضاهي مطلقًا لذّة استخدامه ودفق الماء فيه، وتلك متعة اكتفيتُ بتخيّلها على نحوٍ مبهم. *في مجاري الذّهن الجافّة: أحلام سمكري*.

سمّيتُ هذا المجرى المركزيّ المصعد. وكان يقود مباشرةً إلى قبو متجر بيمبروك للكتب، متضمّنًا موقفًا عند كلّ طابق. كان الصّعود والنّزول عسيرين هذه المرّة، أعسر من أيّ تسلّقٍ سابقٍ. وليس ذلك بسبب ساقي المصابة فحسب، بل ليت المسألة لم تتجاوز ساقي، صرتُ أتوقّف مرارًا لألتقط أنفاسي، عاجزًا عن التّشبّث بقدميّ الأماميّتين مثلمَا اعتدتُ أن أفعل.

توقّفت أوّل مرّة عند عيادة طبيب الأسنان في الطّابق الثّاني، والّتي تتكوّن من قاعة انتظار تجاوز غرفة العلاج. كانت جدرانها بيضاء وأرضيّتها مشمّعة، ناعمة ولامعة، تضوع منها رائحة شبيهة برائحة صحيفةٍ مبلّلةٍ. وفي مركز غرفة العلاج، يوجد كرسيّ ضخمٌ

يستند إلى قاعدةٍ فولاذيّةٍ، وبجانبه تتدلّى أدوات الحفر معلّقةً في محملٍ، لم يكن هناك أيّ شيءٍ للأكل أو القراءة، ما عدا كتيّب في تسوّس الأسنان، يتضمّن صورًا ملوّنة لأسنانٍ فاسدة. مرّرتُ لساني على أسناني الأماميّة لأتثبّت من سلامتها، حسنًا، ليست لديّ أيّ مشكلة فيها. سوف أموت. وبعد قرونٍ من ذلك، يأتي علماء أركيولوجيا (هل يظلّ هناك علماء أركيولوجيا في ذلك الزّمن؟) فينبشون أسناني الصّفراء الطّويلة، ويقولون في ما بينهم: «انظر إلى هذه الأسنان يا جو! ليس فيها أيّ تسوّس»، تمامًا مثل الصبيّ اليافع في الكتيّب، والّذي يقول لأمّه مبتسمًا ابتسامةً لامعةً: أُنظري يا أمّي! ليس هناك أيّ تسوّس». أُنظري يا أمّي، ما من تسوّس. أوه يا فُلُو! فلو الطّيّبة الطّريفة! كانت لك سماتك الخاصّة المتفرّدة. وهي تبدو لي الآن رائعة؛ تلك المشية الغريبة، ذاك الشّخير الهائل وذاك الحليب ذو الطّعم المميّز. ليس هناك أيّ تسوّس أو تجويف. لكنّ الذّاكرة في المقابل بصدد التّآكل والتّسوّس. ألاحظ أنّ مزاحي لم يعد يضحكك. إلى أين غادر الضّحك؟

ما أن وجدتُ منفذًا إلى المصعد حتّى استعدتُ عادتي في التّسلّل إلى متجر الكتب كلّما غاب جيري، وقد عدتُ أيضًا إلى مشاهدة العروض في مسرح ريالتو. وهو المكان الوحيد في المنطقة كلّها الذي يحافظ على سير عمله. وأعتقدُ أنّه بعد إغلاق العديد من الأماكن الأخرى، لم يجد النّاس ما يفعلونه غير الذّهاب لمشاهدة الأفلام. أحيانًا، يرجع جيري قبلي إلى البيت، ممّا يسمح له باكتشاف رحلاتي الخاصّة. لكنّه لم يكن يعترض على ذلك. فقد كان يُعاملني بصفتي

ندًّا له. كان يراني وأنا أنزلق عبر الثّقب، بينما يكون جالسًا إلى الطّاولة، فيلتفت إليّ ويقول: «مرحبًا إرْني. كيف كانت جولتك؟». لقد كان قلبي يتحطّم في تلك اللّحظات. إذ كنتُ أودّ لو أجيبه: «مرحبا جيري، كانت جيّدةً».

الآن وقد أصبحتُ قادرًا على بلوغ متجر الكتب مجدّدًا، فإنّي أقضّي معظم النّهار هناك في مواقعي المعتادة، متلصّصًا من المنطاد ومتأمّلًا الخارج من الشّرفة، حذِرًا دومًا ومختبئًا، لا يبرز منّي سوى عين واحدة وطرف أنفي. وقد يحدث أن أقضّي ليالي كاملة هناك، وأنا أقرأ. لم يعد متجر الكتب ذلك المكان السّعيد الّذي ألفتُه من قبل. هناك جوٌّ هزيمة يخيّمُ من فوقه وطبقة ملموسة محزنة من الغبار أيضًا. من الواضح أنّ شاين لم يستعمل ريشة الدّيك الرّوميّ لنفض الغبار في الآونة الأخيرة. لا نفض للغبار ولا صفير. وتحت عينيه حقيبتان كبيرتان كأنّهما كدمتان. ولم يكن هناك زبائن كالعادة أيضًا. لقد أضرب النّاس عن القدوم إلى هذه المنطقة من المدينة. وأحسبُ أنّهم يستبطنون فكرة امّحائها.

الفصل الحادي عشر

أخذني جيري معه إلى الحديقة العامّة ذاتَ صباحٍ جميلٍ من صباحات سبتمبر. كنّا قد أنهينَا للتّوّ فطور صباحنَا المعتاد، المُتكوّن من الخبز المُحمّص والقهوة المركّزة، عندمَا تطاول فسَحب العربة الحمراء من بين كومة الصّناديق. توقّعتُ منه أن يضع فيها محمّصتي البسكويت والخبز المرميّتين في الخزانة منذ أسابيع، ولكنّه أخذ بدلًا من ذلك العلبة الّتي في الأعلى، وضعها على الأرضيّة، وراح يُخرج منها كتبًا ويشحن بها العربة. التقطتُ ملمح الغلاف الأحمر والأصفر لروايته *العشّ*، حيث الأنياب الحمراء القاطرة دمًا للجرذ العملاق، ولكن كانت هناك أيضًا نسخ كثيرة من كتاب آخر. كان عاديًّا مقارنةً بكتابه، غلافه ورقيّ وصفحاته آيلةٌ للتّفكّك. عبّأ العربة بنسخ عديدة من كلا الكتابين. ثمّ التقط العربة والكتب معًا وحملهما بين ذراعيه -نعم، لقد كان قويًّا إلى تلك الدّرجة- وسمعتُ وقع خطواته النّازلة عند الدّرج. كنتُ على وشك أن أستقلّ المصعد نزولًا إلى متجر بيمبروك للكتب، عندما سمعتُ وقع خطواته العائدة من جديد. «تعال إلى هنا يا إرْني!»، قال لي، قبل أن ينحني ويلتقطني. رفعني إلى كتفه، ومكثتُ هناك متشبّثًا بقدمٍ بخصلة شعر

طليقة، ومشينَا معًا على الرّصيف. لقد ركبتُ كتفه من قبل. وتجوّلنا في الغرفة. فأحببت ذلك جدًّا. شعرتُ كأنّني لُورنس العرب، وهو يمتطي جملًا عبر الصّحراء. لم أتردّد طبعًا في تفحّص صدغيه حين وضعني هناك أوّلَ مرّة، فبعد تجربتي السّيّئة مع نورمان شاين، لم أعد قادرًا على التّسليم بأيّ شيءٍ، ولكنّني بعد أن درسته جيّدًا، لم أجد أيّ نتوءات هلاليّة. ليس هناك سهلٌ منبسط على نحوٍ مُطَمْئِنٍ. ولذلك كتبتُ أسفل صورة جيري *نزيه ولطيف*.مكتبة سُر مَن قرأ

راكعًا إلى جانب العربة، نظّم جيري الكتب في أكداس مستقيمة. وعمد إلى إبراز العناوين. تسلّقتُ قمّة الحزمة الأعلى. وراح هو يدفع العربة بي وبالكتب داخلها، في دفء أشعّة الشّمس المشرقة على امتداد شارع تريمونت، وصولًا إلى الحديقة العامّة. وبهذه الطّريقة، وجدتُ نفسي من جديد في عالم بيع الكتب.

لقد رأيتُ من قبل عالم البشر في ضوء النّهار مرّةً واحدةً فحسب. كانت الشّمسُ في أوج شروقها، ترسل أشعّتها على البنايات والأشجار المورقة والأزهار الملوّنة بشتّى الألوان والنّاس العابرين في الطّريق. وفي تلك المرّة السّابقة، كاد الشّعور بالخوف يشلّني. ولكنّني هذه المرّة، إذ كنتُ راكبًا في عربة جيري، لم أشعر بأيّ خوفٍ، إضافةً إلى أنّي استطعتُ أن أنظر في وجوه النّاس، وأرفع بصري إلى أعلى نحو الأشجار. وشعرتُ بما أحسبُ أنّ النّاس يسمّونه السّعادة. تلفّظتُ بعبارة «عالم جميل». وتركتها تطفو في الأفق الأزرق، وتتموّج مثل لافتةٍ من قماش. طبعًا، كانت الغيرة

حاضرةً أيضًا في شكل مرارةٍ في الفم تشبه العصارة الصّفراويّة، فهذا العالم في واقع الأمر ليس لي، ولكنّني ابتلعتُها. كان النّاس يحدّقون فينا أثناء عبورنا. ويركّزون عيونهم عليّ. وحدّقت فيهم أنا الآخر بعينيّ السّوداوين اللّتين لا ترمشان بتاتا.

أقمنا مكتبتنا المتجوّلة إلى جانب محطّة المترو في شارع الحديقة، أسند جيري لافتةً من الورق المقوّى إلى العربة، وقد كتب عليها بحروف مخطوطة ملوّنة: *كتب للبيع / كتب موقّعة من المؤلّف*. لديّ دون شكّ خبرة معتبرة في ما يخصّ هذا الجهد التّسويقيّ. وكنتُ قادرًا على تقديم النّصح المفيد -لو أنّه طلب منّي- وكنتُ لأقترح، دون أن أدّعي أنّني السّيّد العليم بكلّ شيء، أن نذهب للنّاس فنُواجههم ونتحدّث إليهم. كنتُ لأقول: «جيري يا ولد، عليك أن تلصق البضاعة في أنوفهم، وتجعلهم يعطسون الأموال حتّى يتخلّصوا من وجهك». كنتُ لأبدو مثل جدٍّ حكيمٍ في شريط سينمائيّ، يقدّم نصحه لفتى مازال يتحسّس طريقه في العالم. (ها إنّي أراه هُناك بذقنه الهشّ وشعره المسرّح إلى الخلف) لكنّ جيري لم يكن من النّوع الملحّ، وهو رجلٌ فظيعٌ من زاوية عالم التّجارة والأعمال. إنّه يكتفي بالاتّكاء على جدار المحطّة، مدخّنًا السّيجارة تلو الأخرى، ومنتظرًا من النّاس أن يأتوا إليه. وبتلك الطّريقة، لم نحصل على الكثير من الزّبائن.

في المساء عندما يحين وقت مغادرة المدارس، يمرّ قطيع من المراهقين في الجهة الأخرى من شارع الحديقة. فيَصرخون مُوجّهين

كلماتهم إلينا، هاتفين في انسجام: «ماغون! ماغون! رجل من القمر». ويردّدون ذلك مرارًا وتكرارًا. في المقابل، يملك جيري قدرةً كبيرةً على التّحكّم في نفسه، إذ لم ينظر ولو مرّةً واحدةً في اتّجاههم، ولا يمكن للمرء أن يتيقّن ما إذا كان قد سمعهم أصلًا. جاء إلينا بعض الأطفال الأصغر سنًّا. وإنّما فعلوا ذلك بسبب وجودي. كانوا يركعون إلى جانب العربة، ويتحدّثون إليّ بلغة الرّضّع، ويُحاولون دفعي إلى القيام ببعض الحركات كما لو أنّني واحد من القردة. لقد أخرج أحمق صغير قلمه الرّصاص. وقال لي، آمرًا: «عضّ هذا أيّها الجرذ! هيّا عضّه!». إنّ كلمات كهذه من فرْخٍ صغيرٍ مازال يتهجّى *ديك وجاين*[1] أمرٌ مهيّن حقًّا.

مكثنا في تلك البقعة طيلة اليوم، حتّى مجيء ساعة الذّروة. وكنتُ أتفرّج على النّور يتبدّل في الأشجار. اشترت قلّة من النّاس كتبًا، فيما اكتفى آخرون بالتّوقّف من أجل الحديث فحسب. وكان أغلب هؤلاء المتحدّثين يشبهون جيري، أناسًا بلا نقودٍ لاقتناء الكتب حسب ما يبدو عليهم، طفقوا يتحدّثون بنميمة عن بعض معارفهم، ويتمازحون في ما يخصّ إفلاسهم. كانوا يتنادون طيلة الوقت بعبارة «يا رجل». وقد اهتمّوا بي كثيرًا، حتّى إنّ أحدهم سأل جيري مرّتين ما إذا كنتُ مُرَوَّضًا. أمّا جيري، فقد أجابه بالطّريقة نفسها في كلّ مرّة: «لا يا رجل. إنّه ليس مُروَّضًا. بل هو مُتحضّر». وحينئذٍ، التفت أحدهم إليّ (كان اسمه غريغوري) وقال

(1) شخصيّتان رئيستان من سلسلة قصص موجّهة في كتب تأسيسيّة للأطفال، مخصّصة لتعلّم القراءة، ابتدعها في الأصل زيرنا شارب. ثمّ اقتبسا لاحقًا في السّينما.

لي، إذْ كان مغادرًا، في نبرةٍ مرتجلةٍ عفويّةٍ: «أراك قريبًا يا رجل». لقد قتلني بجملته تلك.

ورغم أنّه ما من أحدٍ كان يدقّ على باب جيري، إلّا أنّه عرف الكثير من النّاس الودودين الّذين يُحيّونه عند مروره («كيف الحال جيري؟» «هل أنت بخير جيري؟»). حتّى رجال الشّرطة يفعلون ذلك. أعتقد أنّ المرء إذا كان وحيدًا فإنّه يحتاج إلى أن يكون مجنونًا بعض الشّيء، شريطةَ ألّا يبالغ في ذلك. وتلك سياستي على أيّة حالٍ. وفي نهاية الأمر، تمكّن جيري من بيع بعض النّسخ من «العشّ». وأعتقد أنّ النّاس كانوا مُنجذبين إلى الصّورة الملوّنة للجرذ العملاق. وفي كلّ مرّةٍ يقتني فيها شخصٌ مّا نسخةً، يوقّعها له جيري ويُضيف إليها نسخة مجّانيّةً من كتابه الآخر مع بطاقة عمله الّتي كُتب فيها:

مكتبة
t.me/soramnqraa

إ.ج. ماغون

«أذكى رجل في العالم»

فنّان خارقٌ للعادة وكائنٌ فضائيّ

وبتلك الكلمات أيضًا، كان يوقّع كتبه؛ فنّان خارق للعادة وكائن فضائيّ. ويبدو أنّها تفاجئ النّاس وتثير إعجابهم في الآن ذاته. لا ينطبق هذا على جميع النّاس طبعًا. لا ينطبق على البرجوازيّين الحقيقيّين مثلًا. فبعضهم، أولئك الذين يرتدون سترةً ويحملون حقيبةً، يكتفون بالنّظر إلى جيري والابتسام ابتسامةً خبيثةً. يُمكنك أن تراهم يَتهامسون ويَضحكون. أُوه، لديهم أسنان جميلة، ولكن

كلّما حطّت نظرتهم عليّ، أُبادلهم نظرة فولاذيّةً باردةً مفعمةً بازدراء مُطلق، لا يمكنهم تحمّلها، نظرة تمسح الخبث والسّخرية عن وجوههم النّاعمة.

ومن حينٍ إلى آخر، يتوقّف بعض النّاس ليجادلوا جيري ويحاولوا وصْمه بالغباء والحمق. لم يكن في وسعهم تحمّل فكرة أنّ هذا العجوز الأشعث الواقف إلى جانب العربة هو أذكى رجل في العالم. ولذلك يُردّدون له قولهم: «إذا كنت أذكى رجل في العالم، فكيف لك أن تبيع الكتب عند عربة كهذه؟!». كانُوا يُردّدون حماقات برجوازيّة أخرى لا تختلف كثيرًا عن هذه. ومع ذلك، لم يغضب جيري ولو مرّةً واحدةً. كان يشرح لهم في المقابل، وبصبرٍ كبيرٍ، أنّه حرّ في الحقيقة، لأنّه ليس عبدًا أجيرًا وليس مضطرًّا إلى تخريب مؤخّرته بالجلوس ثماني ساعات في اليوم لإنجاز عملٍ لا معنى له. لم يكن يرفع صوته مُطلقًا، بل إنّه يصغي إليهم جيّدًا وهم يتكلّمون، وأحيانًا بعد فترةٍ وجيزة، يشرعون في خوض حوارات حقيقيّة عميقة. ويمكنك القول بسهولةٍ إنّهم قد شرعوا في الإعجاب به، حتّى إنّ بعضهم ينطلقون في الحديث عن كآبتهم ومهنهم الخرقاء وزيجاتهم البائسة. وفي الأغلب الأعمّ، ينتهون إلى اقتناء نسخة من كتابه، وأحسب أنّهم كانوا يُعوّلون عليها لتحسين مزاجهم عند عودتهم إلى البيت.

لم يكن غلاف رواية جيري الأخرى مُلوّنًا. فقد كانت في الحقيقة كومةً من الصّفحات المتناثرة الّتي طبعها بنفسه في متجرٍ صغيرٍ عند الميدان. لقد حوّل الصّفحات المتناثرة إلى كتابٍ من خلال صنع

شطيرة، طرفاها قطعتا كرتونٍ بنّيّ. ثمّ قام بثقب الكومة. وخاط الكتلة كلّها بخيوطٍ استلّت من كيس البقالة. بدا لي الأمر برمّته مقرفًا، لكنّني تقبّلته بعد ذلك نظرًا إلى ماضيّ الشّخصيّ. لقد كتب على كلّ نسخة بخطّ يده، ومستخدمًا قلمًا أزرق، في حروف كبيرة مغلّظة: *مشروع الإنقاذ*.

تنطلق الحكاية على كوكب الأرض بعد ما يناهز مائة عام على مرور حرب حراريّة نوويّة بين الإمبراطوريّتين الأخيرتين، الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتّحاد السّوفياتيّ، وهي حربٌ دمّرت بالمعنى الحرفيّ للكلمة الحضارة الإنسانيّة. وبالإضافة إلى تخريب كلّ المدن الكبرى تقريبًا، وكذلك المدن الصّغيرة، رسّخت الحرب في عقول النّاجين القرويّين نفورًا تامًّا من كلّ ما هو تكنولوجيّ. فقد كانوا يعتبرون التّكنولوجيا مسؤولةً على نحو مّا عن الكوارث الّتي حلّت بهم. لم تعد هناك حكومات حقيقيّة على النّحو الّذي نشهده الآن، وإنّما فرقٌ متجوّلةٌ من أمراء الحرب فحسب، أو جماعات متفرّقة من المزارعين. كان هؤلاء المزارعون يحرثون الأرض بواسطة محاريث خشبيّة وبغال تقودها. وعندما يحرثون ليلًا، يتوهّجُ الرّمل المُشعّ في أعقابِ المحاريث مثل الفسفور. وكان النّاس في شتّى أصقاع الأرض يعانون من أمراضٍ وأوبئةٍ لا يُمكن تخيّلها. ومن بين هذه الأمراض الكثيرُ ممّا لم يُسمع به أصلا قبل الهولوكوست[1]. ومعظم

(1) تعني في أصلها الاشتقاقيّ «محرقة الجميع». هي إبادة جماعيّة وقعت خلال الحرب العالميّة الثّانية، قُتل فيها ما يناهز ستّة مليون يهوديّ أوروبيّ على يد النّظام النّازيّ الّذي يقوده أدولف هتلر، والمتعاونين معه.

هذه الأسقام الجديدة يصيب الجلد، ممّا جعل النّاس مكسوّين بدمامل وبثور غريبة مؤلمة. وبسبب نفاذ الأشعّة إلى كلّ شبر من الكرة الأرضيّة، كان نصف الأطفال يُولدون مُشوّهين معوقين، عُمْيًا ومعتوهين. أمّا الأديان القديمة والأيديولوجيّات الّتي لعبت أدوارًا بارزة في اندلاع الحرب الأخيرة الّتي تحوّلت ذكراها إلى كابوس متكرّر يسكن اللّاوعي الجمعيّ، فقد فقدت مصداقيّتها تمامًا. ولكن بما أنّ الجميع يُعاني من الجهل وَالعَتْه، فقد انتشرت الأديان الجديدة مثل الأقحوان. ولم يكن معظمها في المقابل ينتشر على نطاقٍ واسعٍ أو يدوم طويلًا، إلى أن ظهر النّاجون.

لقد أسّس هذه الفرقة أمير حربٍ دمويّ على نحوٍ لا مثيل له، اسمه جون هانتر. لقد كان بصدد النّهب والاغتصاب في قريةٍ صغيرةٍ ذات يوم عندما أسقطه عن حصانه فرعُ شجرة، ورغم أنّه لم يتأذّ في الظّاهر، إلّا أنّه شرع سريعًا في استقبال رسائل من الفضاء الخارجيّ. وقد أنبأته هذه الرّسائل أنّ البشر ليسوا في الأصل كائنات أرضيّة، ولم يتطوّروا مع بقيّة الفصائل والأنواع. وإنّما جاؤوا إلى الأرض بصفتهم ناجين من تحطّم سفينةٍ فضائيّةٍ. لقد كانت تعاليم هذا الدّين الجديد متناسقة تمامًا مع شعور الجميع آنذاك بعدم الانتماء إلى الكوكب. وهو أمر يمكن تفهّمه بسهولةٍ كبيرة. قال جون هانتر للنّاس إنّهم في حاجةٍ إلى الإنقاذ. ولكي يتمّ ذلك، يجب إرسال إشاراتٍ إلى السّفن الفضائيّة العابرة. وبما أنّهم لم يملكوا سوى تقنيّات بسيطة لا تشمل الرّاديو أو أيّ شيء من ذلك القبيل، فإنّ إرسال إشارةٍ إلى مركبة فضائيّة يعتبر بالنّسبة إليهم مشكلةً كبرى.

ولكنّ جون هانتر يملك الحلّ. قال لهم إنّ عليهم بناء هرم كبير جدًّا يمكن أن يُرى من الفضاء. وقضّى عامين كاملين، وهو يعدّ له الأوتاد ويستقدم له المزيد من التّابعين والأنصار أينما ذهب. وإذ تمّ تحديد قاعدة الهرم غطّت كلّيًّا ما كان من قبل ولايتي نبراسكا وكانساس ومعظم مساحة ميزوري وآيوا وداكوتا الجنوبيّة.

منقادةً إلى حماستها، انغمست حشودُ النّاس في العمل، حفرًا ونقلًا للحجارة. وسريعًا أصبح الملايين منهم منهمكين بشكلٍ محمومٍ في العمل الشّاقّ. ومع مرور الوقت، تطوّرت تقنيّاتهم الهندسيّة وأشرقت البيروقراطيّة. ومن أجل إطعام الملايين، توسّعت الفلاحة وتكثّفت. ظهر المحراث الحديديّ والإسطوانة والمسلفة وكذلك بعض نماذج أساسيّة من آلات الدّرس. وبُني في كلّ ركن من أركان الهرم قصر هائل يُحاذيه معبد من أجل جون هانتر وكهنته. وعندما توفّي جون هانتر، خلفه ابنه اللّامع القاسي كيفن هانتر. ثمّ جاء من بعده الضّعيف الفاسق ويلسون هانتر. وهكذا استمرّ الأمر جيلًا بعد آخر وصولًا إلى القائد الأخير، المجنون بأتمّ معنى الكلمة، بوب هانتر. كان العمل قد استمرّ حينئذٍ مائة وعشر سنوات. وقد استنفد بناء الهرم العملاق تقريبًا كلّ موارد الكوكب الضّئيلة، بينما خرّب التّشوّه والمرض النّاس. وفي الختام، هلك آخر المتبقّين من البشر في عاصفةٍ ثلجيّةٍ، أثناء محاولتهم سحب كتلة هائلة من الغرانيت من ولاية ميشيغان. وبعد قرونٍ لاحقة، حطّت فعلًا سفينة فضائيّة على سطح الأرض. وكان ركّابها مندهشين لمرأى الهرم الشّاسع غير المكتمل. فبنوا مركز دراسات كبيرًا على الأرض

مخصّصًا لدراسته فحسب. لكنّهم لم يتمكّنوا قطّ من التّعرّف على غاية بنائه.

لم تعجبني هذه القصّة بقدر ما فعلت من قبل رواية العشّ. وقد يكون ذلك بسبب عدم وجود أيّ جرذ فيها. في المقابل، أحببت عنصر الحكاية العائليّة وتلك الطّريقة الّتي تحوّل وفقها آل هانتر، بسبب فساد عُقولهم بحبِّ السّلطة والأشعّة النّوويّة، إلى الضُّعف والجُنون في نهاية المطاف. لقد أحببتُ الرّسالة المُضمّنة هَهنا. يَقول جيري إنَّ النّاس لَا يُريدون نشرَ كتبه، لأنّهم خائفون من رسائلها. ولكنّني أحسب تلك الرّسالة مُتّفقةً، على أيّة حالٍ، مع نظرتي للحياة؛ كلّ يوم يمرّ يجعلنا أكثر ضعفًا وأشدّ جنونًا.

الفصل الثّاني عشر

قضّيتُ مع جيري أوقاتًا كثيرة ممتعة. وكنت أحبّ بشكلٍ خاصّ جلسات فطور الصّباح، صحن القهوة ذات الطّعم القويّ بالحليب وقراءة الصّحيفة معًا. لقد قرأنا ذات يوم مقالًا طويلًا في صحيفة الغلوب عن أدولف آيشمان[1]. وقد تضمّن صورًا لقطارات تحمل شحنةً من البشر الجائعين الّذين يمدّون أياديهم النّحيلة من خلال شقوق عربات الماشية وأكوام من الجثث الهزيلة الّتي تملك وجوهًا شبيهة بوُجوه الجرذان. قال جيري إنّه يشعر بالعار لكونه إنسانًا. وكانت تلك فكرة جديدةً بالنّسبة إليّ.

توصّلتُ إلى الاستمتاع بالقهوة والنّبيذ أيضًا، رغم أنّني لا أشرب النّبيذ في الصّباح بتاتًا، ولا حتّى خلال المساء، إلّا إذا نزل المطر. يشرع جيري في فتح العلب عندما يحين وقت العشاء، وقد كانت العلبة المفضّلة بالنّسبة إلينا حساء لحم البقر من نوع دنتي مور. وقد يطبخ أحيانًا بعض الأرزّ لمرافقتها. وفي أحيانٍ أخرى، عندما نكون مُفلسيْن، يصير العشاءُ برمّته أرزًّا مع صلصة الصّويا. كان

(1) أدولف آيشمان (1906–1962) مجرم حرب نازيّ وأحد المسؤولين الكبار في الرّايخ الثّالث.

شارب جيري كثيفًا جدًّا، حتّى إنّه يجذب قطع الأرزّ مثل المغناطيس عندما يأكل. يبدو مشهدها حينئذٍ كأنّها تطير إليه. لاحقًا، حين أصبحتُ أشعر بالأمان في علاقتنا، أخذتُ أصطادها منه بقدميّ وآكلها. ولطالما أضحكه ذلك. عندما يضحك جيري يسهل على المرء أن يتخيّل أنّه أسعد رجلٍ في العالم، وليس أذكى واحدٍ فحسب.

لم يكن يغادر دومًا في اللّيل. وأحيانًا وبشكل متزايد مع تتالي الأسابيع وبرودة الطّقس، كنّا نقضّي المساءات مستلقيَين معًا على المقعد الجلديّ القديم، نستمع إلى شارلي باركر[1] وبيلي هوليداي[2]. يملك جيري نسخةً حقيقيّةً من مشغّل موسيقى هاي فاي مع مكبّر صوتٍ في كلا الجهتين. وكنّا نشرب النّبيذ الأحمر الّذي جلبه إلى البيت في أباريق من مشروبات داوسون في شارع كامبريدج. لم يكن لديّ قدحي الخاصّ. ولذلك أكتفي بالتّرشّف من عنده. أجلسُ عادة على ذراع الكرسيّ. وقد أوغل في السّكر. فأسقطُ وأحطّ على فخذيه. وحينئذٍ يضحك هو، أمّا أنا فأشعر بارتياحٍ شديدٍ رغم عدم قدرتي على الضّحك. والحقُّ أنّ هذا الشُّعور قد كان بالنّسبة إليّ بمثابة الضّحك. لطالما أحببتُ الجاز بفضل فراد أستير، وها إنّني أقع بفضل جيري في حبّ الأغاني الجديدة. كنّا نستمعُ بلا توقّف، مرارًا وتكرارًا، لأغنية تسمّى «لا شمسَ في البندقيّة». كانت رائعةً

(1) شارلي باركر (1920-1955) عازف ساكسفون أمريكيّ شهير لقّب بالطّائر.

(2) بيلي هوليداي (1915-1959) مغنّية جاز أمريكيّة، تعتبر من أشهر وأهمّ من غنّى الجاز عبر التّاريخ.

جدًّا وحزينةً أيضا. وكان ميلتون جاكسون[1] عازف الفايبرافون[2] فيها. بدا لي صوت هذه الآلة شبيهًا بجرذ وحيدٍ يمشي في شارعٍ فارغٍ داخل مدينةٍ من زجاجٍ، ترنّ أقدامه على الرّصيف رنينًا صافيًا حادًّا ووحيدًا، تُرجع البنايات صداه في الأنحاء.

أحيانًا وفي آخر اللّيل، عندما أكون ممدّدًا في علبتي المظلمة، مفترشًا منشفة نزل روزفلت (الّتي اختفت الآن تحت القطن الّذي سحبتُه من ستانلي)، أشعر بأنّني أسمع الموسيقى في رأسي. أترك لها أن تعزف. وأصغي، فاتحًا عينيّ في الظّلام ومفكّرًا في الحسناوات. أحكّ أفكاري بمخمل بشراتهنّ، وأغمس نفسي في الدّفء الظّليل لفجواتهنّ. كانت الرّغبةُ حارقةً، خطًّا ناريًّا يشقّ جسدي على امتداده. لم أتمكّن يومًا من تفهّم تحمّل جيري لها، وهو يخوّض في وحل حياةٍ لا نساءَ فيها، يُتمتم لنفسه ويُومئ برأسه. لو كنتُ إنسانًا لنزلتُ إلى الشّوارع، وبادرتُ بالتّعرّف على أولى الفتيات الجذّابات اللّواتي ألتقيهنّ، تاركًا لعينيّ السّوداوين أن تلمعَا فوق ابتسامةٍ بلا ذقن، ولكنتُ أغويتهنّ وفتنتهنّ أو اشتريتهنّ. لكنّ جيري في المقابل ظلّ يضع ساقًا على أخرى، ويغرق في عزلة جليديّة، وحيدًا إلى درجة أنّه يتحدّث مع جرذ.

---

(1) ميلتون جاكسون (1923-1999) عازف فايبرافون ومغنّي جاز أمريكيّ وأحد مؤسّسي فرقة «رباعي الجاز الحديث».

(2) الفايبرافون آلة من آلات النّقر الموسيقيّ المكوّنة من عدد من ألواح الألومينيوم مصفوفةً على قاعدةٍ واحدة. وهي بذلك تشبّه بمفاتيح البيانو.

ومع ذلك، فإنّني خلال تلك الأوقات الجميلة، عند فطور الصّباح المصاحَب بالصّحيفة أو عند الاستماع إلى الموسيقى في المقعد الجلديّ ليلًا، أختبر من حينٍ إلى آخر نوعًا جديدًا من السّعادة، يختلف عن البهجة اللّامعة للأيّام الخوالي في متجر الكتب. لقد كانت أكثر نعومةً ودفئًا وتكاد تكون بنيّةَ اللّون.

يحدث لنا أن نطلق أنفسنا بلا قيد، نستمع إلى أغاني الطّائر شارلي باركر بأعلى صوتٍ ممكنٍ، بينما يتكفّل جيري بالعزف على طقم الطّبول (المتكوّن من ذراعي المقعد) وأقوم أنا بالدّوس على مفاتيح البيانو. كنّا صاخبين جدًّا، حتّى إنّ رجلًا يعيش في الغرفة المجاورة (اسمه سيريل. وله شعر نابت في أنفه. ويحدث أن نسمعه وهو ينتحب في أعماق اللّيل) قدم مرّتين إلينا، وراح يضرب الباب بكفّه السّمينة وهو يصرخ طالبًا منّا أن نخفض الصّوت. وإذا ما أضفنا إلى تينك المرّتين قدوم رجلَا الإطفاء، صار لدينا مجموع المرّات الّتي تعرّض فيها بابنا للطّرق طيلة وُجودي.

لقد علّمني جيري الكثير عن الجاز، عن الارتجال وتغييرات اللّحن والإيقاع وأشياء أخرى من هذا القبيل. وقد قمتُ لاحقًا بإدماج هذه المعارف في موسيقاي الخاصّة. وقد يحدث أن أعزف مُصاحبًا جيري أثناء كلامه. أرتدي قميصًا أبيض ذا شرائط زرقاء ورباطًا عند الكمّين يشبه تمامًا قميص هوغي كارمايكل[1] في ميناء

(1) ملحّن وكاتب أغان وقائد أوركسترا ومغنّ وممثّل أمريكيّ.

القلق[1]. ومثلما يفعل هو في الفيلم، كنتُ أوفّر نوعًا من الخلفيّة الموسيقيّة النّاعمة، بينما يحتسي جيري نبيذه مسترجعًا ذكريات طفولته الّتي صارت الآن بعيدة جدًّا في مدينة ويلسن بولاية كارولاينا الشّماليّة، بالإضافة إلى ذكرياته في الخدمة العسكريّة. كان قد التحق بالجيش فور انطلاق الحرب، أقصد الحرب العالميّة الثّانية. وعندما اكتشفوا أنّه قد نشأ في مزرعة، أرسلوه إلى كتيبة خيّالةٍ في تكساس كي يقوم بتربية البغال هناك، حيث ركله ذات يوم بغل رماديّ ضخم اسمه بيتر في رأسه مباشرةً، فألصقت قُوّة الضّربة عينه اليسرى بالجهة الأخرى، حيث مكثت هناك إلى الآن. وبالإضافة إلى أوجاع الرّأس المزمنة والرّؤية المضاعفة، جلبت ضربة بيتر له بعض الأموال الّتي تصله بالبريد كلّ شهرٍ. «أترى إذَن يا إرْني؟! لقد قدّم لي ذلك البغل المنيوك خدمةً حقيقيّةً». إنّ إحدى الأشياء العظيمة الّتي يمتلكها جيري هي قدرته على رؤية الصّورة الأكبر والأكمل للأشياء.

لقد حدّثني أيضًا عن الفترة الّتي عاش فيها في لوس أنجلس قبل الحرب، وعن المرّة الّتي تحصّل فيها على دورٍ ثانويٍّ جدًّا في شريطٍ سينمائيٍّ اسمه «فرسان الأخاديد». كان يتحدّث كثيرًا عن الكتب كذلك وعن السّاحة الأدبيّة. أذكر أنّه قال لي مرّةً إنّه ما

---

(1) العنوان الفرنسّي للفيلم الأمريكيّ المعنون To Have and Have Not الّذي أخرجه هاورد هوكس سنة 1944. وهو مقتبس عن رواية إرنست همنغواي الحاملة لنفس العنوان.

من أحد قد كتب أفضل من همنغواي[1] بخلاف فيتسغرالد[2]. وقد فعل ذلك مرّةً واحدةً فحسب. كان يحدّثني أيضًا عمّا يحدث في «السّاحل»، وهو يقصد بتلك الكلمة السّاحل الغربيّ. وقال إنّ بوسطن مدينة تحتضر.

كم كنتُ أحبّ حديثه عن الثّورة، عندما يخوض في الكلام عن جو هيل[3] وبيتر كروبوتكين[4] وإضراب باترسون[5]. كانت «بعد الثّورة» إحدى عباراته المفضّلة. وكان يعتذر للنّاس عندما يقتنون كتبه لأخذه مالهمْ. إذ يقول لهم إنّه من المفترض أن تكون الكُتب مجّانيّة بعدَ الثّورة، وأن تُعتبر خدمةً عموميّةً مثل مصابيح الشّارع تمامًا. وصل به الأمرُ إلى التحدّث عن شُيوعيّة المسيح عدّة مرّات، ممّا دفع الكثيرين إلى الغضب.

كان جيري يتكلّم وأنا أصغي، الأمرُ الّذي جعلَ معرفتي بحياته تتنامى مع مرور الوقت، وفي المقابل -يمكنني الحكم بسهولة- راح اطّلاعه على حياتي يتضاءل شيئًا فشيئًا. وبسبب تحفّظي الطّبيعيّ،

---

(1) إرنست همنغواي (1899-1961) كاتب وصحفيّ ومراسل حرب أمريكيّ شهير، متحصّل على جائزة نوبل للآداب سنة 1954.

(2) فرانسيس سكوت فيتسغرالد (1896-1940) كاتب أمريكيّ شهير تعتبر كتاباته طرازًا لما سمّاه هو نفسه «عصر الجاز».

(3) جو هيل (1879-1915) نقابيّ أمريكيّ شهير وكاتب بعض الأغنيات. تمّ إعدامه إثر محاكمة مثيرةٍ للجدل. وأصبح واحدًا من الوجوه التّاريخيّة للنّضال الاجتماعيّ.

(4) بيتر كروبوتكين (1842-1921) جغرافيّ، مستكشف، عالم حيوان، أنثروبولوجيّ ومفكّر روسيّ. وهو من أوائل المنظّرين للاشتراكيّة التّحرّريّة.

(5) إضراب شهير قام به سنة 1913 عمّال مصنع الحرير في باترسون بولاية نيوجيرزي.

أمكن له أن يفعل ما يشاء بشخصيّتي، وأن يجعلني الشّخص الّذي يريده. وقد أدركتُ بسرعةٍ وألمٍ شديدين أنّه كلّما نظر إليّ رأى في الغالب حيوانًا لطيفًا إلى حدّ مّا، مهرّجًا وغبيًّا، أي شيئًا مّا يشبه كلبًا صغيرًا جدًّا ذا أسنانٍ بارزةٍ. لم تكن لديه أدنى فكرة عن شخصيّتي الحقيقيّة، عن كوني موغلًا في الكلبيّة، ميّالًا للرّذيلة على نحوٍ معتدل، عبقريًّا كئيبًا، أو أنّني قد قرأت كتبًا أكثر منه. لقد أحببت جيري. لكنّني خشيت أنّ من يحبّه هو في المقابل ليس أنا، بل كائنًا من نسج خياله. إنّني أعرف كلّ شيء عن هذا النّوع من الحبّ. وفي قرارة نفسي، كنتُ أعرف جيّدًا منذ البداية، (رغم حبّي للتّظاهر بخلاف ذلك) أنّه حين كان يشرب ويتحدّث في مساءاتنا المشتركة، إنّما كان يُحدّث نَفسه فقط.

هل سمعتُ للتّوّ ضحكةً مكتومةً؟ أتعتقد أنّك نلتَ منّي؟ نعم، نعم، أعرف ما قلتُه سلفًا، أو ما اعترفتُ به حين تحدّثتُ عن هوسي وحبّي المتبجّح بالأثلام والشّقوق، وعن حاجتي الّتي توشك أن تكون مرضيّة إلى الاختباء، وعن محبّتي للأقنعة. إنّك تسألني إذَن لِمَ أتذمّر حين أتيحت لي فرصة جديدة للاختفاء، فرصة ذهبيّة للمكوث لا مرئيًّا خلف المظهر الصّلد لحيوانٍ أليفٍ محبوب. حسنًا، سأجيبك عن سؤالك: إنّ الفرق بين أن تتّخذ لنفسك قناعًا -وهو فرصةٌ دائمة للحرّيّة- وبين أن يُفرض عليك فرضًا هو الفرق ذاته بين الملاذ والسّجن. كنتُ لأسعد بعبور الحياة مغلّفًا بدرع الفرو الّذي يخصّ مظهر الحيوان الأليف لو كنتُ متيقّنًا من أنّ بإمكاني أن أخلعه متى شئتُ ذلك، وأن أمزّق عنّي الوجه الرّقيق فأمضي قُدمًا

بصفتي من أكون حقًّا. مرحبًا جيري! إنّه أنا. دون شكٍّ، لن أفعل هذا الأمر أبدًا. لكنّني أحبّ أن أتخيّل قُدرتي على ذلك.

ورغم أنّني كنتُ أرتدي القناع بشجاعةٍ، إلّا أنّه يدفعني إلى الحكّ دومًا، حتّى إنّني لم أكن أستطيع التّحمّل في كثيرٍ من الأحيان، فأمضي في قرضِ حوافّه. فعندما يكون مزاجي مواتيًا، أستمتع بالتّغوّط في مواقع حسّاسة، مثل صحن جيري أو وسادته. ولم يكن يهتمّ لذلك أصلًا، رغم عدم فهمه للرّسالة الموجّهة على أيّة حالٍ. وبدلًا من أن أصير في نظره بهيمة صغيرة بغيضة، ظللتُ على حالي؛ فرمين القديم الطّيّب عابثًا في المكان وحسب. وذات مرّة، بينما كان يمسّح على رأسي بلطف، التفتّ ووجّهتُ له عضّةً لاذعةً. لكنّني نادم الآن لأنّني تصرّفت على ذلك النّحو. *المتشرّد في حديقة النّدم.*

لم نُغادر الغرفة فقط من أجل بيع الكتب في الحديقة العامّة، لقد ذهبنا ذات مرّةٍ لمشاهدة الأفلام. لقد كان مساءً غائمًا، ثقيلًا ومزدحمًا بالرّوائح من مساءات سبتمبر الأولى. كان جيري على وشك الخروج، وقد فتح الباب. أمّا أنا، فقد كنتُ على الطّاولة بصدد إنهاء غدائه وقراءة صحيفة الغلوب المنشورة في اليوم السّابق. تردّد قليلًا. ثمّ التفت إليّ وألقى عليّ نظرة كانت تقول مباشرةً: «يا لإرْني الطّيّب المسكين، المتروك وحيدًا!». ورغم ذلك، حين أفكّر في تلك النّظرة الآن، تبدو لي أكثر حيرةً وتساؤلًا. لعلّها كانت تقول: «ولكن، من هو في الحقيقة هذا الحيوان؟». إنّني أفضّل صراحةً هذه الصّيغة. ولكن مهما كان ما قصده حينئذٍ، فإنّه عاد إلى وسط الغرفة، وحملني معه، دسّني في جيب معطفه وذهبنا معًا إلى السّينما.

كان الطّريق إلى الريالتو مثيرًا جدًّا على نحو مُؤلم، لم أقطع هذه المسافة من قبل في ضوء النّهار مُطلقًا، وها إنّني أتطلّع إلى الشّارع من تحت غطاء الجيب، إذ نهتزّ معًا. أدهشتني قدرةُ هذا الضّوء النّهاريّ على إيذاءِ البصر، خاصّة حين يكون باهتًا ورماديًّا وغير مختلفٍ عن ذاك الّذي يتسرّب عبر الألواح الزّجاجيّة للقبو. ولم يكن الضّوء مصدر دهشتي وقلقي فحسب، فالعالم الّذي حسبتُني قد ألفتُه (عالم مظلمٌ، غامضٌ، تجلده الظّلال، ورومانسيّ بطريقة مّا رغم أنّه مفعم بالخطر) قد انكمش على نحوٍ فظيعٍ، وامتصّ الضّبابُ الكثيف ألوانه، فقدت المناظرُ البعيدة عمقها وتحوّلت إلى لوحاتٍ باهتةٍ تتأرجح بين الرّماديّ والبنّيّ؛مبانٍ مهجورة، نوافذ مكسوّة بالألواح، مزاريب مسدودة بالقمامة ووجوه رماديّة متوتّرة. كان كلّ شيء خربًا، حزينًا وقبيحًا. ورغم ذلك، لم أسمح للأمر بمُضايقتي، فقد كنتُ سعيدًا لأنّني أخبُّ في شوارع بوسطن، في جيب واحد من أفضل الكتّاب في العالم. طبعًا، كان ذلك في الحقيقة أشبه بمن يخوض في الوحل، لكنّني أفضّل أن أقول «أخبّ»، كي أصيب شُعوري في تلك اللّحظة.

لقد شاهدتُ جميع الأفلام الّتي يملكها الريالتو، بعض منها مرّات عديدة. لكنّني لطالما كنتُ مستعدًّا لإعادتها. عندما أدركنا شبّاك التّذاكر، دسّني جيري عميقًا في جيب معطفه. وبالتّالي، لم أر الملصقات، ولم أعرف ما كان معدًّا للعرض من الأفلام. مكثتُ مختبئًا هناك، بينما اشترى هو فشارًا وعلبة كوكاكولا. ثمّ سرنا معًا حتّى وصلنا إلى الصّفّ الأماميّ. كان المسرحُ خلوًا من النّاس. ولم نجد

إلى جانبنا إلّا قليلًا من المتفرّجين. بدأ عرض الفيلم مباشرةً. ولسوء حظيّ كان الشّريط الوحيد الّذي أمقته حقًّا، رغم أنّه بالألوان. وتلك إضافة هامّة بالنّسبة إليّ في العادة. كان اسمه «الحَوْليّ»[1]. وهو قصّة طويلة وانفعاليّة عن صبيٍّ فقيرٍ وظَبْيِهِ. ليس من عادتي أن أحبّ القصص الّتي تتضمّن الحيوانات، أمّا جيري فمن الواضح أنّه قد أحبّ الفيلم. وأدركتُ أنّه اصطحبني معه لأنّه ظنّ أنّني سأحبّه أيضًا. جعلني هذا الأمر حزينًا ووحيدًا، رغم أنّني حافظت على ملامحي منشرحةً. وبالإضافة إلى الظّبي والكلاب الكثيرة، يعرض الشّريط دبًّا ضخمًا يلقّب بالعجوز ذي الأقدام المجنونة. وعندما ظهر على الشّاشة لأوّل مرّةٍ، التفت جيري إليّ ليرى ردّ فعلي. ومن أجله هو فقط، فغرتُ فمي ورفعتُ قدميّ الأماميّتين في الهواء، ثمّ انقلبتُ على ظهري. كان من الواضح أنّه سُرّ لرؤية المشهد. يتقدّم الفيلم شيئًا فشيئًا، من محنةٍ إلى أخرى، إلى أن يأكل الظّبي ذات يوم كلّ محصول العائلة الفقيرة من الذّرة للمرّة الثّالثة. تُخرج الأمّ البندقيّة إذَن. وتفجّر رأسه. كنتُ سعيدًا بذلك. لكنّني، رأيتُ جيري وهُو يبكي.

مكثنا بعد ذلك لمشاهدة الأفلام الأخرى؛ *درب إلى سان أنطونيو*[2] *والوحش المجنون*[3]. وقد صار منتصف اللّيل وشيكًا.

---

(1) فيلم أمريكيّ، أخرجه كلارنس براون (1890–1987) وصدر سنة 1946. وهو مقتبس عن رواية بنفس العنوان لصاحبتها مارجوري كينان رولينغز (1896–1953).

(2) فيلم أمريكيّ من صنف الويسترن (أو الغرب الأمريكيّ)، أخرجه جون إنغليش (1903–1969). وظهر سنة 1947.

(3) فيلم رعب أمريكيّ بالأسود والأبيض، صدر سنة 1942. وأخرجه سام نيوفيلد (1899–1964).

وددتُ لو أنّهم ختموا العروض بجنجر زوجرز، حتّى يشاهد جيري مشهد الموت والتّحوّل. ولكنّهم عرضوا تشارلي تشان بدلًا من ذلك. وعندما غاب الرّجل الصّينيّ العظيم في منتصف اللّيل فجأةً، وسط أدائه لجُملته، سُمع في الظّلام نفس السّعال والصّخب المعتاد. ثمّ بُعثت آلة العرض من جديد. وانطلق لعب الملائكة. إنّه *قطط مهووسة بالرّجال*. وهو أحد أفضل أفلامي على الإطلاق. هناك جميلتان تلبسان سترتي قطّتين، بشوارب صغيرة جميلة وأذنين طويلتين. وهما تحاولان الإمساك برجلٍ يرتدي زيّ جرذ، أو فأر ربّما. كانتا تطاردانه في كلّ الأنحاء وسط منزلٍ ضخم، يكاد يكون قصرًا. لكنّه أسرع منهما، إذ ينفلتُ بين الأثاث ويتسلّق السّتائر، ثمّ يتعلّق بالثّريّا. وبعد فترة من الزّمن على هذا النّحو، جربّتا خطّةً مختلفةً. فتظاهرتا بالاستسلام والعدول عن ملاحقته. تثاءبتا، وتمطّطتا، وتظاهرتا بالذّهاب إلى النّوم. فشرعتا في نزع سترتيهما، من الكتفين أوّلًا، ثمّ كشفتا عن نهْدين جميلين. كانتا ساحرتين تمامًا. طبعًا، حين رآهما الجرذ الكبير عاريتين لم يستطع المقاومة، والتحق بهما. فراح يضاجعهما، الواحدة تلو الأخرى، ثمّ كليهما معًا. من عادتي ألّا أبالي بتأمّل الحسناوات، يمتطيهنّ هذا الشّيء البغيض المسمّى ذكرًا بشريًّا، مثلما أنّي ألتفتُ لألّا أرى المشهد في تلك اللّحظات. لكنّ هذا الفيلم يمثّل استثناءً بالنّسبة إليّ. وذلك لأسباب واضحة لا فائدة في شرحها. ومع ذلك، لم أكن متيقّنًا ما إذا كان جيري سيحبّه من جهته. ولذلك حين شرعت الجميلتان في نزع سترتيهما القطّيتين، تأمّلتُ ملامحه لأرى ردّ فعله. لقد نام

سريعًا، رأسه مائلٌ إلى الخلف وفمه فاغر. وإذ أجلتُ بصري في القاعة، رأيتُ بعض العجائز الآخرين على نفس الحال. فخطر ببالي أنّه إذا لم يكن المرء عارفًا بمن يكون جيري، فإنّه سيحسبه على الأرجح واحدًا من أولئك السّكّيرين القذرين الّذين يتّجهون برأس مُطَأْطَئٍ نحو العدم.

الفصل الثّالث عشر

خلال شهر أكتوبر، شرع جيري في الحديث عن الانتقال إلى سان فرانسيسكو. وقد حسبتُه في البداية يثرثر فحسب، إلى أن عاد ذات يوم إلى البيت وفي يده جدول مواعيد غرايهاوند[1]، وقضىّ المساء كلّه وهو يتأمّله بالتّفصيل المملّ مُدقّقًا في المدن الّتي سنزورها في الطّريق. أذكر أنّ القائمة كانت تضمّ بافّالو، شيكاغو وبيلينغز. ولهذا السّبب، ركبتُ المصعد ونزلتُ إلى القبو، فقرأتُ كلّ ما عثرتُ عليه حول سان فرانسيسكو. وهو لم يكن كثيرًا على أيّة حال. كان جيري متفائلًا في ما يخصّ فريسكو. وفي الحقيقة، أعتقد أنّها المرّة الوحيدة الّتي رأيته فيها متفائلًا على نحو مسترسلٍ. فقد كان رجلًا حزينًا في أعماقه.

عرفتُ أنّنا سنغادر قريبًا، وأصبحت رحلاتي إلى متجر الكتب في الأسفل أكثر صعوبةً يومًا بعد آخر. إضافةً إلى أنّي صرتُ أفكّر في الموت باطّراد، وتساءلت عمّا سيحدث في حالِ عاد جيري ذات يوم إلى البيت ووجدني ميّتًا، أي إذا عاد ووجد جسدي المسكين الصّغير يابسًا وباردًا، أعتقدُ أنّ فمي سيكون مفتوحًا قليلًا، كاشفًا عن أسناني

(1) شركة أمريكيّة للنّقل بواسطة الحافلات.

الصّفراء. (من عادتي أن أحرص على إنزال شفتي العليا بشكل جيّدٍ حتّى أُغطّيها) ما الّذي سيفعله حينئذٍ يا تُرى؟ هل سيمسكني من ذيلي، ويلقي بي في حاوية القمامة المعدنيّة؟ أو أنّه سيفعل شيئًا آخر ؟ وما هو هذا الشّيء؟ هل يدفنني في الحديقة العامّة مثلًا؟

- «ما الذي تفعله هناك، يا رفيق؟».

- «أدفن جرذًا فحسب، أيّها الشّرطيّ».

- «تدفن ماذا؟!».

كم كرهتُ فكرة أن أُلتَقط من ذيلي، فيُلقى بي في القمامة.

ولكن رغم كلّ هذا الحزن، فإنّ الحياة ظلّت تهبنا لحظاتٍ جميلة. وأنا أحبّ أن أتذكّرها الآن. وأحيانًا، ألعبُ بها مُحاولًا أن أستأصل منها الحزن والشّيخوخة والوحدة. أعيدُ جيري مرّةً أخرى إلى شبابه، بشعره الدّاكن المتموّج وابتسامته البيضاء النّاصعة الّتي كانت تظهر في الصّور الفوتوغرافيّة. وأحملنَا بعيدًا عن غرفة كورنهيل، لنطير عاليًا فوق بوسطن وعلى امتداد نهر الميسيسيبي والجبال الصّخريّة، قبل أن نحطّ في حانة أو مقهى في مكانٍ مّا بسان فرانسيسكو. (يُمكننا أن نرى الخليج يلمع في الخلفيّة) مثلما أدعو بعض الشّخصيّات الهامّة للانضمام إلى جلستنا، مثل جاك لندن[1] أو ستيفنسون[2]. وحينئذٍ، يطيبُ الجمع.

---

(1) جاك لندن (1876-1916) كاتب أمريكيّ من مواليد سان فرانسيسكو. تعتبر المغامرة وعوالم الطّبيعة البرّيّة ما يهيمن على كتاباته.

(2) روبرت لويس ستيفنسون (1850-1894) روائيّ وشاعر وكاتب مقالات ورحّالة إسكتلنديّ.

لطالما اعتقدتُ أنّ كلّ شيءٍ سوفَ يدوم إلى الأبد. ولكنّ ذلك غير صحيح. وفي الواقع، لا شيء يُوجد أكثر من لحظةٍ واحدةٍ، باستثناء ما نتمسّك به في ذاكرتنا. إنّني أُحاول أن أتمسّك دومًا بكلّ شيءٍ. (أفضّل أن أموت على أن أُنسى) ومع ذلك، كنتُ متحمّسًا في الآن ذاته لسان فرانسيسكو ومتلهّفًا لأخلّف كلّ الأشياء ورائي. وتلك هي الحياة. إذ لا قُدرة للمرء على أن يُمسك بمعناها كاملًا. مرّت ستّة أشهر وسبعة أيّام على إقامتي مع جيري. وكانت الأشجار في الحديقة العامّة تُسقط أوراقها، حمراء صفراء على العشب، حزينةً وهشّةً. ومع مرور الوقت، كانت المتاجر تموت في الميدان وحوله. فتغلّق نوافذها وواجهاتها وأبوابها بالألواح. انتشرت القمامة في كلّ مكان، مرميّةً في الشّوارع والمزاريب أو منتفضةً عند مرور الشّاحنات ومدوّمةً مثل أوراق الأشجار. أصبحت اللّيالي أكثر هدوءًا من قبل. وصار بإمكاني أن أسمع خطوات جيري في كلّ مرّة يعود فيها إلى البيت. أتعرّف إلى وقع قدميه عند الدّرج. فقد كانت خطواته أبطأ وأثقل وأكثر إنهاكًا من المستأجرين الآخرين في ما يبدو، أكثر حتّى من خطوات سيريل، الّذي كان بدينًا ومصابًا بالرّبو، ويقضّي وقتًا طويلًا في تسلّق الدّرج.

ذات ليلة، بينما كنتُ ممدّدًا أصغي كعادتي إلى وقع خطواته وأُحدّث نفسي في الآن ذاته، سمعتُ باب الشّارع يُفتح ثمّ يُغلق. وبعد ذلك حلّت الخطوات الثّقيلة المألوفة على الدّرج. صعدت ببطء حتّى وصلت إلى القرص الأوّل. ثمّ توقّفت قليلًا هناك كعادتها. ظننتُ أنّه سيفتح الباب بُعيْد ذلك. وإذا لم يكن ثملًا جدًّا،

فإنّه سيضغط زرَّ الإنارة، وينزع ملابسه، ثمّ يجلس على حافّة السّرير مرتديًا سرواله الدّاخليّ ويتحدّث إليّ لفترة من الزّمن. لقد أوشك أن يصل حين سمعت الضّجّة الكبرى. لم يسبق لي أن تعاملتُ مع صوت سقوطِ شخصٍ على الدّرج. ولكنّني أدركتُ طبيعة الصّوت حتّى أثناء حدوث ذلك. وفي نهاية المطاف، اختفت كلّ الأصوات. وخيّم الصّمتُ على المكان.

تأهّبتُ لسماع أصوات انفتاح الأبواب في الرّدهة وانطلاق الصّرخات المضطربة والخطوات المسرعة. ولكن، لم يحدث أيّ شيء من ذلك. لقد هزّ صوتُ سقوط جيري البنايات في ريفير وبلمونت. ومع ذلك، ما من أحد قد سمعه. أمّا بالنّسبة إليّ، فلم أجد أيّ مخرجٍ أسلكه إلى الرّدهة. ورغم أنّني كنت متيقّنًا من ألّا فائدة في الأمر، إلّا أنّني حاولتُ أن أشقّ طريقي عبر الصّدع الموجود أسفل الباب. وظلّت أقدامي تكشط الأرضيّة بقوّةٍ لا طائل منها، ثمّ تحاملتُ على نفسي كي أمكث في مكاني. التقطتُ نفسًا عميقًا، وفكّرتُ. كان عليّ أن أجد مسلكًا يوصلني إلى جيري، رغم أنّني لا أملك أدنى فكرة عمّا أستطيعُ فعله إذا نجحتُ في الوُصول إليه. ولذلك، ركبتُ المصعد ونزلتُ إلى عيادة طبيب الأسنان، ورحتُ أركضُ من غرفةٍ إلى أخرى، باحثًا عن طريق تأخذني إلى الرّدهة في الأسفل. كنتُ متيقّنًا من أنّ شيئًا مروّعًا قد حدث. لقد كابدتُ طيلة حياتي مخيّلتي المتوحّشة، بل إنّها أعاقتني من وجهة نظرٍ عمليّة. وطيلة الوقت الّذي قضّيتُه أركض من ركنٍ إلى آخر بحثًا عن مخرج، كنتُ أرى جيري منبطحًا ومحطّمًا بشكلٍ فظيعٍ. وأمكنني أن أشعر به يموت، المرّة تلو

الأخرى. وفي النّهاية، دفعني اليأس إلى الانزلاق والتّدحرج عبر المصعد، وصولًا إلى القبو. ثمّ زحفتُ أسفل الباب باتّجاه الزّقاق. ومن هناك ركضتُ حتّى بلغتُ الباب الأماميّ أسفل لافتة غرف غير مكترث حتّى بمَن يراني. ولم أستطع أن أنفذ عبر ذلك الطّريق أيضًا. كان مكتوبًا على الباب «طبيب أسنان بلا أوجاع». وفي مكان مّا، خلف تلك الكلمات، يتمدّد جيري محتضرًا أو ميّتًا.

عدتُ إذَن إلى متجر الكتب. وبصُعوبة كبرى -إذ كنتُ مكدومًا في كلّ مكانٍ من جسدي- تسلّقت باتّجاه المنطاد، واكتفيت بالانتظار. بُعَيد الفجر، سمعتُ صرخاتٍ في الشّارع تلتها صفّارة الإنذار. اقْتَرَبَتْ الصّرخاتُ، ثُمَّ ابتَعَدَتْ بعد فترةٍ وجيزةٍ. بدت لي صرخات خائفة تنتحبُ، فحاولتُ فهمَ الأمر ولكنّها سُرعان ما مَاتت في مكانٍ مّا من المدينة، غربَ الميدان.

عندما فتح شاين المتجر على السّاعة التّاسعة، اندفعوا جميعًا إلى الدّاخل، رؤوسهم تهتزّ وتُومئ حول المكتب، مثل ثمار تفّاح حملها الماء المدوّمُ. تحدّثوا لفترةٍ عن الحادث -كانوا يحرّكون أفواههم في الآن ذاته وبقُوّة شديدةٍ، طفا من غليانها شيء واحد، وهو أنّ جيري ماغون قد سقط على الدّرج، وحُمل مغشيًّا عليه إلى مستشفى ماساتشو ستس العامّ- ثمّ انتقلوا إلى مسائل أخرى، مثل ورْك أمّ آلفن المكسور وفريق الجوارب الحمراء.

عدتُ إلى الغرفة في الأعلى. وكان لديّ انطباع بأنّ جيري قد رحل منذ سنين. لم أستطع فتح غطاء علبة السكيبي، حيث زبدة

الفول السّودانيّ. كان هناك رغيف سانشاين بأكمله على الطّاولة. فقرضتُ البلاستيك وأكلتُ بعضًا منه، ثمّ جلستُ اللّيل بطوله على المقعد الجلديّ، ولكي أطرد جيري من رأسي، سافرتُ إلى باريس لزيارة المنزل الّذي عاش فيه جويس من قبل. ولكنّ علامات الطّريق قد ذابت. ولم أتمكّن من العثور عليه.

في اليوم التّالي اتجّهتُ نحو المنطاد بالتّزامن مع وقتِ استهلال العمل. ظهرت الرّؤوس مجدّدًا واهتزّت كما فعلت في اليوم السّابق. لقد ذهب شاين إلى المستشفى ليطمئنّ على جيري، فقالوا له إنّه لم يتأذَّ بسبب السّقوط، وإنّما أصابته جلطةٌ دمويّةٌ، وهو يمكث فاقدًا لوعيه ويتمّ إطعامه بواسطة أنبوب. وقد أخبروه أيضًا أنّهم لا يتوقّعون شفاءه، وبالتّالي قد يموت غدًا، وقد يموتُ بعد سنة. لا أحد يعلم.

«حسنًا»، قال جورج. «على الأقلّ سوف يكون نائمًا عندما يرحل. أرجو أن تُتاح لي فرصةُ مُلاقاةِ موتي اللّعين نائمًا، في غمرة حلمٍ جميلٍ». وقاطعه آلفن بينما كان يهمُّ بسردِ حلمٍ راوده:

«حسنًا، وماذا لو كان ذلكَ في غمرة كابوسٍ لعينٍ؟».

«إذَن، سيكون ذلك نهاية الكابوس على الأقلّ». ردّ شاين، قبل أن يُطلق ضحكةً طريفةً وجيزةً.

«يا للرّوعة!»، أردف آلفن.

لم أرغب في الاستماع إلى المزيد من النُّكَت الحزينة حول الموت. ولذلك، ركبتُ المصعد وعدتُ إلى الأعلى. أكلتُ نصف رغيفٍ

آخر من سانشاين وتسلّقتُ الكرسيّ الكبير، وهُناك حلمتُ بأنّ جيري قد عاد إلى الحياة.

كنتُ متيقّنًا من عدم عودته إلى البيت، ولذلك قدّرتُ أنّه لا مشكلة في أن أُنقّب في أشيائه، إذ لا يمكن أن نسمّي ذلك تطفّلًا، حين يكون الشّخص المعنيّ ميّتًا أو بمنزلة الميّت. كم رغبتُ في العثور على قصّة الجرذ، فمنذُ أن سمعته يسردها على نورمان، تيقّنتُ أنّها تتضمّن بشكلٍ مّا إجابات موجّهة إليّ. إجابات ماذا؟ حسنًا، أعرف أنّ الأمر يبدو في الظّاهر سخيفًا جدًّا. لكن أظنّ أنّني كنت ما أزال أبحث عن معنى لحياتي التّافهة. وفكّرتُ أنّ جيري قد وجده على الأرجح، أو هو في طريقه إليه. وهذا هو السّبب لكتابته كتابًا بطله جرذ. انتظرتُ إذَن أيّامًا قليلة بعد رحيله، وتسلّقتُ الطّاولة، ففتحتُ الدّفتر المعنون *«آخر الصّفقات الكبرى»*. (لقد ظلّ يكتب في هذا الدّفتر طيلة الفترة الّتي قضّيناها معًا) ومن هناك وثبتُ على المكتبة. ورحتُ أسحب الدّفاتر عن الرّفّ، الواحد تلو الآخر. كان كلّ واحد منها يملك عنوانًا وتاريخًا مدوّنًا داخل المستطيل الأبيض على غلافه -وهي ترجع تباعًا إلى سنة 1952- «طائر الفينيق»، «مشروع الاسترسال»، «بزوغ نجم الكلب»[1]... إنّها في المجمل اثنان وعشرون دفترًا، تشترك كلّها في كونها أفكار روايات ممكنة، حبكات تمّ تطويرها جزئيًّا وخطاطات شخصيّات وصفحات

(1) المقصود هنا نجم سماويّ يعرف في فهارس علم الفلك الحديث بألفا الكلب الأكبر. وهُو ما كان يعرف بالشّعرى اليمانيّة. وهو النّجم الآخر المذكور في القرآن الكريم بالإضافة إلى الشّمس. (الآية 49 من سورة النّجم: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى»).

متتالية من الملاحظات. وفي أماكن متفرّقة، توجد فقرة أو اثنتان تمّ العمل عليهما وإعادة صياغتهما مرّات عديدة، أو صفحة بأكملها أُعيدت كتابتها حتّى تستوعب تغيير كلمة واحدة. وفي ما يبدو، ينتهي الكثير من مشاريع الرّوايات بخراب الكوكب ودماره. ظللتُ أقرأ طيلة اليوم على امتداد أسبوع كامل. وكان عليّ أن أتوقّف ليلًا، بما أنّني لا أستطيع أن أدرك قابس الضّوء على الجدار. كانت الدّفاتر مليئة بأفكار رائعة. وخلال اللّيالي المظلمة الطّويلة، كنتُ أحوّل بعضها إلى حقيقةٍ في أحلامي، ولكنّني لم أجد في المقابل أيّ أثر للجرذ فيها. وببساطة، لم تظهر كلمة جرذ مطلقًا، ولو مرّة واحدة.

مكثتُ أتسكّع في الغرفة، آكل خبز السانشاين وأعزف على البيانو. عزفتُ. وفكّرتُ في ماما الّتي اختفت، نورمان الّذي فشل في أن يُوجد وكذلك جيري الّذي توقّف عن الوجود. وطبعًا، فكّرتُ في نفسي، أنا الّذي لم أكن متيقّنًا ما إذا كنتُ أريد أن أوجد. واكتشفتُ أنّني لم أعرف من قبل حقًّا معنى أن يكون المرء وحيدًا.

بعد أسبوعين جاء والدا جيري، وبالكاد وجدتُ الوقت الكافي لأغوص تحت المغسلة قبل أن يُفتح الباب. لم يخطر ببالي بتاتًا أنّ شخصًا كبيرًا في السّنّ مثل جيري، يمكن أن يكون له أبوان. لقد كانا عجوزين على نحوٍ لا يُصدّق، كلاهما أبيض الشّعر، مُنحنٍ وعتيق بجلدٍ رماديٍّ مجعّدٍ مثل أقزام الغنوم[1]. لهما وجهان

(1) مخلوق خرافي من جنس البشريّات الصّغرى في قصص الفولكلور الأوروبّي.

لطيفان، وخاصّة أمّه الّتي كانت، من دون شكٍّ، امرأةً طويلة القامة في السّابق، قبل أن تصير محنيّة الظّهر. بدوا كأنّهما خرجَا للتّوّ من إحدى الخرافات العجيبة، وتركتُ للأمّ أن تزور أفكاري بصفتها المرأة العجوز. كان برفقتهما رجل أسود الشّعر، أصغر منهما سنًّا لكنّه ليس يافعًا. وقدّرتُ أنّه شقيق جيري، بما أنّ له رأسًا كبيرًا كذلك. ولذلك سمّيتُه الابن الأصغر. يملك الأب مظهرًا أنيقًا محترمًا، بسترته الدّاكنة وربطة عنقه. له فم كبير ذو شفتين رقيقتين، لا ينفتح باطّراد، وإذا حدث وانفتح لتنزلق منه بعض كلمات قليلة، فإنّه سرعان ما ينغلق من جديد مثل مصيدة، فيمزّق المقاطع الصّوتيّة الختاميّة في كلّ جملة، مثل ذيل حيوان بصدد الفرار. سمّيتُه الملك. شاهدتهم من المغسلة وهم يحزمون كلّ شيء، ويضعون الأشياء المتناثرة في صناديق، ويخرجون تلك المعبّأة سلفًا في صناديق، فيتأمّلونها ثمّ يعيدونها إلى مكانها من جديدٍ. قضّوا اليوم كلّه على ذلك النّحو. ولم يظهروا أيّ تبجيل لدفاتر جيري. بل اكتفوا بتقليب بعض الصّحفات، ثمّ ألقوا بها في صندوق.

هناك شيء وحيد بدا مهمًّا بالنّسبة إليهم، وهو صندوق أحذية مليء بالرّسائل. جلسوا جميعًا على السّرير، تتوسّط الأمّ زوجها وابنها، وتضع الصّندوق في حجرها. ثمّ راحت تسحب الرّسائل من مظاريفها، الواحدة تلو الأخرى، وتقرؤها بصوتٍ عالٍ، بينما يُومئ الآخران برأسيهما مُوافقةً. احتجتُ إلى بعض الوقت لأفهم أنّها كانت تقرأ كلماتهم الخاصّة، أنّ الرّسائل هي كتاباتهم إلى جيري -وهي مجرّد نثر مهذار ومشوّش، مليء باللّغو والنّميمة (حديث

عمّن تزوّج ومن توفّي وعن ابنة فلان الّتي هربت من منزلها وابن فلان الّذي حطّم سيّارة الأولدزموبيل الجديدة)، مزدحم بأسئلة صغيرة لا طائل منها (أتعرف من تزوّج الأسبوع الماضي؟)، ومبقّع بنقاط التّعجّب الّتي كانت الأمّ تقرؤها كما لو كانت كلمات (وقد تمّ إيقاف كارل زوج سيسي بسبب الإفراط في السّرعة. واحزر من كان معه في السّيّارة. إنّها إيلين برانسون. نقطة تعجّب. نقطة تعجّب). وسريعًا انهمكوا ثلاثتهم في البكاء، ومن بينهم الملك الّذي انكمشت حوافّ فمه. فصار شبيهًا بمهرّجٍ حزينٍ. أمّا الأمّ، فقد واصلت القراءة حتّى وهي تبكي، الأمر الّذي زاد الوضع سوءًا. لا شيء يخصّ جيري كان يدفعهم إلى البكاء، ولا حتّى ملبسه الدّاخليّ الرّثّ المسكين. ودون شكّ، لم تكن دفاتره البائسة نصف الفارغة هي السّبب في بكائهم. أعتقد أنّهم كانوا في الحقيقة يبكون أنفسهم وماضيهم الضّائع. لا يُمكنني أن أتخيّل عائلتي، وهي تبكي أيّ شيء. وبشكل مّا، يمكن القول إنّ البشر ليسوا محظوظين. وإذ كنتُ أتأمّلهم من المغسلة، جالسين هناك على السّرير منتحبين، سمّيتهم العائلة المقدّسة.

آخر ذلك المساء، جاء رجلان وحملا كلّ شيء معهما -الكتب والدّفاتر والأثاث وحتّى الأواني والمقالي- كلّ شيء ما عدا حاوية القمامة والبيانو. أحسب أنّهم قد فكّروا ألّا أحد سيرغب في حاوية قمامة صدئة أو بيانو أطفال مكسور. لم تهمّني الحاوية، بما أنّه لا شيء لديّ لألقيه. لكنّني كنتُ سعيدًا بالبيانو.

الفصل الرّابع عشر

وإذ مللتُ من أكل خبز السانشاين، عدتُ إلى التّسكّع في ريالتو بحثًا عن الطّعام، فوجدتُهم مازالوا يعرضون الأفلام القديمة نفسها، إلّا أنّ عدد المتفرّجين -إذا جاز أن نسمّيهم كذلك- قد قلّ وصار الطّعام الملقى على الأرضيّة، تبعًا لذلك، قليلًا جدًّا. وعلى أيّة حالٍ، لم تكن شاهيّتي مفتوحةً لتناول الفشار أو السنيكرز[1]، أو أيّ شيء آخر في الحقيقة. إضافة إلى ذلك، لم أعد أُقضّي الكثير من الوقت في متجر الكتب، فالأمر يدفعني إلى الاكتئاب وشاين نفسه يقزّزني. وبدلًا من ذلك، اكتفيتُ بالتّسكّع في الأنحاء بلا هدفٍ، مُثقلًا بالأسى. لم يكن ذلك الأسى الّذي يدفعك إلى التّنهّد المسترسل أو تمزيق شعرك. بل كان أشبه بسأمٍ مُلتهِمٍ. لقد أثقلني السّأم. وأصابتني الحياة بالملل. الأدب أيضًا دفعني إلى الشّعور بالملل، وحتّى الموت كذلك. وحدَه البيانو العزيز الصّغير لم يفعل بي ما فعلتهُ كلّ الأشياء الأُخرى، ومع انسحاب الأسابيع وكساد تجارة الكتب، قضّيتُ المزيد من الوقت وأنا أطرق العاج وأغنّي لنفسي. أحيانًا، أنسى أن آكل. بل لم أكن أنسى في الحقيقة، لكنّ المتاعب

(1) قالب شوكولاطة من شركة مارس لصناعة الشّوكولاطة.

كثيرة في ركوب المصعد والنّزول إلى الأسفل وطواف الشّوارع المليئة بالدّخان وصولًا إلى ريالتو. كان بإمكاني أن أُمرّر قدميّ الأماميّتين على جنبيّ فأشعر بنتوء أضلاعي، كأنّها مفاتيح البيانو السّوداء. كان عدد زبائن بيمبروك يقلّ يومًا بعد آخر، وحتّى تجارة الأدب البورنوغرافيّ كانت بصدد الكساد. وتوقّف شاين أخيرًا عن الشّراء، لم يعد هناك أيّ اقتناء لمواريث ولا عربات محمّلة بالكتب تصطدم بالرّصيف أثناء تراجعها إلى الخلف. اختفت مسجّلة النّقد المزخرفة العتيقة. لقد بيعت إلى تاجر في باكْ بايْ. وها قد استبدلها الآن بصندوقٍ معدنيٍّ رماديّ. وراحت الكتب تختفي على التّدريج من الرّفوف. وتُخلّف وراءها الكثير من الفراغات. لم يعد هناك دوستويفسكي أسفل الدّال ولا بلزاك أسفل الباء. كان العظماء يُلحقون الواحد تلو الآخر بالقطار الأخير الّذي يحملهم بعيدًا. حافظ شاين على ملامح شُجاعة. لكنّني أتذكّر جيّدًا الأيّام الخوالي. وبالمقارنة بها، يمكنني القول إنّه يتجلّد فحسب، ويسترسل في عمله على نحوٍ آليّ.

كانت إشعارات الطّرد والإخلاء تكتسح البنايات دفعةً واحدةً. وبعد كلِّ تنبيه، تُسمّر الألواح في النّوافذ، وتَصطفّ شاحنات النّقل أمام الأبواب والمداخل، وتشتعل النّيران في المزيد من البنايات، ويتصاعد الدّخان من الحطام والأنقاض، وتومض نيران القمامة المحترقة في الأراضي الخاوية. تحمل البنايات المختومة بالألواح علامات صفراء، كُتب عليها ما يلي: *الدّخول ممنوع. هذه ممتلكات مدينة بوسطن. كلّ منتهك لحرمة المكان يعرّض نفسه للملاحقة*

العدليّة. كانت بنايات بأكملها تَغيب وتُفقد من غرب الميدان. وصار بإمكان المرء أن يرى نصيبًا وافرًا من السّماء. وفي اللّيل، تنتحب النّجوم. اجتمع أصحاب المتاجر، آلفن وجورج وآخرون لم أكن أعرف أسماءهم، حول مكتب شاين. وراحوا يومئون برؤوسهم ويشربون القهوة، وهم يتذمّرون ويشتكون. قال آلفن: «قد نجد أنفسنا قريبًا في بلاد ملعونة لا تختلف في شيء عن روسيا». ووافق الجميع على ما قاله بإيماءة من الرّأس. ثمّ قال أحدهم: «لا يمكننا أن نربح معركة ضدّ نظام المدينة». فأومؤوا برؤوسهم مجدّدًا. أضاف جورج قائلًا إنّه من الغباء أن يستجمع المرء كلّ حماسته من أجل يصارع ما لا يستطيع أيّ شيء حياله في مختلِف الأحوال. وطبعًا، وافقه الجميع كذلك. ثمّ انتقلوا إلى الحديث عن نوبة بيرني آكرمان القلبيّة، ومن ثمّ عن القرحة المعديّة. وفجأة، تكلّم شاين الّذي كان صامتًا لفترةٍ من الزّمن، بصوت خفيض جدًّا إلى درجة أنّ الآخرين صمتوا على الفور وأصغوا إليه.

«حسنًا، أنا متيقّن تمامًا من أنّني سأفعل شيئًا مّا حيال ذلك. لن أكتفي بإلصاق دبري بهذا الكرسيّ، منتظرًا أن يتمّ طردي وأمتعتي».

لقد رغبوا جميعًا، ودون شكّ، في معرفة ما سيفعله. لكنّه لم يخبرهم بذلك. واكتفى بقول «شيء مّا». ثمّ أردف: «سترون بأعينكم».

إنّني أعرف كلّ شيء عن نتوءات التّخريب والسّرّية الّتي يُخفيها شاين خلف صدغيه، إضافةً إلى أنّي غادرتُ منذ زمنٍ بعيدٍ مرحلتي البرجوازيّة، لذا أمتعتني هذه الكلماتُ إلى حدّ كبير، رغم

نفوري من نورمان شاين. هناك أمر واحد كنتُ متيقّنًا منه، وهو أنّ هذا الرّجل لم يكن خائفًا من أحد. وفكّرتُ في الحواجز في وسط الشّوارع والسّيارات المقلوبة المحترقة في الأزقّة وفي كوكتيلات المولوتوف، أو ربّما حرب أخلاقيّة مثل حرب الزّنوج الّتي حدثت في الجنوب وقرأتُ عنها في صحيفة الغلوب، تكون في شكل اعتصام سلميّ أمام المتجر؛ شاين، سويت وفاهراديان يجلسون في وسط الشّارع. ومتعرّيات في تنانير مزركشة وسترات صوفيّة يجلبن لهم سندويتشات، وسرب من الصّحافيّين وسيل من المساندة الشّعبيّة ومحافظ بوجه أحمر. ولقد أخطأتُ التّوقّع مرّةً أخرى.

بعد أيّام قليلة من إعلانه القيام بشيء مّا، وضع شاين لافتةً كبيرةً في الواجهة الأماميّة، كتب عليها بخطّ اليد:

كتب مجّانيّة
كلّ ما يمكنك حمله في خمس دقائق

إذَن، هذا ما كان قد سمّاه فعل شيء مّا حيال الأمر. إنّ تخلّيه عن كتبه كلّها بهذا الشّكل يعتبر فعلًا مفعمًا بالكرم. مثلما أنّه يكشف عن درجةٍ مذهلةٍ من اليأس، حتّى إنّني كدتُ أقع في حبّه مجدّدًا. كتب مجّانيّة! كأنّ الأمر يقع ما بعد الثّورة. كم وددتُ لو كان جيري هنا ليرى ذلك. أفرزت اللاّفتة مفعولها على الفور- وكم كان رائعًا مُشاهدةُ هذا النّحو الّذي تدفع وفقه المبيعات المجّانيّة النّاسَ إلى الحركة- غرقت الأيّام الخمسة التّالية في الفوضى إذَن، فبعد أن كتبت الغلوب عن الأمر، قدم عدد غفير من النّاس من أجل

غزوتهم لمتجر الكتب ذات الدّقائق الخمس، حتّى إنّه تمّ استدعاء رجال شرطة من الخيّالة ليتحكّموا بالحشد الّذي بلغ امتداده في مرحلة مّا كورنهيل وأنحاء الميدان. لقد جاؤوا متأهّبين، مزوّدين بأكياس ورقيّة وحقائب ظهرٍ وصناديق كرتونيّة وحقائب سفر. وطفقوا يملؤونها ملء وسعها. بل إنّ بعضهم انفلت من عقاله، وراح يأخذ أشياء لا يحتاجها حقًّا. وفي المساء بعد إغلاق المتجر، كانت الكتب مبعثرةً في الشّوارع، بعد أن تخلّص منها بعض الغزاة. ومضى شاين يلتقطها كلّها، حاملًا كيسًا ورقيًّا في يده. ثمّ أعاد تلك الّتي لم تُشوّه كثيرًا إلى الرّفوف لتمكث في انتظار الهبّة الجماعيّة الّتي ستحدث في اليوم التّالي، فيما تخلّص من الأخرى. كان الأمر مُثيرًا في البداية. ثمّ انقلب، وصار مؤسفًا. إنّه لمؤسف حقًّا أن أتمشّى في المتجر ليلًا، بين هذه الغرف الّتي قضّيتُ فيها كلّ حياتي وشكّلتْ بَيتي الحقيقيّ، وأرى كلّ هذه الرّفوف الخاوية. وهو محزن بشكلٍ مخصوصٍ يوم الأحد، أثناء المطر، حين أنزل إلى الأسفل، فأجلس على وسادة الكرسيّ الحمراء، وأشاهد نوافذ المتجر، حيث يسيل المطر في خُطوط مُسودّةٍ على البلّور المغبرّ. حينئذٍ، أُسند خدّي إلى كفّي، وأُفكّر في الشّاعر الفرنسيّ بول فرلين الّذي كتب قصيدة شهيرة عن هطول المطر في المدينة. تقول القصيدة إنّ القلب ينتحب عند سقوط المطر. وأعرف جيّدًا ما يعنيه الشّاعر بذلك، رغم أنّه كان في باريس، فرنسا وأنا في ميدان سكولاي في بوسطن. وفي تلك اللّحظة، اشتقتُ إلى نورمان أكثر من أيّ وقت آخر. اشتقتُ إلى أحاديثنا متحلّقيْن حول القهوة وإلى أقدامي منتصبةً على المكتب في

أخفاف مريحة، حيث الدّفء النّاعم والمتجر السّاطع والمطر يهطل في الخارج. كنتُ أزوره أحيانًا، فنتحدّث في مسألة شاين، انتصاراته وهزائمه. لكنّ الأمر يختلف تمامًا عن ذلك الزّمن الّذي حسبتُه فيه حقيقيًّا.

بدأتُ أقضّي معظم يومي مُستلقيًا على ظهري، أقدامي الأربع في الهواء، أحلمُ وأتذكّر. كان بإمكاني أن أُلاحظ تغيّر أحلامي. فقد أصبحت ناعمةً مفعمةً بالحنين إلى الماضي، وذات توهّج شفقيّ عند الحوافّ. ولم أعد أملك المزيد من المغامرات المثيرة. اشتقتُ على نحوٍ فظيع إلى الماضي، واشتقتُ حتّى إلى أجزائه السّيّئة. إنّني لا أنسى أيّ شيء كان قد حدث لي. ونادرًا ما أنسى أيّ شيءٍ قرأتهُ. ولذلك كنتُ قد خزّنتُ ببلوغ تلك الفترة كمًّا هائلًا من الذّكريات. وصار دماغي شبيهًا بمستودعٍ هائلٍ شاسعٍ. ويمكنك أن تتوه داخله وتفلت خيط الزّمن، وأنت تُقلّب الصّناديق والحقائب وتطوف بساقين غارقتين في الغبار دون أن تجد أيّ مخرجٍ لعدّة أيّامٍ متتاليةٍ. أتذكّر أنّني شرعتُ في اللّعب بالماضي، بعد فترةٍ وجيزةٍ من الانتقال إلى غرفة جيري. كنتُ ألويه من هنا ومن هناك حتّى يستقيم شبيهًا بقصّةٍ حقيقيّةٍ. ثمّ أخذتُ أمزجُ ذكرياتي بأحلامي، ولعلّني كنتُ مخطئًا في ذلك، إذ كلّما تماديت في اللّعب بها ازداد شبهُها بعضها ببعض، وصار أصعب بالنّسبة إليّ أن أميّز الأشياء الّتي تذكّرتُها عن تلك الّتي اخترعتُها. لقد صرتُ غير متيقّن مثلًا ممّن تكون أمّي الحقيقيّة. هل هي السّمينة النّهمة؟ أم هي النّحيفة اللّطيفة؟ وهل كان اسمها فْلو أم ديدي أم غوندولين؟ لم تكن ملفّات الأرشيف موجودةً إلا

في ذهني. لم يكن لديّ أيّ مصدر معلوماتٍ خارجيٍّ. ليس عندي مذكّرات أو صديق قديم للعائلة. فكيف إذن يمكنني التّثبّت؟ كلّ ما كان بوسعي فعله هو أن أقارن صورة ذهنيّة محتملة بصورة أخرى مشتبه فيها بنفس الدّرجة. وفي الختام، يمتزجان بعضهما ببعض. كان ذهني متاهة مغوية أو مرعبة، بحسب مزاجي. وقد بدأت أفقد السّيطرة، وأغرق. لكنّ الغريب في الأمر هو أنّني لم أكترث لذلك.

كانت الأشياء بصدد الانتهاء السّريع، وكانت السّفينة في طريقها إلى الغرق. وبعد أسبوع من إلقاء شاين لكتبه من السّطح، احترق مسرح الأولد هاورد، وهو مسرح كان منذ زمنٍ بعيدٍ مشهورًا جدًّا في كلّ أنحاء أوروبا. وكان من عادتي أن أتمشّى عند هيكله المهجور في طريقي إلى ريالتو. إنّه شبيه بالكنيسة بواجهته ذات الحجارة الرّماديّة ونوافذه القوطيّة الضّخمة. ولا يشذّ عن ذلك إلّا اللّافتة الكبيرة البارزة في وسط الشّارع بمصابيحها الكهربائيّة الّتي تشكّل معًا عبارة: الأولد هاورد. لطالما رجوتُ أن يشعلوا تلك المصابيح. لكنّ ذلك لم يحدث قطّ. وفعلًا، كان هناك سبب وجيه لمظهرها الشّبيه بكنيسة. فهي قد شُيّدت ككنيسةٍ من قبل الميلّريّين[1]، أتباع مذهب دينيّ آمن المتحمّسون له بقرب انتهاء العالم. وقد كانوا على حقٍّ في ذلك دون شكّ. ولكنّهم، باستخدام الكتاب المقدّس والكثير من الحساب المشكوك فيه، قدّروا أنّ

(1) الميلّريّون هم أتباع ويليام ميلّر (1782–1849) وهو داعية معمدانيّ أمريكيّ قد أسّس حركة صحوة بروتستانتيّة (الصّحوة الكبرى الثّانية) بين 1831 و1844، سمّيت الميلّريّة انتسابًا إليه أو السّبتيّة.

هذه النّهاية ستحدث في الثّاني والعشرين من أكتوبر سنة 1844. باع الآلاف من المؤمنين الصّادقين كلّ ممتلكاتهم استعدادًا لذلك الحدث، ثمّ شيّدوا كنيسةً ضخمةً محصّنة حتّى يمكثوا فيها أثناء حدوث النّهاية. لقد أحببتُ القراءة عن أولئك النّاس. فهم مثلي تمامًا، يحملون معهم وفي داخلهم طيلة الوقت هذا الحسّ العظيم بالكارث. وعندما أشرقت شمس الثّالث والعشرين من أكتوبر، تمامًا مثلما فعلت من قبل، أحسّوا جميعًا ودون شكٍّ بالخيبة. فباعوا الكنيسة. ولم أعرف ما الّذي حدث لهم بعد ذلك. أحسب أنّ الحياة بدت لهم منذ تلك اللّحظة مملّةً جدًّا. تحوّلت الكنيسة إلى مسرح (لقد لعب إدوين بوث[1] هناك) حيث تُعرض مسرحيّات الفودفيل[2]. ثمّ تحوّل المسرح إلى مرقصٍ للتّعرّي. وسنة 1952، وهو زمن ما يزال بعيدًا عن موعد قدومي إلى العالم، أغلقه مسؤولو المدينة نهائيًّا، وقالوا إنّ العروض الّتي تقدّم هناك بذيئة وغير أخلاقيّة. مثلما أنّهم مُعترضون بوجه الخصوص على سالّي كايث، الّتي كانت تضع كريّات من القماش على نهديها ومؤخّرتها، وتهزّها في كلّ الاتّجاهات مثل مراوحِ الطّائرة. كمْ وددتُ لو أنّني شاهدتُ ذلك بعينيّ. وفي نهاية المطاف، تحوّل الأولد هاورد إلى منزلِ جرذانٍ. إذ يعيش هناك نصف جرذان المنطقة.

---

(1) إدوين بوث (1833-1893) ممثّل أمريكيّ شهير، يعتبره العديد من مؤرّخي المسرح أعظم ممثّل أمريكيّ في القرن التّاسع عشر.

(2) نوع مسرحيّ يقوم على دمج مشاهد مختلفة ومتفرّقة يربط بينها خيط ناظم. وتعتمد على الموسيقى الشّعبيّة والكلاسيكيّة والرّقص والغناء بغاية الترفيه. كان هذا النوع رائجًا جدًّا في الأوساط الشّعبيّة، خاصّةً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة وكندا.

ها إنّ العالم يتأهّب الآن لنهايته، وسيرحل الأولد هاورد أخيرًا معه. لقد كنت في المنطاد عندما اتّقدت فيه النّيران. خرج الجميع مندفعين من شتّى المحلّات ليشاهدوا الحريق. وحتّى شاين غادر متجره. قفز خارجًا. أغلق الباب وراءه. وانصرف. كان ذلك في منتصف النّهار. لكنّه لم يضع حتّى لافتة «سأعود قريبًا». ولو لم أكن مطّلعًا على جميع التّفاصيل، لاكتفيتُ بهذا حتّى أتيقّن من أنّه أنهى علاقته بتجارة الكتب. ومثله فعلتُ. استمرّ عويل صفّارات الإنذار طيلة المساء. وعندما ذهبتُ إلى المكان في تلك اللّيلة، وجدتُ الجدران الخارجيّة واقفةً بمفردها، بالإضافة إلى حطام داخِن ووحل رماديّ يملأ الشّارع. كانَ هناك القليل من النّاس الّذين يجوبون المكان الموحل بلافتات تقول *أنقذوا الأولد هاورد* و*حافظوا على تراثنا*. بالنّسبة إليّ، لم أر في المبنى طيلة حياتي أيّ شيء جدير بالحفاظ عليه. وأمّا عصبة الجرذان ذوي الحياة الدّنيا هناك، فإنّني لا أكترث لأمرهم. «يا للخلاص!»، قلتُ في نفسي. كان الحطام ما يزال داخنًا في الفجر، عندما تمّ إحضار رافعة ضخمة، لها كرة حديديّة هائلة في طرف حبل فولاذيّ. وعندما تحرّك الرّافعة ذراعها إلى أعلى أو إلى أسفل، تشرع الكرة في التّأرجح. وتظلّ تتأرجح أعلى فأعلى، إلى أن تبلغ أقصاها منقلبةً إلى الخلف. ثمّ تندفع الرّافعة فجأةً إلى الأمام فتمتهدّ الكرة في كلّ الجهات وتنطح جدران الأولد هاورد، الّتي يبدو أنّها قويّة جدًّا، إذ لم تستطع الرّافعة أن تجعلها تنهار. ولذلك، تمّ إرسال جنود الهندسة الّذين وضعوا الدّيناميت أسفل الجدران وأسقطوها، فعلوا ذلك ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة يتداعى جدار

جديد وتتدحرج موجة هائلة من الرّماد والغبار عبر الشّارع، فتزيد في اتّساخ البنايات الملوّثة.

في الصّباح التّالي، أعطى الجنرال لوغ إشارته، فانطلق جيش الآلات الثّقيلة في تقويض الميدان بشكل نهائيّ، مضغًا لحوافّه ومن ثمّ ابتلاعًا لبناياته، الواحدة تلو الأخرى. استخدموا رافعات ذات كرات حديديّة مدمّرة وجرّافات مصفّحة هائلة، يرتدي سائقوها خوذات ونظّارات واقية وسط أقفاص فولاذيّة. وفي كلّ مرّة تنهار فيها بناية وتتداعى أرضًا، يهتف العمّال فرحًا قبل أن يشحنوا الأجزاء المحطّمة في شاحنات ذخيرة ضخمة، ويحملوها بعيدًا. استمرّ الأمر على هذا النّحو طيلة أسابيع. كانت الشّوارع مزدحمةً بالدّخان والغبار وهدير الآلات. ومن حينٍ إلى آخر، يزلزلُ انفجار مدوّ بلّور النّوافذ. إنّه دون شكّ عمل الدّيناميت.

بالنّسبة إلى الجرذان، يشبه السّلم وضع الحرب على أيّة حالٍ. ولذلك فعل معظمهم كلّ ما بوسعه ليستمرّ في نمط حياته المعتاد. فالجرذ العاديّ لا يرى فرقًا كبيرًا بين بناية منتصبة وكومة أنقاض، باستثناء أنّ الأنقاض أنسب وأفضل للاختباء. وفي كلّ مرّة تنهار فيها بناية جديدة، ينسحب الجرذان إلى حطام الأقبية والمزاريب المكسورة والأثلام. نشرت الغلوب مقالًا عن جرذان الأنقاض. فأرسل لوغ فرقًا ترتدي سترات بيضاء لإنهائها بواسطة غاز مسموم يتمّ ضخّه من الخراطيم. في تلك اللّحظة، بدأ الخروج الحقيقيّ. كلّ ليلة، تعترضني صفوف جرذان طويلة تسلك طريق الرّحلة. وأحيانًا أرى عائلات بأسرها. لقد حملت قصّة الغلوب العنوان

التّالي: «*أعمال الهدم تكشف عن شعب من الجرذان*». كما وصف المقال المنطقة بكونها دنيئة ومصابة بالجرذان.

إنّها كلمةٌ مثيرةٌ للاهتمام؛ مُصابْ. فالنّاس العاديّون لا يُصيبون بشيءٍ، بل إنّهم لا يستطيعون ذلك حتّى لو حاولوا ملء جهدهم. لا أحد يُصيب باستثناء البراغيث والجرذان واليهود. إذا كنتَ تصيبُ، فأنت تبحث عن المتاعب بطبيعتك. كنتُ أتحدّث ذات يومٍ مع رجل في الحانة. فسألني فجأةً عمّا أفعله في الحياة. وأجبتُه: «إنّني أصيبُ». حسبتُ أنّني قلتُ شيئًا ساخرًا جدًّا ومرحًا. لكنّ الرّجل لم يفهم قصدي. لقد ظنّني قلتُ: «أنا أستثمر». وراح يسألني النّصح والمشورة قائلًا: «فيمَ يجدر بي أن أستثمر أموالي، حسب رأيك؟». واقترحتُ عليه أن يستثمر في أعمال البناء. يا لرأس الخراء القذر!

بعد ذلك أغلقَ مسرح ريالتو أبوابه... ذهبتُ إلى هناك ذات ليلة. وكان الظّلام يعمّ المكان. وداعًا للحسناوات والفشار! لقد صار لزامًا عليّ الآن أن أجمع قُوتي في الشّوارع والأنقاض مثل الآخرين. وبدأتُ أرى من حينٍ إلى آخر جرذانًا ميّتة على الرّصيف. أصبح الطّعام أكثر ندرةً. وهو في معظمه لا يتجاوز ما يُخلّفه العمّال إثر غدائهم. وبهذا الشّكل، انقلبت الأشياء إلى الرّعب. أخذ بعض الجرذان الّذين قتلهم الجوع بأكل جثثِ بني جنسهم، مثلما يفعل ابن آوى. لقد شعرتُ بالخزي لذلك. ولكنّني شعرتُ لاحقًا بالخزي لشعوري بالخزي. حتّى في أفضل أوقاتي، لم أكن قويًّا أو سريعًا. أمّا الآن، فأنا أعرُج. وشبابي بعيدٌ عنّي. كنتُ جائعًا طيلة الوقت.

متى سأشرع في أكل الجثث؟ أم تراني سأتردّد، فيمنعني عن فعل ذلك ضميرٌ إنسانيٌّ صرفٌ؟ هل أمضي في كوني وحشًا حتّى النّهاية؟ في اللّيل تمتلئ المزاريب بجرذان يركضون بلا هوادة. حسبتُ أنّني لمحتُ بعض إخوتي. لكنّني لم أكن متيقّنًا من ذلك. لقد مرّ زمن طويلٌ على آخر لقاء جمعنا. مثلما أنّ الجرذان تتشابه في مظهرها كثيرًا.

أحيانًا، أثناء تسكّعي، كنتُ أمرّ أمام بنايات منتصبة ذات واجهات متداعية، فأرى الغرف واقفة مفتوحة في الهواء، بعضُها ما يزال يحتفظ بأثاثه، وبورق الحائط الملوّن، وبالحمّامات كاملةً بأحواضها ومراحيضها. كان منظرها شبيهًا بمنازل دمى عملاقة.

ذات صباح، جاء شايْن مصحوبًا برجلين يرتديان ثياب العمل. فحملا المكتب والكرسيّ وكلّ رفوف الكتب الّتي لم تكن مثبّتة في الجدران ووضعاها في شاحنة كبيرة تُدعى مايفلاور. وغادرا. وبعد ذلك، راح شاين يتمشّى وسط المتجر. لكنّه لم يبكِ هذه المرّة. كانت هناك بعض الكتب الّتي ما تزال مبعثرةً على الأرضيّة. فمضى يركلها بقدميه. ثمّ خرج. وأقفل الباب. لقد شاهدتُه وهو يُسقط المفاتيح في جيب سترته ويلتفت ناحية الشّارع. وكانت تلك آخر مرّة رأيتُه فيها.

الفصل الخامس عشر

في تلك المرحلة، كنتُ ما أزال أنوي اتبّاع خطى شاين والمئات من أمثالي على نحوٍ صارم. لقد كنتُ أفكّر في المغادرة في أيّ لحظةٍ، وخمّنتُ أنّني قد أجد متجر كتبٍ آخر ربّما، في مكان مّا في ضفّة النّهر الأخرى بكامبريدج، أو أن أذهب إلى الحديقة العامّة، فأشكّل ثنائيًّا مع أحد رفاق جيري القُدامى. ومع ذلك، فإنّ شيئًا مّا لم أستطع شرحه حتّى لنفسي، (شيء يشبه الخدر أو الخمول) ظلّ يمنعني من الحركة. وطفقتُ أُؤجّل الرّحيل يومًا بعد آخر. كنتُ ما أزال قادرًا على تدبّر أمري من أجل تناوُل ما يبقيني حيًّا. ولكنّني لم أجد بتاتًا ما يشبعني. لقد أدرك الهدم شارع براتل. وكان من الواضح أنّ أيّامًا قليلة تفصله عن كورنهيل. أحسستُ بأنّني مرهق وعجوز. إنّ حياة الجرذان قصيرة ومؤلمة، مؤلمة وسريعة الانتهاء. لكنّها تبدو طويلة أثناء حدوثها. كنتُ أقضّي الأيّام الكثيرة أتسكّع في المتجر، حين لا أغادر إلى الشّوارع، بحثًا عن الطّعام الذي يصير أكثر ندرة مع مرور الوقت. لم يبق الكثير ممّا هو جدير بالقراءة. كان هناك بعض كتيّبات دينيّة مملّة. ولكنّني قرأتُها على أيّة حال.

هطل المطر بقوّة منذ يومين، فغسل الغبار والحجارة عن الأنقاض

والحطام، وشكّل في الشّوارع أنهارًا موحلة. كانت بقايا الأطعمة الّتي جلبتُها من الشّارع متناثرةً على أرضيّة كتب *بيمبروك*، تشقّها ظلال قطرات المطر؛ لباب خبز وفتات مأكولات هي من صميم حياة الجرذان -غلاف طعام مكسوّ بالدّهون، قشرة لحم خنزير مقدّد مكسوّة بالدّهون بدورها، قشور فول سودانيّ ونتف منه، قطع جانبيّة من البيتزا- توقّف الرّجال عن العمل بسبب المطر. وتوقّف هدير الآلات أيضًا ليترك المطر يدوّي بمفرده. أحسستُ بالاضطراب والاكتئاب. وقضّيت الصّباح كلّه أذرع المتجر جيئةً وذهابًا. لم يخفت إيقاع المطر. وعند منتصف النّهار، كان الجوّ مظلمًا. فقرّرتُ أن أصعد إلى أعلى، وألعب. كان من العسير استخدام المصعد. وفي غمرة الصّمت، ارتفع صوتُ أنفاسي الثّقيلة.

كان الضّوء مختلفًا في الغرفة. فقد لاحظتُ ما أن مرّرتُ أنفي من فوق الثّقب، أنّ المطر قد توقّف عن الهطول، وأنّ أشعّة الشّمس تتدفّقُ عبر النّافذة المفتوحة. عادت كلّ قطع الأثاث إلى أماكنها، السّرير والطّاولة المكسوّة بالمينا والمقعد الجلديّ ورفوف الكتب بل وكلّ الكتب أيضًا. كان باب الخزانة مواربًا. فرأيتُ من خلاله أنّها عادت مليئة بالخردة مجدّدًا. الحاوية الصّدئة في مكانها وكذلك البيانو بمفاتيحه وخدوشه. «إنّه جيري!»، فكّرتُ في سرّي. «لقد عاد جيري إلى البيت». تلفّظتُ بكلمة بعث. وتركتُها تتوهّج هناك. جلستُ إلى البيانو. وعزفتُ قليلًا، فقط لأسرّح أصابعي الّتي تيبّست وأنتظرَ سماع صوت الخطوات على الدّرج. ثمّ انهمكتُ في

عزف كول بورتر؛ «ندم الآنسة أوتيس» و«قلبي ملكٌ لأبي». أعتقدُ أنّني أفضّل في نهاية المطاف أن أكون كول بورتر على أن أكون الرّبّ. انتقلتُ بعد ذلك إلى غيرشوين ورائعته «لديّ إيقاع». وانغمستُ فيها سريعًا وبكلّ جوارحي، حتّى صار البيانو يهتزّ وأنا أقفز على المقعد وأغنّي بأعلى صوتي. ورغم أنّني أسلمتُ نفسي للموسيقى وانهالت عليّ الصّور في رأسي حتّى شعرتُ بالغثيان، إلّا أنّني كنتُ واعيًا بأنّ شخصًا مّا قد دخل الغرفة بهدوء شديد، وهو يجلس الآن خلفي على السّرير. وكنت قادرًا على استشعار إصغائه. وحسبتُه جيري. فتابعتُ الغناء. وبينما كنتُ أغنّي، أدرتُ رأسي ببطءٍ ونظرتُ.

لم أرها بالألوان من قبل مُطلقًا. ولذلك، لم أتعرّف عليها في البداية. كانت جالسةً على السّرير، يداها متشابكتان على فخذيها، وخواتمها في أصابعها. كانت ترتدي الثّوب الأسود الّذي لبسته في شريط «ساعة الرّقص». كم أحببت مظهرها آنذاك وتلك الطّريقة الّتي يطفو وفقها ثوبُها المدوّمُ، مرتفعًا إلى وركيْها إذ ترقص. كان الثّوب هو السّبب في تعلّقي بها حينئذٍ. لقد تغيّرت كثيرًا في الحقيقة، ووحده صوتها ظلّ على حاله: «أوه! هذا جميل. من فضلك، لا تتوقّف». تابعتُ العزف. ثمّ أعدتُ عزف المقطوعة كلّها، ولكن وفق إيقاعي الخاصّ في هذه المرّة. ثمّ وقفتُ، وتثاءبتُ، مقدّمًا إشارة الوداع. وكان من الواضح أنّها فهمت قصدي، إذ ضحكت لذلك، وجاءت ضحكتها فريدة، لا تشبه ضحكَتَكَ في شيء. كانت ما تزال جميلةً، رغم أنّني لاحظتُ بسهولة أنّ شيئًا مّا، قد يكون

الزّمن أو الحزن، قد تجمّع في شكل دوائر باهتة أسفل ذقنها وجعّد زوايا عينيها الّتي صارت زرقاء.

ذهبتُ إلى النّافذة. وكانت الظّلمة تخيّم في الخارج. التحقت بي. ووقفت خلفي. أحسستُ بنظرتها، وبالثّوب الأسود شبيهًا بغيمة من ورائي. وكنتُ واعيًا بامتداد قامتي وطولها.

حدّقتُ من النّافذة في سهل الأنقاض الممتدّ إلى الأفق، كأنّني أتأمّل صور هيروشيما. تفاجأتُ بالأشواط البعيدة الّتي قطعتها عمليّة الهدم. إذ لم يكن الأمر مخطّطًا له على هذا النّحو. هناك مرجٌ صخريّ يمتدّ من الزّقاق أسفل النّافذة إلى حيث يتحطّم عند السّماء، مرجٌ تمّ صنعه من خلال تهشيم البنايات وتحويلها إلى كومة من النّوافذ والأبواب ودرجات السّلّم والألواح والآجرّ ومقابض الأبواب، ومن ثمّ تكسير هذه الأجزاء إلى قطعٍ صغيرةٍ جدًّا، حتّى إنّها لم تعد تملك أسماء. وبعد ذلك تمّ نشرها وطحنها وتسويتها بالأرض، حتّى صارت فاقدةً لأيّ معنى، ولم يبق منها سوى الأنقاض والخواء. وفي وسط كلّ هذا، انتصب مسرح كازينو. كان الضّوء يفيض عليه ويمكن للمرء أن يرى على جوانبه النّدوب الّتي خلّفها انهيار البنايات المجاورة له. وفي غياب أيّ شارعٍ، كان المسرح مبنى بلا عنوان. ولذلك سمّيتهُ «آخر الواقفين». وعلى جهتي شبّاك التّذاكر، رأيتُ الملاكيْن اللّذيْن اكتشفتُهما أوّل مرّةٍ في اللّيلة الّتي اصطحبتني فيها ماما، أنا ولوينا، من أجل حصّة التّوجيه. مازالتا تلبسان مستطيلين سوداوين عند الثّديين والفرج، وترفعان قدمًا إلى الأعلى كأنّهما ترقصان. كانت الموسيقى تُقبِل من المبنى، باهتةً

صفيحيّة، تتموّج فوق الأنقاض، كأنّها تخرج من صندوق موسيقى. لقد كان المشهد حزينًا على نحو لا يُصدّق. إنّه ذلك الحزن العميق المفعم بالحنين حتّى العظم، والّذي يُشبه حالة سيركٍ قديمٍ على حافّة الإفلاس. كان المسرحُ مضاءً بأكمله. وعلى واجهته المنارة بالضّوء الأبيض -دون أيّ مصباح ناقص- كتب ما يلي: «الصّفقة العظيمة القادمة». وتحتها: «جميع التّذاكر بنصف الثّمن».

كان النّاس مجتمعين في صفوف أمام شبّاك التّذاكر، ثلاثَ ورباع، بينما تلتوي الصّفوف مثل الأفعى وسط الحطام. وما يزال آخرون قادمين، فرادى وأزواجًا، خارجين من كلّ الاتّجاهات في الظّلام. كانوا يحملون الرّزم والحقائب، وبعضهم يقود الأطفال من الأيدي. تبدو عليهم ملامح السّعادة لاقترابهم من المنطقة المضاءة حول المسرح. ولكن ما من أحدٍ كان يركض. لم يُحدثوا أيّ صوت، أو بالأحرى أصواتًا خافتةً، كالنّشيج والكشط. وكان ذلك كلّه يغرق في الموسيقى، رغم خفوتها. مئات من النّاس يتعجّلون في صمت بين الملاكيْن اللّذين ترفع كلّ واحدة منهما قدمها إلى الأعلى، كأنّها ترقص. علّقتُ تحت الصّورة كلمة «اللاّجئين». وفكّرتُ أنّ جيري كان ليتحمّس كثيرًا لهذا المشهد. كانت جنجر واقفةً إلى جانبي عند النّافذة. وتساءلتُ ما إذا كانت ترى نفس الشّيء، عندما قالت لي: «إنّني أعمل هناك. كلّ ليلةٍ أنزع ملابسي في عرضٍ يُسمّى «رقصة نهاية العالم»، إنّ ذلك يدفعهم إلى الجنون».

- «أتعملين في مجال التّعرّي؟»، فكّرتُ في سرّي.

- «فقط ليلًا».

- «إنّك تقرئين أفكاري إذَن».

-«أفكارَك وما يتجاوزها كذلك، معتقداتِك ورغباتِك».

-«لا أعتقدُ شيئًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

-«بل تعتقد أنّك جرذ».

فجأة، علا صوتُ الموسيقى. واحتدّت في شكل لحنٍ متأرجحٍ يتخلّله الكثير من الطّرق النّحاسيّ.

-«هُنا، هذا من أجلك»، قالت. ومدّت لي علبة فشار حمراء وبيضاء، رسم عليها مهرّج ينفجر الفشار من قبّعته.

وهناك في وسط غرفة جيري القديمة، شرعت في الرّقص. لم يسبق أن رأيتها ترقص بذلك الشّكل من قبل، باستثناء مرّاتٍ قليلةٍ ربّما في مخيّلتي. كان رقصًا بلا خطوات يشبه رقص الحسناوات في ريالتو، بعد منتصف اللّيل. إذ يتلوّى الوركان وفق الإيقاع ببطءٍ وثباتٍ. تسلّقتُ المقعد الجلديّ حاملًا معي الفشار، وجلستُ أشاهدها. خطت خارج ثوبها المنزوع. وأرسلتهُ بأصابع قدمها مُبحرًا إلى ركنٍ في الغرفة. ولم تكن تلبس أيّ شيء أسفلَ الثّوب. رقصت عارية تمامًا، وهي تداعب عشّ الفرو بين فخذيها. كانت عيناها نصف مغمضتين وشفتاها متراخيتين. لطالما عجزتُ عن فهم هذا التّعبير. ولكنّني أقدّر أنّه يُشير إلى نوعٍ مخصوصٍ من الشّوق البشريّ. شعرتُ بالأسف الشّديد لأنّنا لا نملك سجّادًا كي تقوم بذلك الجزء من العرض أيضًا. انقضّت عليّ فجأةً. وسحبتني إليها. فرقصنا معًا. كانت ترقص، وأنا أطفو.

ثبّتتني بين نهديها. فدفنتُ رأسي في رائحتها الشّبيهة بالجلد الرّطب. تمايلنا ودوّمنا معًا. وكان الأمر شبيهًا بالطّيران. ثمّ تنحّت جدران الغرفة، مثل ديكور مسرحيّ. فصرنا نرقص في مكان أبيض شاسع. أغمضتُ عينيّ. وتخيّلتُ أنّنا نطير فوق المدينة، بينما ينظر النّاس في الشّوارع إلى أعلى ويشيرون إلينا. لم يروا أيّ شيء من ذلك القبيل؛ ملاك عار يحمل جرذًا. رقصنا لفترةٍ طويلةٍ. ورقصنا بإيقاعٍ أسرع. واحتدّت الموسيقى. وعَمَّ الجنون والسّعار. وفجأةً، توقّف كلّ شيء. انفجر الصّمتُ في المكان. واندفعت الجدران عائدةً إلى مكانها. أمّا هي، فقد أرخت نفسها. واستلقت على السّرير. كانت تضحك، وهي ما تزال مُمسكة بي. وكان بإمكاني أن أحسّ بصدرها يعلو ويهبط من تحتي. مثلما أحسستُ بقبضتها تتراخى حول ظهري. وإذ رفعتُ رأسي، وجدتُ عينيها مغمضتين. تملّصتُ من قبضتها. وجثوت عند وجهها، متشمّمًا رائحة عُنقها ونفَسَها الدّافئ. هناك ماسات عرقٍ تلمع على شفتها العليَا، شربتها الواحدة تلو الأخرى. ووجدتُ طعمهَا مالحًا. كنتُ أعرفُ من خلال قراءاتي أنّه طعم الدّموع كذلك. نهضتْ. وقلبتني على السّرير.

-«حان الوقتُ»، قالت. وعبرت الغرفة إلى أن وصلت حيث تركت ثوبها. ثمّ انحنت. ولبست سروالًا أسود.

-«ماذا حدث للثّوب؟».

لم تجبني. لحق بالسّروال الأسود قميصٌ أبيض، ومن ثمّ سترة عمل سوداء كي تنسجم مع السّروال. كانت بصدد المغادرة. لو كنتُ

رجلًا، لكنتُ جثوتُ عند قدميها وتسمّرتُ بكاحليها، وانتحبتُ. لم أرغب في أن ترحل وتتركني.

-«لا تذهبي».

تصلّب وجهها فجأةً وقالت: «لا تكن غبيًّا يا فرمين. هذه هي النّهاية حقًّا».

-«لا، سأدفعك إلى البقاء. انظري».

قمتُ بكلّ ألاعيبي من أجلها. ولكنّني عجزتُ التّشقلُب بشكلٍ كاملٍ. إذ لم أعد قادرًا على فعل ذلك بسبب ساقي المصابة وتقدّمي في السّنّ ورأسي الثّقيل. وفي كلّ مرّةٍ كنتُ أحاول فيها من جديد، سقطتُ على ظهري، الأمر الّذي كان يضحكها ويجعل الحركة جديرةً بالمجازفة. ثمّ توجّهتُ إلى كتاب. وتظاهرتُ بالقراءة. فضحكت مرّةً أخرى. لكنّها كانت بصدد المغادرة على أيّة حالٍ. ومن خلال النّافذة، لمحتُ بداية بزُوغ الفجر.

- «العمل في كازينو عملٌ ليليّ. أمّا عملي النّهاريّ، ففي محافظة المدينة».

- «هل تعملين معهم؟! ولكن يا جنجر، لا يمكنك فعل ذلك. إنّهم العدوّ».

- «يملك الجميع وظيفتين يا فرمين، واحدة نهاريّة وأخرى ليليّة، لأنّ كلّ النّاس يملكون وجهين اثنين، واحد مظلم وآخر مضيء. ينطبق الأمر عليك، عليّ وعليهم كذلك. لا أحد يمكنه أن يفلت من هذا».

لاحظتُ فجأةً وجود حقيبة ضخمة على الطّاولة المعدنيّة. فتحتها. وراحت تنقّب في كومة من الأوراق التي تبدو رسميّة من مظهرها. وأخيرا، سحبت واحدة منها، ومدّتها إليّ.

- «كلّ شخص هو عدوّ نفسه يا فرمين. عليك أن تفهم هذا الآن».

وضعَت الورقة على الأرضيّة. وفتَحتها أمامي. وقفتُ عليها. وقرأت ما فيها: *إشعار بالطّرد*. أتحتُ لبصري أن ينزلق إلى الأسفل حتّى آخر فقرة. «واستنادًا إلى ما سبق ذكره، يُطرد بموجب هذا الأمر من هذا الكوكب الجرذُ فرمين، الدّخيل، المتشرّد، التّافه، المتحذلق، المتلصّص، قارض الكتب، الحالم السّخيف، الكذّاب، الثّرثار، والمنحرف الفاسد». كانت ممضاةً من الجنرال لوغ نفسه.

- لماذا تقدّمين لي هذا؟ إنّه إشعار بالطّرد.

- لعلّه يكون دعوةً أيضًا. يرجع الأمر لك بالنّظر.

لقد غادرت موصدةً الباب من خلفها. واستطعتُ أن أسمع لسعة المزلاج الحادّة، ومن ثمّ نقرات كعبها النّازلة على الدّرج. كان هناك صوتٌ ناعمٌ مقوّسٌ عند انفتاح الباب الخارجيّ. ثمّ ارتفع الضّجيج. وسُمع صوت جرّافة تدوس كورنهيل بفولاذها.

تسلّقتُ المقعد الجلديّ. وتمدّدتُ على ظهري، أقدامي الأربعة في الهواء. أغمضتُ عينيّ. بل إنّني قطّبتُ، واعتصرتهما. وسحبتُ تلسكوبي الصّغير. ورحت أبحث عن أمّي. أخذتُ أسردُ قصّة حياتي. وكانت بدايتها على هذا النّحو: «هذه أحزنُ قصّة سمعتها

في حياتي». مكثتُ كذلك طيلة الصّباح، تنهال عليّ الجمل مثل قوافلٍ تقطع الصّحراء، حاملةً الصّور. تساءلتُ عن العنوان الّذي سأضعه لها. لكنّ القصّة استمرّت في التّدفّق ممتزجةً بالماء. كانت بضع كؤوسٍ في البداية، تظهر في مواضع خاطئة. ثمّ صارت دلاء مندلقة. وتحّولت بعد ذلك إلى أنهارٍ وسيولٍ جارفة، حملت الجمال المسكينة، وقلبتها على ظهورها، وعقدت قوائمها المختضّة في الفراغ، بينما غرقت ظهورها في القعر. كنتُ ظمآنًا بشكلٍ فظيعٍ. لعلّ ملح عرقها هو السّبب في ذلك. لكنّني أدركتُ أنّ عليّ البحث عن الماء، فتركتُ المقعد حيث كُنت سأُقضّي كلّ حياتي في سعادةٍ لو كان فيه ماء، ركبتُ المصعد، ونزلتُ. كنتُ أضعف ممّا تخيّلتُ. وكدتُ أسقطُ مرّات عديدة. وتساءلتُ ما إذا كان بإمكاني الصّعود من جديد.

وصلتُ إلى المتجر. فوجدتُ الواجهة الأماميّة محطّمةً. وقد خلّف المطر بركةً صغيرةً حذو العتبة. فشربتها كلّها، قبل أن ألحس قطع الزّجاج المكسورة. زحفتُ إلى الرّكن، حيث تنتصب في العادة مسجّلة النّقد. ونمتُ. ولأوّل مرّة منذ أسابيع عديدة، لم أحلم بشيء. أيقظتني آخر ذلك المساء هزّة مدوّية، لحقها حمّام من الغبار والجصّ. فتحتُ عينيّ مجدّدًا. فرأيتُ فجوةً ضيّقةً قد انفتحت في السّقف من فوقي. مرّرتُ رأسي منها، متفحّصًا ما بقي من الشّارع. لقد رحلت معظم البنايات الّتي كانت تشكّل الجهة المقابلة وارتفع في مكانها جبل من الحطام. كانت هناك آلة ضخمة مبقّعة بالوحل تهدر وتجوب المكان في جوف الأخاديد، مثل ديناصور.

وكان اسمها كاتربيلر[1]. وبينما أتفرّج، فتحت الآلة فماً عملاقًا، وأخذت تمضغ دعامةً خرسانيّة، كانت ذات يوم جزءًا من الجدار الخلفيّ لحانة داوسون. ظلّت الأجزاء والأحجار تتفتّت بين فكّيها، مثلما يتفتّت الأرزّ في فم رضيع. *نافذة على نهاية العالم*. وبعد دقائق قليلة، التفتُّ دونها. لقد قضّيتُ حياتي كلّها أشاهد العالم من خلال الأثلام، وهو أمرٌ سئمتُه حقًّا.

ورغم أنّني التفتّ دون الفتحة الّتي تعرض الحاضر المحتضر، وجدتني قبالة فتحةٍ أخرى تمثّل هذه المرّة صدعًا في الزّمن. وكانت الذّكريات تنسكبُ منها كأنّها المحيط.

وكنتُ ظمآنًا مرّةً أخرى. نزلتُ إلى القبو مستخدمًا الدّرج هذه المرّة لأرى ما إذا كان هناك ماء متبقٍّ في المرحاض. وما إن أدركتُ آخر عتبةٍ حتّى أخذت البناية برمّتها تهتزّ وترجف. بدت الأرضيّة الخرسانيّة متموّجةً أسفل أقدامي. وكان الضّوء المشعّ المتدلّي من السّقف، ذاك الّذي ما فتئ يومض ويطنّ فوق رأسي، منذ زمن بعيد وحتّى أمس كذلك، بينما أمضغ وأقرأ طريقي باتّجاه نوع آخر من الضّوء، قد تحوّل إلى بندول ساعة مظلم، يتأرجح ويرتعش على إيقاع موجات الخراب العظيمة الّتي تكتسح كورنهيل. عبرتُ من تحته. وبُعيْد لحظةٍ، تداعى مُهَشّمًا على الأرض من خلفي. طارت في الغرفة قطع منحنية من زجاج حليبيّ، وحطّ بعضها على رأسي

(1) شركة أمريكيّة تعتبر الأكبر في العالم في مجال معدّات البناء. تقوم بتصميم المعدّات الثّقيلة وتصنيعها وتسويقها.

وظهري مثل مطر جافّ. يا لخطى الجرذ على الزّجاج المكسور! كم هي هادئة وعبثيّة! انفتح باب دورة المياه. وانفلق حوض المرحاض إلى شقّين. لم يكن فيه ماء. وها إنّي بمفردي في هذا القبو الجافّ. كانت جنجر على حقّ عندما قالت إنّها النّهاية. فكّرتُ في البيانو الصّغير الّذي أحتفظ به في الطّابق العلويّ. لا شكّ أنّه قد تحطّم أسفل العوارض المتداعية. لم يكن بوسعي فعل أيّ شيء لإنقاذه الآن. تخيّلته، وهو يستقبل أوّل عارضة تسقط عليه، فينشئ بمفرده صوته الصّغير الأخير دون أن يسمعه أحد. فكّرتُ في تسلّق إحدى منازل الدّمى العملاقة هذه، والإلقاء بنفسي من قمّتها. لكنّني تراجعتُ إذ خمّنتُ أنّني أخفّ من أن أموت بذلك الشّكل. وبدلًا من ذلك، سأطفو مثل ورقةٍ باتّجاه الأرض. إنّني أذكر هذه الأفكار لأنّها هي تحديدًا ما كان يعبر رأسي عندما لمحتُ الكتاب. لقد كان محشورًا أسفل سخّان الماء، لا يظهر منه سوى طرف صغير. تعرّفت عليه مباشرة. واتّجهتُ نحوه. فسحبتُه. واستطعتُ أن أتبيّن على غلافه بوضوح أثر أسناني عندما كنت رضيعًا. مثلما أنّ بعض الصّفحات مازالت تحافظ على آثار أقدام فْلو المتّسخة، وهي تتأهّب لتمزيقها.

ثمّ تيقّنتُ من الأمر.

احتجتُ إلى وقتٍ طويلٍ وإلى قوّتي كلّها كي أتمكّن من سحب الكتاب برمّته من خلف السّخّان إلى ما تبقّى من عشّنا القديم في الرّكن. لقد صار كومةً صغيرةً من المزق الورقيّة الملطّخة، الخالية

تقريبًا من كلّ رائحة. وبمُجرّد أن تمّ ذلك، حتّى كدتُ لا أسمع أيّ صوتٍ في العالم. تحوّل هديرُ الشّاحنات إلى رياحٍ، وأصواتُ التّحطّم والانهيار إلى صفعاتِ الأمواج على الصّخور السّوداء. وصارت صفّارات الإنذار هديل الطّيور البحريّة الحزين. حان الوقت للذّهاب. كان من عادة جيري أن يقول إنّه إذا لم يرد المرء أن يعيش حياته من جديد، فذلك يعني أنّه قد أهدرها. لا أعرف حقًّا ما أقوله، فرغم أنّني أعتبر نفسي محظوظًا لأنّني عشتُ حياتي تلك، إلّا أنّني لا أرغب في أن أكون محظوظًا بذلك الشّكل مرّتين. مزّقتُ مقطعًا من آخر الكتاب، وظللتُ أطويه مرّاتٍ عديدة، حتّى صار لفافةً. حفرتُ قليلًا وسط الورق. وجلستُ ممسكًا باللّفافة بين قدميّ الأماميّتين. وقرأت ما كُتب في أعلاها، إذ رنّت الكلمات في أذنيّ مثل الأبواق: «أوه! وستبقى صدمةُ صرخاتنا حتّى نشرق أحرارًا». عدتُ إلى ما كان يومًا مّا عشّ طفولتي. فتحتُ اللّفافة مرارًا وتكرارًا، حتّى عادت قطعة من صفحة، صفحة من كتاب، كتاب من إنسان. فتحتُها بأكملها. وقرأتُ: «لكنّني أكرههم. وهكذا، أحبّ ممتلئًا بقوقعتي. أنطفئ، من أجل أخطائهم كلّها. أوه، أيّتها النّهاية المريرة! لن يروا أبدًا. ولن يعرفوا أيضًا. ولن يشتاقوا إليّ. وهذا قديمٌ قديمٌ. إنّه مؤسفٌ وقديمٌ، مؤسفٌ ومنهكٌ». حدّقتُ في الكلمات الّتي لم تسبح أمام عينيّ ولم يغمرها الضّباب، فالجرذان لا تملك دموعًا. جافًّا وباردًا، كان العالمُ. وجميلةً كانت الكلماتُ... كلمات الفراق والوداع، يتلفّظ بها الصّغيرُ بلسانِ الكبير. ومرّةً أخرى، طويتُ المقطع كلّه. وأكلتُه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سام سافاج

مغامرات قارض كتب

كيف استطاع سام سافاج أن يهب جنّةً من كُتب لجرذٍ صغيرٍ اسمه فرمين؟ وأن يجعل جنّته هذه في أسفل مكتبةٍ صغيرة بميدان سُكولاي في بوسطن؟ يمضي فرمين على منهاج «ألف ليلة وليلة»، يُخرجُ الحكاية من الأخرى، بينما يتقفّى حياة صديق بشريّ، يحبّه من طرفٍ واحدٍ لأنّه يراه بعين الكلمات، حتّى يقع بين يدي صديق آخر ينقذهُ من الموت. كيف لا يكون ذلك واللّقاء لقاء جرذ الكتب، القارئ الموسوعيّ بالكاتب البوهيميّ الصّعلوك. يتقدّم الجرذ بنا في حياته الدّنيا، كأنّه يقودنا في المتاهة. لا دليل لنا غير جنونه وشغفه بالأدب والكتب والحياة. لا جهة ندركها بوضوح ولا رياح تنبئنا بوجهة سفننا. كلّ ما نعلمه أنّ تتالي الحكايات العجيبة يخطفنا بعيدًا عن الأرض.

إنّها روايةٌ تُصيب بدوارٍ عجيب، يخرجُ منها المفقودُ متيقّنًا من أمرٍ وحيد؛ لقد دلّته هذه المتاهةُ على الفنّ الذي يسكن داخله، مُحتضًا بالرّفض والمقاومة.

أشرف القرقني

telegram @soramnqraa

ISBN: 978-9938-24-208-9